رواية
زمن الغبار
فاطمة بن محمود

زمن الغبار

فاطمة بن محمود

زمن الغبار

روايـة

زينب للنشر

الكتاب: **زمن الغبار**
الكاتبة: **فاطمة بن محمود**
النوع: **رواية**
الطبعة: **الأولى 2023**
الناشر: **زينب للنشر والتوزيع**
26 شارع الحبيب بورقيبة 8090 قليبية، نابل/تونس
(216)22388773/(216)72276047
Zayneb.edition@yahoo.fr
التوضيب الداخلي: **صفاء بن سليمان**
الإخراج الفني: **أسماء بنحميدة**
ر.د.م.ك: 1 - 224 – 39 – 9938 – 978
جميع الحقوق محفوظة للناشر©

إهداء أول

إلى أمي...
غيابها جمرة لا تنطفئ.

إلى ابنتي...
حضورها وردة لا تذبل.

إهداء ثان

إلى الجنود اللذين يَحرسون أوطانهم، ويُقتلون غدرا.

تصدير

قلتُ يا رب:
إن هذا العالَم لا يُعجبني؟
فقال لي:
اهدمه وابن أفضل منه.

(محمد إقبال)

الفصل الأول

1

يوم الأحد 28 جويلية 2013
الموافق ليوم 19 من شهر رمضان 1434 هجري
الساعة الرابعة مساء
بإحدى الضواحي الفاخرة للعاصمة التونسية

عندما حل موكب الرئيس كان كل شيء جاهزا، تم اقتلاع شجرة زيتون صغيرة من أرضها وجاء بها عمّال البلدية الذين هيؤوا الحفرة وطمروا عروق الشجرة. تقدم رئيس الدولة بخطى حاول أن يجعلها ثابتة وسط مرافقيه وفرقة من الأمن الرئاسي المدجج بالسلاح وطائرتي هيلوكوبتر عسكريتين تحومان فوق المكان، الوضع العام في البلاد مربك فقد كثرت الاحتجاجات الشعبية لأن الأوضاع متردية جدا وازدادت توترا منذ أيام قليلة بعد عملية إرهابية تم فيها اغتيال السياسي البارز محمد البراهمي، لكل ذلك ينذر الوضع العام في البلاد بخطر محدق لا يمكن أن يستثنى منه الرئيس نفسه، لهذا تم نشر حراسه في كل مداخل الحديقة التي وقع إخلاؤها من الناس قبل يومين من هذا الموعد. اقترب رئيس الدولة وبيده مجرفة نظيفة وأخذ يسوي التراب الناعم حول جذع الشجرة، مجموعة من أعوان الأمن أُبعدوا عن مجال التصوير وتمّ التقاط تصفيقهم الحار. حتما هناك علاقة بين مقاومة الإرهاب وزرع شجرة، الرئيس نفسه لا يعلم كيف يكون ذلك لكن الإعلام الوطني سيجد تلك العلاقة، كما أن زرع شجرة في حديقة عمومية تؤكد أن الرئيس في خدمة الشعب وهذا مهم أيضا..

في اللحظة التي اِندلع فيها وميض من عدسات الكاميرا تصور فخامة الرئيس يتصدى للإرهاب بمجرفة في يده وهو يقف أمام شجرة زيتون صغيرة غريبة عن أرضها اندفع صراخ امرأة عند الحاجز الأمني الأول "أريد أن أخبر رئيس الدولة بكل شيء"، تلقفتها أياد قوية وشدتها إلى الوراء واِنهال عليها الصراخ من كل جهة غير أن عناد المرأة شديد، لم تهدأ حركتها ولم يخفت صراخها، تحاول بجهد بيّن أن تتملص من قبضاتهم وهي تصرخ "أتركوني سأخبر رئيس الدولة". أمام تشبثها بلقاء

الرئيس إزداد ضغط قبضاتهم التي تحيط بمعصميها وكتفيها وهي تشدها إلى الخلف حتى شعرت أنها تكاد تسقط، لكن عنادها كان شديدا لذلك تلوّت بين أيديهم وهي لا تزال تصرخ: "أتركوني، أتركوني سأخبر رئيس الدولة بكل شيء". كان يجب على أعوان الرئيس أن يكونوا أكثر كفاءة في التصدي للمرأة الغاضبة والعنيدة، في لحظة خاطفة سمع بعض ممن كان قريبا ارتطاما شديدا على الأرض ولم تدري المرأة نفسها ما الذي حدث: هل هي ضربة شديدة من متراك[1] أحدهم أو أنها إنفلتت من بين أيديهم وسقطت بقوّة على الأرض؟

شعرت أنها تسقط في بئر عميق، بصعوبة يصلها الصوت الزاعق لسيارة الإسعاف، إنها لا تشعر بجسدها وكأن عجلات السيارة تجري فوقه، ثم لم تعد تعي شيئا.

[1] متراك: (كلمة بالفرنسية) تعني العصا الغليظة التي يحملها البوليس.

الفصل الثاني

1

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري
الثامنة صباحا و5 دق (بتوقيت سوريا)
في مكان غير معلوم

اِستفاق فجأة، وبدأ يستعيد وعيه شعر أن جسده ثقيل، يتنفس بصعوبة شديدة كأن حجرا سدّ حلقه، تَصِلَهُ أنفاسه ممزوجة بحشرجة باهتة، وتناهت إليه رائحة رطوبة تمتزج بعفونة كأنه مُلقى داخل قبر...

فتح عينيه بصعوبة وبسرعة أغمض جفنيه، عاد ففتح عينيه ولا يدري هل هو الليل أم أن عينيه لم تعودا تبصران واِنقبض قلبه، تملّكه رعب شديد لمجرد فكرة أنه قد لا يبصر ثانية فتحامل على نفسه وحاول فتح عينيه عله يرى من خلال الظلام شيئا فوقع بصره على سقف منخفض اِنعكس عليه ضوء باهت فاِطمأن إلى أنه يرى، حين همّ بالنهوض صرخت أعضاؤه من شدة الألم...أرخى جسمه ببطء حتى لا تزداد أوجاعه وأراد أن يتذكر أين هو؟

ما الذي أتى به إلى هذا المكان؟

وجد صعوبة في التذكر، كأن ذاكرته أيضا أصابها عطب واِضطر أن يستسلم لهذا الليل الرطب المتعفّن، تناهى إليه أنين خافت بجواره، كان رأسه ثقيلا لم يستطع أن يرفعه في اِتجاه الأنين...زاد ذلك من توتره، اِنتبه إلى خطى أقدام بدت ثقيلة تتنقل في المكان وأصوات متداخلة تغمغم لم يستطع تبيّن ما تقوله، يعود فيجهد نفسه في تذكر السبب الذي أتى به إلى هذا المكان وما الذي رماه في هذه الرطوبة القذرة؟

لماذا يجد صعوبة في التنفس ولِم خذلته ذاكرته؟

كأن للذاكرة عضلات مرهقة وغصّت بحكايات موجعة لذلك تستحي منه فتتركه يتخبّط في شرك معلومات متداخلة تبدو في شكل وميض خاطف لا يقوده إلى شيء واِضطر للاستسلام. شعر بخطى ثقيلة تقترب منه، لم يستطع أن يفتح عينيه وأخذ في سعال خافت متقّطع كأنه يريد أن

يقول إنّه لم يمت بعد، نجحت رسالته وردّ على سعاله الخفيف المتقطّع صوت خشن لم يعرف صاحبه:

- السلام عليك يا ربيع، ها أنت بخير يا بطل، الرصاصة جاورت قلبك ولم تمت.

ثم أطلق قهقة عالية وأضاف:

- هههههه أنت بخير الآن والحمد لله، لازال في العمر بقية من جهاد هههه هههه.

اِبتعد الصوت الخشن وهو يقول كأنه يوجه حديثه لجميع من كان في المكان:

- من يستطع منكم الصلاة فلا يتأخر (أضاف) إن أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة من عمله، صلاته.

أخذ معه بقية قهقهة متقطّعة وغادر المكان...

لم يفهم شيئا ولم يعرف صاحب الصوت ولكنه حاول أن يستعين بما قاله له ليتعرّف على نفسه، الآن أدرك أنه ربيع.

اِطمأن قليلا وآلمه أنه في وضع يسعد فيه بالتعرّف على نفسه، كم يبدو هذا طريفا وقاس. أراد أن يرفع يده اليسرى فلم يشعر بوجودها وهاله الأمر، كأن يده قد شلّت. أراد أن يحرّك يده اليمنى فبدت له حركة اليد مهمّة شاقة، وهو يرفعها ببطء شديد رافقه ألم لا يطاق وحطّ يده برفق على صدره وفزع، فقد تحسّس ضمائد مشدودة بدت أطرافها يابسة بفعل دماء جافة...

صدق الرجل يبدو أنه اِقترب من الموت كثيرا. أعاد فتح عينيه بصعوبة، أدار بصره حوله ببطء فلمح ضوءا خافتا عرف أنه الصباح، وتأكد أنه لم يمت بعد.

شعر بمرارة في حلقه ورغبة في البكاء، لقد تذكر كل شيء الآن.

يبدو أن الرصاصة لم تمزق ذاكرته، عاد فأغمض عينيه وأحسّ أنه يذهب بعيدا فيما يشبه النوم العميق، راقه أن يستنجد بذاكرته فتلبي من أجل أن يتناسى أوجاع جسده ورائحة الرطوبة التي تزكم الأنوف وتشعره برغبة في التقيّؤ وتلهيه عن أدوية غير موجودة ومسعف منشغل عنه وطبيب غائب.

2

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري

الساعة العاشرة صباحا و5 دق
(بتوقيت تونس)

وخزتها رائحة لاذعة، فتحت ثريا عينيها وتراءى لها البياض يخيم على المكان فأغمضت عينيها من جديد. اليوم الإثنين، في بداية الأسبوع تصبح مواد التطهير اللاذعة ضـــرورة للتخلص من كل غبار يكون قد تســـرب للغرفة في نهاية الأســـبوع. جالت ببصـــرها في أرجاء المكان، يبدو أنها لازالت على قيد الحياة وهذا جيد، إذن ستلتقي به.

تحسّست بكفّها اللّحاف الرطب وشدّت بقوة طرف السرير، نعم يجب أن تظل على قيد الحياة من أجل أن تلتقيه، شـــعرت أنها منهكة تراخت أصـــابعها على طرف الســـرير. هل فعلا مجرد اِرتطام على الأرض أم متراك هوت على رأســـها؟ وشـــعرت أنها تعود إلى الغيبوبة، يجب أن تقاوم، لا تقوى على رفع جفنيها، لا تســـتطيع فتح عينيها، تجهد نفســـها أكثر، يبدو فتح العينين عملا صـــعبا، أخيرا أرســـلت بصـــرها تتحسّـــس المكان، عزّ عليها أن يرتخي جفنيها من جديد، شـعرت بوقع خطى تروح وتجيء قريبـا منهـا، اِبتعـدت عنهـا الخطى هـدأت رائحـة مواد التطهير وبقيت رائحة الأدوية.

أصبحت الآن في غرفة صامتة، تعلم أنها لم تمت فهي تشعر بدبيب في عقلها يتجرّأ عليها ويفكر. تذكرت الضربة القوية التي تلقتها فسقطت بشدة على الأرض؟

يجب أن تكون لها إجابة محددة وواضـــحة، إن كانت ضـــربة متراك ســـتشـــكوهم، فبعد ثورة الربيع في تونس لا يحق للبوليس أن يعتدي على المتظاهرين بالضرب وإن أسقطوها أرضا فستشكوهم أيضا، لا يجب أن تنفلت بين أيديهم فتسقط بشدة على الأرض، الشرطة في خدمة الشعب.

همست ثريا لنفسها "مازلتُ مصرّة، سأخبر رئيس الدولة بكل شيء".

شـعرت بِاطمئنان، عقلها يفكر وهذه إشـارة مهمة فالارتطام الشـديد لم يفقدها القدرة على التفكير بل ويفاجئها بأنها تتذكر أيضا وهذا يعني أنها لا تهذي...
هل يعود؟
وأخذتها غيبوبة...

* * * *

كانت ثريا تعدو خلفه بكل قواها، تمدّ رجليها في خطوة واسـعة تتبعها بخطوة أخرى تحاول أن تجعلها أوسـع يصـطدم وجهها بالهواء وتتقطع أنفاسها ورغم ذلك يجب أن تلحق به...
- لا يمكن أن أتركه هذه المرّة.
تهتز الصـور أمامها لكن تحاول أن تثبّت بصـرها عليه حتى لا تفقده، حتى لا يبتلعه الزحام وتُفجع فيه ثانية، ليس هناك أشدّ مرارة من الفقد.
لازَالتْ تلهث خلفه، يصـطدم جسـدها بكتل لا تتبيّنها لأناس تجعلهم الصـدفة في طريقها ويرتطم عقلها بأفكار لا تفهمها الآن، لا شـيء يهمّ غير أن تلحق به. إنّها تراه الآن، تنفرج أسـاريرها لحظة ثم يعود ويختفي وسط الزحام...
تسـتطيع أن تتبيّنه وهو يفرّ منها، يا لقلبها المسـكين يشـتد خفقانه ولا يستسلم.
- أيّة فكرة شرّيرة تجعله يفرّ مني؟ كيف يستلذّ حياة لستُ فيها؟
لكن لن أستسلم، سألحق به هذه المرّة...
خطواتها واسعة جدا تضيق عندما تصطدم بكتل بشرية أو بعربة بضائع صـغيرة أو بطفل تريد أن تصـرخ بأمه "لا تتركيه ينفلت من يدك" لكن عينيها مثبتتين على نقطة سوداء هي رأسه وتخاف أن تضيّعه ثانية وسط الزحام، تشـعر بالإنهاك يتسـرّب إلى جسـدها المهزوز، عنادها يلحّ عليها وفجيعتها تضغط بشدة على كل ذرّة من كيانها، لن تتركه يُفلت هذه المرّة. تشـعر أنها تقترب منه الآن أنفاسـها متقطّعة ولهاثها حاد وأعصـابها

مشـدودة، الأفكار تتلاطم في رأسـها ومشـاعرها تتصـادم، في اللحظة التي تهمّ فيها بالقبض عليه تهتف:

- لن أتركك بعد الآن ولو أطبقت السماء على الأرض.

مدت يدها في اِتّجاهه واِنغرسـت أظافرها في ياقة قميصـه وجذبته لها بكل قوة عندما همّ بالاستدارة إليها انزلقت قدمها و.. سقطت.

* * * *

اِستفاقت ثريا مذعورة...!!

أنفسـاها متقطّعة وحلقها جاف ونظراتها زائغة، ليس أشـدّ عليها من أن تضيّع ولدها الوحيد ربيعا، كم يبدو مرّا أن تفقده.

جالت ببصـرها في المكان، كل شـيء حولها سـاكن حتى البياض يبدو لونا جامدا يثير رغبتها في التقيؤ. اِبتلعت ريقها بصـعوبة وأحسّـت مرارة في حلقها، أقصـى أمانيها في تلك اللحظة شـخص يدخل عليها الغرفة البيضـاء الباهتة ويمدها بقليل من الماء، مدّت طرف لسـانها ومسـحت به شفتيها الجافتين فتحسّست قشرة خفيفة وشقوقا صغيرة.

تمنت أن يدخل الآن من يخفف من ألمها، رفعت رأسـها قليلا وبدا أن هذه الحركة الصـغيرة متعبة فعادت وألقت برأسـها على المخدة في اِستسلام، تشتهي نوما عميقا أشبه بالموت يمكن أن ينسيها ظمأها ولوعة تعتصر قلبها فيكاد ينزّ دما من أجله.

عادت كفها تتحسّس طرف السرير بلعت ريقا مرّا أثار قرفها وأغمضت ثريا عينيها متظاهرة بالنوم، أدارت وجهها إلى اليسـار وفتحت عينيها فلمحت على طرف اللحاف خطا كُتب عليه باللون الأزرق "مصـحة الهناء".

3

في حياتها لغز لا تستطيع البوح به ولا تقدر على تفسيره، يطلّ عليها في كل حين يكدّر صفوها ولا يمكنها ردّه. ينشغل والداها عنها بحياتهما لا تجد لنفسها مكانا فيها وتنشغل عنها أختها الصغرى بدُمَى مهترئة. حياة العائلة تدور حول شيء غامض لا تفهمه. تفكر أنه يوجد سر يسكن في درج أبيها الذي يغلقه بمفتاح صغير لا يفارقه يضع فيه أوراقا مهمّة وشيئا آخر لا تعرفه، كما تفكر أن هذا اللّغز يسكن نظرات أمها التي تبدو فاترة ومرتخية وخالية من الحياة...

يناديها الناس "أملا" وتعتقد أن والديها لم يختارا لها هذا الاسم وإنما كانا يسميّان طريقة ممكنة لحلّ ذلك اللغز، لعلها كانت طريقة لتسمية ذلك الشيء الذي يخفيه أبوها في الدرج الصغير ولا تعرفه أو هو وصف لذلك الشيء الذي يسكن نظرات أمها ولا تفهمه، تعتقد أنّ لا اسمها ولا وجودها أصلا اِستطاعا أن يغيّرا شيئا من هذا البرود الجاثم على البيت.

شعورها بوجود هذا اللغز يبعثر حياتها ويحوّلها إلى كائن هشّ يسهل كسره ورغم ذلك لا تستطيع أن تمنع نفسها من التفكير فيه فكانت تسمّي هذا اللغز غولا يدخل كل بيت وأهله نيام لا ينتبهون إليه ويسكن ركنا لا يصلون إليه وأحيانا تسميه فكرة غامضة تختفي في تفاصيل الحياة وتعشّش فيها فتبثّ البرود وأحيانا تردّه إلى ماض يسبق ولادتها قد يكون لحظة عبث صنعت أقدارا لأفراد هذه العائلة على غير ما يشتهون.

في كل الحالات تجد اللّغز بلا مفاتيح ممكنة وقد أضناها كثيرا أن تفكر فيه بلا جدوى...في مرّات كثيرة اِعتقدت أنها مسؤولة عن العائلة لذلك تسعى أن تجعل الفكاهة تعم البيت فيضجّ الجميع بالضحك وتحب أن تجعل البيت الصغير المثقل بهموم الحياة يغني بأصوات مختلفة ولكنها تفشل، تصطدم دائما بتنبيه يلزمها الصمت لأن أباها نائم وأمها متعبة.

حاولت أن تنشغل بأختها الصغرى حتى لا تحمل مثلها عبء اللّغز ولا يرهقها هذا الفراغ الذي يدوّي في أرجاء حياتهم، فتكون لها أمّا بدلا عن دميتها ولكنها لم تشعر أبدا أنها منسجمة مع دور لم يكن لها، كأنها كانت ترتدي ثيابا أكبر من مقاسها، أزعجها أن تكون أُمّا وهي بدورها تحتاج يد

أم تحنو عليها وتبتسم لها وتستمع معها إلى حكاياتها الصغيرة وإلى أغنياتها المفضّلة.

ترى غرفتها الجميلة بلون وردي هادئ، ترتاح كثيرا إلى الألوان الهادئة تشعر أنها لا تحتمل الأسرار ولا تقبل التأويلات وهذا يكفي بالنسبة إليها.

على الجدار الأيمن حيث خزانة الملابس ومكتبها كانت ثمّة صورة كبيرة لفرقة ميتاليكا، أما حبيبها فلم تكن ترسم صورة محددة له فقط تريده يشبهها ونقيضها في آن واحد ولا تدري كيف يكون ذلك، أحيانا تفكر في حبيب يشبه جورج كلوني ولا يشبهه، تغير رأيها بسرعة وتحبه يشبه براد بيت ولا يشبهه أيضا...يرهقها كثيرا أن تذهب بخيالها بعيدا وتجد نفسها تسقط في دوامة من أفكار غير متناسقة وأمنيات مشوّشة وكأنها بصدد صياغة حياة خاصة بها وفق رغباتها ويعييها ذلك فتستمع إلى موسيقى صاخبة لا تتجاوز سماعتي هاتفها الجوّال وتطبق عينيها على الفراغ.

4

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري

الثامنة صباحا و20 دق
(بتوقيت سوريا)

بعد دقائق قليلة فتح ربيع عينيه ببطء، كان مُلقى على سرير خشن ولا يستطيع الحركة، جال ببصره في السقف المنخفض وفي أرجاء المكان الفسيحة. يبدو أنه مخزن كبير وقديم تنقصه الإضاءة وتفوح منه الرطوبة، رأى في آخره بابا صغيرا لا يتلاءم حجمه مع المخزن. وعلى جانبيه تكدّست أسرّة غير منتظمة عليها أجساد جريحة يصدر عنها أنين، يبدو أنه مستشفى ميداني يضعون فيه جرحى المعارك العسكرية وهمس "اللهم أنت عضدي ونصيري بك أحول وبك أصول وبك أقاتل ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله".

عن يمينه لمح أحد الجرحى أتوا به منذ حين، رجله مضمّخة بدماء يابسة داخل حذاء عسكريّ بدا جديدا، فرشوا له ملاءة متّسخة على الأرض أُلْقي عليها بإهمال وهو في غيبوبة. اِنتبه أنّ الجريح شاب بلحية خفيفة لا يدري أين رآه قبل الآن، لم يكن على اِستعداد أن يجهد نفسه ليتذكره، حوّل بصره إلى يساره فرأى جريحا آخر هو كتلة من أشلاء مشوهة ربما تعرض لإنفجار لغم أرضي، اِستغفر ربه وأغمض عينيه وهو يتمتم "اللهم لا ترينا أعمالنا حسرات واِجعلنا نخشاك كأننا نراك واِجعل قلوبنا تذكرك ولا تنساك واِجعل خير أيامنا يوم أن نلقاك...".، إذن هو في مستشفى ميداني لا يبعد كثيرا عن ساحة المعركة وهذا يعني أنه في إحدى المناطق السوريّة، فاِطمأن قلبه.

راقه أن ذاكرته عادت تنشط ببطء، استعاد المشهد الأخير له وهو في ساحة الحرب يشارك لأول مرة في حياته في معركة عسكرية.

كان مع مجموعة من الشبان اِستجابوا للنفير، غصّت بهم شاحنات كبيرة كانوا متلاصقين فيها تزاحمهم صناديق أسلحة، الشاحنات تسير بهم

في رتل عبر طرق غير معبّدة تشـق الهضـاب وتقطع أودية وتقترب من غابات متشعّبة، كلما تقدمت الشاحنة اِزدادت وعورة المكان فتخلّف غبارا كثيفا يكاد يحجب الرؤية عن الشـاحنة التي تليها. عند شـعاب كثيفة جاءت الأوامر ونزل الجنود مدجّجين بأسلحتهم من نوع الكلاشينكوف تستحثهم صـيحات التكبير، ثم تفرّقت كل كتيبة إلى مجموعة من السـرايا تُعدّ كل واحدة منها اثني عشـر فردا اِنتشـروا في الشـعاب وعلى سـفوح هضـاب قريبة كان أبو شـدّاد التونسـي قائد السـرية فشـعر ربيع بِاطمئنان وغمرته سـعادة، اليوم سـيلاقون أعداء الله فيلقنوهم درسـا وتحسّـس سـلاح الكلاشـينكوف، تذكر أنه اِعتاد على حمل هذا السـلاح من قبل وعادت به الذاكرة إلى أيام رَوَّادْ..

شـعر بألم في ركبته قطع عليه تداعي الصـور من ذاكرته وتناهى إلى مسـمعيه أنين موجع يصـدر على يسـاره لم تكن له القوة ليرفع رأسـه في اِتجاه الأنين الذي بدا حادا ومتصـاعدا وتحسّس ببصـره ذراعه المضـمّخة بالدماء وأراد تحريكها قليلا ولكنه لم يفعل، يعلم أن حركة صـغيرة قد تسبب له أوجاعا لا طاقة له بتحمّلها.

يذكر جيدا أنه في أول مواجهة عسـكرية له كان في إحدى سـرايا كتيبة سـيف الدولة، منبطحا على بطنه في الصـف الأمامي، يضـم سـلاحه جيّدا ويزحف ببطء وفقا لتعليمات قائد السـرية صـديقه المقرّب وشـيخه "أبو شـدّاد التونسـي" كان ربيع أحيانا يحب أن يغيظه فيناديه باسـمه الحقيقي "رامي"، يعلم أن ذلك يزعجه لأنه يرى الإسـم لا يليق بشـخصـيته اليوم، ويرد عليه أبو شـدّاد بإجابة تتكرر دائما "رامي تركته على أعتاب كلية الطب، أنا الآن أبو شدّاد".

لا يزال ربيع إلى الآن لا يفهم لمـاذا في أول مواجهـة عسـكريـة لـه وضعوهم في الصف الأول؟

يحتفظ بسؤاله، لا يجوز له أن يطرح كل ما يخطر بباله من أسئلة، لأن "السـمع والطاعة" هما الكلمتان اللتان تمثّلان جوهر البيعة التي أعلنها ذات مساء في جامع الفتح بالعاصمة ومن ساعتها أصبح أحد جنود الدولة الإسلامية.

يذكر جيّدا أنه كان يزحف على أرض يابسـة يغمرها الحصـى، يتلمّس بين شـقوقها الحشـائش وتنتشـر فيها أشـجار قليلة، في أحد الأدغال على

يسارهم تمركز أبو شدّاد التونسي يجلس القرفصاء متأهبا في يده اليمنى منظار يلوّح به أثناء إصداره لأوامره إليهم وفي يده الأخرى جهاز اِتصال لاسلكي عسكري. كان يتوقع أن العدو أمامهم ولا يريد أن يغامر بمجموعته. فجأة علا أزيز الرصاص فوق رؤوسهم وجاءت الأوامر بسرعة للاختباء خلف أكمام الأعشاب البارزة والصخور المتناثرة وفجوات الجبل القريب، ردّوا على القنابل التي تضيء السماء بطلقات من أسلحتهم النارية، كانت المواجهة بينهم عنيفة وهم ينتشرون على غير هدى، اِختنق الليل بغازات القنابل، فجأة ساد المكان صمت مريب لم يعد يسمع أصوات الرصاص ولا انفجارات القنابل، لم يفهم ما الذي حدث ولا يدري كيف أصبح صوت أبي شدّاد خلفهم يأمرهم بالزحف بهدوء ليصلوا إلى مشارف الهضبة القريبة، كان يشعر أنّ الهدف قريب لذلك أسرعت دقات قلبه واِشتد فزعه ولسانه يلهج بآية من القرآن يثبّت بها عزيمته "إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ" كان يعيد الآية القرآنيّة آليّا وهو لا يعلم هل سينجح في الوصول إلى نهاية الهضبة التي تطلّ على وادي كبير. كان يجب أن يصلوا حتى يكشفوا بدقة مراكز العدو وكانت فترة الصمت تلك مهمة وحاسمة لإعادة التمركز بهدوء.

اِطمأن ربيع لوجود صديقه صابر ابن حيّ التضامن الذي يضحك من نفسه دائما ويلذ له أن يحكي قصته للجميع فقد دخل السجن لصا وغادره تقيا، يده التي كانت تختلس أموال الكادحين هي نفسها التي أصبحت تحمل القرآن وقد دفعته شدة الإيمان بدولة الخلافة إلى السفر نحو سوريا ليدافع عن الإسلام. كان صابر على يمينه يزحف بهدوء وفقا لتعليمات أبي شدّاد الذي أصبح صوته يأتيهم من بعيد، اِستأنس بفيصل يتململ وسط الحشائش وقد دسّ مثل الجميع أعشابا اِستلّها من أحراش الغابة ووضعها في قبّعته وجيوبه فكان يبدو كتلة عشب تزحف، قرّر أن يجعل صابرا دليله في الوصول إلى نهاية الهضبة وشعر بالصمت الثقيل يلفّ المكان فاِستنشق الهواء الملوّث بالغاز وتذكّر أنّ كلّ جنديّ يُدبر من المعركة سيُلقى به في السجن ويعلّق رأسه بعد ذلك على أسوار المعسكر وتمتم في سرّه "اللعنة على كلّ مُدبر" اِستغفر ثمّ تقدّم قليلا زاحفا محتضنا سلاحه الرشّاش "ربّي اكتبني عندك من الشهداء والصالحين".

عاد أزيز الرصاص فجأة يملأ الفضاء وصرخات القنابل تعلو فزاد من زحفه وصوت أبي شدّاد من خلفهم يستحثّهم حينا ويصرخ بهم حينا آخر "لا تتراجعوا، أطلقوا النار، لا تتراجعوا..." أدرك أنهم على خط النار مع أعداء الله فكان إصبعه يضغط على الزناد وهو يوجه طلقات عشوائية كأنه يريد أن يثقب الليل.

لم يهدأ الرّصاص من حوله هذه المرّة ومرّ الوقت طويلا، كان لا يعلم شيئا غير أنّ إصبعه يجب أن يظلّ على الزناد وكلّما فرغت شحنة الرّصاص لقّم سلاحه بسرعة وهو يقول في نفسه "اللّهم أنت عضدنا وأنت نصيرنا بك نحول وبك نصول وبك نقاتل". اِنتبه إلى أنّ فيصلا لم يعد بجانبه فهتف بصوت منخفض "فيصل، فيصل..." الرصاص لا يتوقّف وفيصل لا يجيبه، لاحظ على ضوء القنابل المنفجرة دغلا قريبا منه فقرّر الاحتماء به وفي اللّحظة التي اِندفع فيها في اِتّجاهه صمّ أذنيه اِنفجار هائل قربه، شعر أنّه اِهتز من مكانه واِرتطم بأرض صلبة ودخل كتلة من الدخان الأسود فما عاد يعي شيئا...

ابتسم بمرارة وهو يتذكر أنه فقد وعيه وتحسّس ببصره ذراعه المكسورة وشعر بألم حار وشديد لا يمكن تحمله، كأن مجرد تذكّر الحدث يمكن أن يوقظ أوجاعه. استغفر الله وأطبق جفنيه وهو يتمتم "اللهم أشكرك على نعمة الجهاد..".

عبر فيصل ذاكرته ثانية، عاد ربيع وفتح عينيه "هل اختاره الله من الشهداء ليسعد بالحور العين؟"

التفت ناحية الباب لو يدخل أبو شدّاد الآن، يريد أن يطمئن على بقية أبناء حيه، أراد أن يسحب رجله قليلا فصرخ من شدة الألم، وفجأة قفزت صورة أمل إلى ذهنه فتساءل أين هي؟

منذ أن استفاق هذا الصباح لم يعره أحد أيّ اِهتمام، اِشتدّت الجلبة من حوله وكثر الضجيج وتزاحمت الكتل البشرية على مقربة منه فجال ببصره في المكان، أجساد جريحة تئن وتتوجّع يحملونها ويضعونها في أيّ مكان دون أي تنظيم. كان مُلقى على ما يشبه السرير ولم ينشغل به أحد كأنه كدس من الخردة، شعر بعطش شديد، أراد أن يصرخ أريد ماء...خانه صوته وأراد أن يبكي فلم يستطع.

بدأت الجلبة تخفت من حوله وتنقشع الكتل البشريّة قليلا وتغادر تدريجيّا لتظلّ الأجساد الجريحة ملقاة عشوائيّا وسط القبو أصبحت حاجته إلى رشفة ماء أشدّ فرفع بصعوبة يده اليمنى نحو أحدهم علّه ينتبه إليه فيأتيه، لم يعيره أحدهم اهتماما، أطبق جفنيه واستسلم لأوجاع جسده التي عادت أشدّ من قبل.

يتصاعد الأنين حوله والصور تتساقط من ذاكرته، يرى نفسه على مقاعد الدرس، في جبهة القتال، أمام حاسوب في غرفته يلاحق كرة افتراضية، في حافلة تعج بالتلاميذ ومزدحمة بالهُتاف في رحلة مدرسية، ساعة النفير أمام خطّ العدو يصدحون بالتكبير، في مروج خضراء يسابق أترابه على الدراجات، في خندق صغير ورائحة الدم المخلوط بالتراب، في طائرة تسبح في الجو، يقهقه فرحا في عيد ميلاده السادس وأمه ترقص، في صحراء موحشة تلاحقه قروش البحر سابحة في الفضاء، في قاعة سينما يتحسّس كفها الصغيرة وفجأة انتبه، أين هي الآن؟ يا إلهي ما الذي حدث لها؟ هل هي بخير؟
ماذا لو تطلّ الآن؟

في هذا القبو المظلم والرطوبة النتنة يكفي أن تطلّ أمل بطيفها فتنعشه وتجعل مزاجه أفضل، ماذا لو تأتي فعلا؟
مرّت فترة طويلة لم يرها، لا يدري هل يشعر بوخز الضمير لقد ضحت بحياتها الهادئة ورافقته إلى المجهول أو يسعد لأنّه جعلها تقترب أكثر من الله وتشتري الجنّة صحبته؟
رغم مرارة السؤال كان يكفي أن يتذكرها ليشعر أنه أفضل.
كم يشتاق إليها؟
لكنه سعيد أنه أمام اِختبار الحب ينحاز لربه ويترك الحياة خلفه.
ويغمغم "اللهم لا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر ذنبي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم"
يحدث أن تجيش مشاعره نحوها ولكن يسعده كثيرا أنّه دائما يستطيع كبح اِنفعالاته لأنّه اِختار محبّة الله ونهج السلف الصالح.
يتمنّى لو رآها ليهنئها على حياتها الجديدة وتبارك له جراحه النبيلة.

الآن يشعر أنه أفضل، ويشكر الله على كل شيء.
أين هي الآن؟ لن تكون إلا ســـعيدة، وغلبته الأوجاع حتى أنه بدأ يئنّ بصوت مرتفع، انتبه إليه مسعف ببزة عسكرية فهتف ربيع بصوت خافت "مـــ...ـــا...ء.."
اِبتسم له الرجل ابتسامة خفيفة وغاب قليلا ليعود بكأس، تسرّب الماء باردا في حلقه الجافّ فاِرتجف وشعر به مُرّا لكنّه سكب كلّ ما في الكأس في جوفه وتمنّى لو كان هناك المزيد ليرتوي لكن لا بأس، عاد فألقى برأسه في استسلام على ما يشبه المخدّة وتمنى لو تأخذه الغيبوبة مرّة أخرى فينسى هذه الآلام غير أنّ عقله عاد يسأل بإلحاح أين هي الآن؟
أراد أن يستغلّ فرصة وجود المسعف بجانبه نظر إليه باِمتنان وخرج صوته ضعيفا وهو يقول:
- جزاك الله كل خير، أين أنا؟
أجاب المسعف دون أن ينظر إليه:
- في المستشفى الميداني، المعارك شديدة بيننا وبينهم وسينصرنا الله على القوم الظالمين.
اِنشرح صدره وقال من خلال ابتسامة عريضة:
- ننتصر عليهم بإذن الله، متى يأتي الطبيب أريد العودة للقتال؟
- لن يأتي الطبيب الآن.

5

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري
العاشرة صباحا و35 دق (بتوقيت تونس)
في مصحّة الهناء

خُطَى ثابتة تقطع الصـمت الثقيل الذي يلفّ الغرفة البيضـاء، قالت ثريّا في نفسها:

- هل يمكن لمتراك البوليس أن تقودها إلى هذه الغرفة البائســـة في مصحة طبيّة؟

عادت ثريّا تتلمّس طرف السرير بأصابعها تحسّست شفتيها بلسانها وخرج صوتها ضعيفا: "ماء، ماء..." وصلها صوت نسائي كأنه يأتيها من بعيد:

- لا بأس، سيكون كلّ شيء على ما يرام.

أخذت الممرضـة تعالج قارورة الدواء المعلقة عند رأسـها واقترب منها آخر يجسّ معصمها ويتثبّت من نبضات قلبها، خطر ببالها أن تسألهما عن اِبنها ربيع هل يمكن أن يكون لهما علم به.

سقتها الممرضة قليلا من الماء.

تحتاج أن تسأل عنه كل من يعترضـها، شعرت بخدر خفيف يلفّها لكنّها اِنتبهت إلى الممرضـــة ترفع رأســـها قليلا تســـوّي لها المخدة. يبدو أن الممرضـــة ســـعيدة بعملها اِســـتبشـــرت بذلك وتذكرت كيف كانت تدخل منشرحة إلى غرفته وسعيدة بخدمته.

الضربة الشديدة التي تلقتها والتي جعلت ضمائد تحيط برأسها لم تخدش ذاكرتها.

وجدت نفسها تعود إلى البداية وتستعيد كل ما كان بترتيب غريب راقها ذلك رغم الألم الشديد الذي تشعر به، عندما أغلقت الممرضة الباب بهدوء خلفها تذكرت جيدا أنها فتَحَتْ الباب بلطف، مَدَّتْ رأســـها داخل الغرفة وقالت بصوت هادئ:

- ربيع، بسرعة يا ولدي الغداء جاهز.

أجاب دون أن يلتفت إليها وهو مشـغول بمباراة رياضـية حامية يقودها على شاشة الكمبيوتر:

- دقيقة واحدة.

تعلم أنّها لن تكون دقيقة لذلك دخلت غرفته وطبعت قُبلة سـريعة على رأسه، اِتّجهت نحو سريره، فجلست على حافته وهي تقول:

- لن أغادر إلاّ رفقتك...

لم يجبها وظلّت عيناه مشـدودتين إلى المباراة الحماسـية على شـاشـة الكمبيوتر وأصابعه تنقر بسرعة على أزراره، كان منشغلا باللعبة وكانت منشغلة بالنظر إليه.

كم تحبه!..

تعشق كل ملامحه الهادئة، مغرمة بكل تفصـيل حياته، تجد نفسـها على حظ كبير أن يكون هذا الفتى اِبنها.

رغم كل الانكسارات والهزائم التي هدّتها فقد اِعتادت أن تشكر الله لأنّه منحها ربيعا.

مازال منشـغلا باللّعبة على شـاشـة الكمبيوتر، عدّلت قليلا من جلسـتها وجالت ببصـرها في غرفته، هنا صـورته وهو رضـيع، هناك أخرى في أوّل يوم له في المدرسـة وبجانبها تماما صـورة له في المسـبح وتحتها صـورته وهو يلعق الآيس كريم في مدينة الملاهي، تقابلها صـورة له في أحد أعياد ميلاده وقد تكدّسـت على طاولة القاطو هدايا كثيرة، بجانبها أخرى في حفل زفاف عائليّ...أخذتها إلى أعماق ذاكرتها حيث يسـكن رجل أحبته بقوة وتزوجت غيره ليرحل سريعا...يصل إليها صوتها وهي تتنهّد.

حوّلت البصـر بسـرعة إلى اِبنها كأنّها تخشـى أن تجرفها ذاكرتها إلى غيره.

تشـعر بوخزات حادّة في قلبها فترتبك، هل حقّا يمكن أن يتركها يوما ويذهب بعيدا؟

اِنقبض قلبها، وشـعرت بأعصـابها تتكلّس. مع ولدها يجب أن تسـير الأمور كما تريدها لا يتحمّل قلبها انكسارا آخر ولا يستطيع عقلها أن يقبل بمسـاومات أخرى في حياتها، سـتسـدّ عليه كلّ الثغرات الممكنة حتى لا يتركها، عنّ لها أن تقوم وتغلق النافذة كأن هناك من سـيدخل ليأخذه منها،

ثمّ عادت واِحتضـــنت من الخلف رأســـه بين يديها وغمغمت وهي تقبّل شعره "أحبّك يا ربيع".

بدا كأنّه لا يعنيه ما تقوله، كلّ حواســـه لازالت مشـــدودة إلى المباراة الرياضية الحماسية على شاشة الحاسوب ونظراته مشدودة إلى الصور المتســـارعة أمامه، ســـاءها ألاّ ينتبه إليها، مدت أصـــابعها إلى رقبته كأنها ستخنقه وقالت من خلال ضحكة عالية:

- قلتُ إني أحبّك يا ربيع...

ترك الفتى رأســـه يميل في اِتجاهها، قال لها دون أن تترك أصـــابعه أزرار الكمبيوتر ودون أن يحوّل بصـــره عن الصـــور المتلاحقة على الشاشة أمامه...

- أعرف، أعرف...

نقلت أصابعها من رقبته إلى كتفيه واقتربت أكثر من وجهه:

- إذن أنت لن تتركني؟

ردّ من خلال ابتسامة مقتضبة دون أن ينظر إليها:

- طبعا لا

وكأنها تريد أن تطمئن:

- مهما كانت الظروف؟

أجاب بإماءة من رأسه "نعم" ولم يتوقف عن انشغاله بلعبته.

دائما، تطرح نفس الأســئلة بإلحاح ودائما يقدم نفس الأجوبة باِقتضـــاب ورغم ذلك هناك شيء في داخلها يخزها ويجعلها لا تطمئن.

هل يتركها فجأة ويقتلع قلبها من جذوره فتُسرق منها حياتها ثانية؟

هل يَصْدُقُ حَدْسُهَا؟

ما أقسى هذه الهواجس.

اِنتبهت أنّ الغداء على الطاولة قد برد تماما، فنادته:

- ربيع، متى تنتهي هذه المباراة؟

أضافت:

- هناك وقفة احتجاجيّة اليوم في العاصمة ضد حكومة الترويكا، إسرع أريد أن نتغدى معا ثمّ أخرج، الحزب الحاكم يؤلّب ميليشـــيّاته ضـــدّنا، يريدون سرقة البلاد منّا لكن هيهات.

أجاب ضاحكا:

- لقد خسـرت الجولة الأولى وانطلقت الآن في الثانية، لا أحبّ الهزيمة ويجب أن أفوز هذه المرّة.
- لكن الغداء جاهز
- يجب أن أفوز أولا...
- وأنا يجب أن ألتحق بالمظاهرة.

يجب أن تلتحق بها، غادرت غرفة ابنها في اتّجاه المطبخ، منذ اِنتهاء الانتخابات التي أحزنتها نتائجها وفاز فيها حزب حركة النهضـــة[2] وهي تقول أنّ شـــرا يتغلغل في البلاد. نظرت للطعام وعزّ عليها أن تأكل دونه فعادت إليه وتمدّدت على سريره وهي تقول:

- سأنتظرك هنا ولن أغادر إلاّ بعد أن نتغدّى معا.

لم يرد عليها وظل منشـــغلا كليّا بلعبته المفضـــلة وعادت هي منشـــغلة بتأمله.

* * * *

ذاكرتها تنهمر وهي بعينين مثقلتين بالنعاس تقاوم ألا يجرفها النوم ففتحتهما بشـــدّة، في تلك اللحظة فتحت عاملة التنظيف الباب ودخلت، أرادت ثريا أن تسألها عن ربيع، ربما لها ابن يعرفه.

كانت الغرفة نظيفة اِكتفت المنظّفة باستبدال سلّة المهملات الصغيرة التي كانت بلون أبيض، كل شيء في الغرفة أبيض وهي لم تعد تحب هذا اللون منذ أن رأته في قميص طويل وغطاء رأس أبيض أيضا، بدا لها في لباسه الأفغاني ذاك مثل إخوان السوء الذين أصبح يرافقهم لم تستطع أن تخفي دهشتها فسألته:

- ما هذا الذي ترتديه يا ربيع؟

لم يرد عليها، فأضافت:

- لا أدري أيّ نزوة جديدة ستكون لك في المرة القادمة.

أجاب دون أن ينظر إليها:

[2] حزب حركة النهضة: حزب إسلامي في تونس تمّ الاعتراف به كحزب سياسي في شهر مارس سنة 2011 بعد هروب الرئيس زين العابدين بن علي من البلاد إثر أحداث ثورة الربيع العربي، فاز في الانتخابات في شـــهر أكتوبر من نفس الســـنة ومارس الحكم عبر تحالف الترويكا (مع حزبين آخرين).

- يقول تعالي "يَا بَنِي آدَمَ، خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِ مَسْـــجِدٍ" ومن معاني ذلك أن نرتدي اللباس الجميل الذي يحبه الله ويرتضيه رسوله الكريم.

ردت ضاحكة وهي تميل عليه حتى كادت تلامسه:

- أدعو لك بالشفاء يا ولد.

كانت تدعو في قلبها أن يكون هذا اللباس مجرد نزوة عابرة، ولكن لم يكن كذلك.

حملقت ثريا في بياض الغرفة وأغمضت عينيها، شعرت بقلبها يغوص وانكمشت في سريرها، تنازلت عن كلّ أحلامها، آخر حلم لها أن يكون لها زوج يسندها وبيت يسع العالم. اِنكسر هذا الحلم أيضا ولم تتألّم كثيرا، كانت قد تعودت الانكسارات وما يجعلها الآن أقوى هو ولدها ربيع عوضت به الزوج الغائب وجعلته كل شيء. لذلك لم يكن ربيع مجرد ولد من صلبها بل حياة كاملة، منحته روحها ورد لها توهجها.

الآن تحولت إلى كومة رماد في سرير بإحدى المصحات.

عاد الصمت يجثم على الغرفة البيضاء، عندما فتحت عاملة التنظيف الباب لتخرج لمحت رقم 216 مرسوما على الباب.

6

كانت تمشي في هدوء وخطوات غريبة تقترب منها، تفكّر كيف سيتقبلّها زملاؤها الجدد في هذا المعهد الذي تذهب إليه لأول مرة وانتبهت للخطوات الغريبة تقترب منها أكثر، عنّ لها أن تستدير فكانت قبضة عنيفة في صدرها، صعقتها المفاجأة وما كادت تهمّ بالصراخ حتى عالجها صاحب الخطوات الغريبة بلكمة أشدّ في بطنها وهو يهدّد "أريد هاتفك" غطّت وجهها وأطلقت صرخة عالية جعلت اللص يوجه إليها لكمة أخرى في بطنها فسقطت على الأرض، همّ بحقيبتها وما إن رفع رأسه حتّى تفاجأ بجسد قوي يرتطم به فسقط على الأرض. التحم الجسدان في عراك شديد، بدا القادم الجديد أكثر قوّة ومهارة، بسرعة البرق أحكم بمرفقه شدّ رأس اللص إلى صدره وبيده الأخرى سدّد له لكمات عنيفة على رأسه جعلت قبضته ترتخي فتسقط حقيبة الفتاة، حرّر كفّيه ليحمي رأسه وفي نفس الوقت يحاول أن يتملّص من قبضة الفتى القويّ. كانت الفتاة تتابع مشدودة الأنفاس، إستطاع اللص بحركة مراوغة أن يسحب نفسه فانفلت من قبضة الفتى وقفز بعيدا قبل أن تلحق به ركلة شديدة وجهها إليه الفتى القوي لكنها لم تصبه وانطلق اللص في الجري بعيدا. نفض الفتى يديه وإقترب من الفتاة يساعدها على الوقوف وهو يقول:

- يجب أن تنتبهي لنفسك من هؤلاء الأوغاد.

بسرعة أفاقت الفتاة من صدمتها وقالت له:

- لا أعرف كيف أشكرك.

قال وهو يبتسم:

- لا داعي لشكري، هذا أمر بسيط.

- إنّه يومي الأوّل في المعهد، لم أكن أعتقد أنّي سأتعرّض إلى محاولة نشل.

- إذن لن تنسي أبدا يومك الأول – أضاف وهو يضحك – يبدو أن اللصوص يرحبون بك كثيرا في حينا. في أي سنة أنت؟

قالت وهي تبتسم:

- سجلتُ في السنة الثالثة ثانوي، شعبة رياضيات.

في تلك اللحظة مر به تلميذان نادى عليه أحدهما:
- ربيع، أين أنت يا صاحبي؟
اِبتسم ربيع للفتاة واِنطلق ملتحقا بصديقيه، في حين ظلت نظرات أمل معلقة بهذا الملاك الذي ألقت به الصدفة في طريقها هذا الصباح، يمكن للملاك أن يكون فتى قويا وشجاعا يأتي في لحظة فارقة يخلصها من أذى حقيقي ويترك لديها شعورا ممتعا. تماما مثلما يحدث في الأفلام وراقها ذلك كثيرا، لمعت في ذهنها صور جوليا روبرتس، أنجلينا جولي، اليزابيت بانكس، أيمي أدامز وابتسمت، غير أن مفاجآت هذا الصباح لم تنته.

Commenté [fb1]:

في الفصل كانت تجلس مثل كل غريبة بمفردها والتلاميذ يدخلون القاعة تباعا في شكل مجموعات وهم بين هزل وفكاهة وفجأة تعلق بصرها بأحدهم وأرادت أن تناديه، كان هو الفتى الملاك يدخل نفس الفصل. عندما رآها ربيع ضحك فتملكتها سعادة كبيرة، وشعرت بوخزات صغيرة في قلبها تمنت في تلك اللحظة ألا تكون قد سبقتها لقلبه واحدة أخرى.
تعددت لقاءاتهما بعد ذلك، وكانت مبررات اللقاء كثيرة تسأله عن بعض المواد، يساعدها في حل بعض المسائل في الرياضيات وتساعده في دروس الإنكليزية، لم تمرّ أشهر قليلة حتى أصبح ربيع وأمل مقربين جدا. تتعمّد أمل أن تراها معه كل الفتيات في المعهد حتى تقطع الطريق عليهن، وكان يحب أن يجلس معها، يجدها فتاة لطيفة تتعلّق بذراعه فيهتزّ قلبه الصغير في كلّ مرّة يذهبان فيها إلى المكتبة أو إلى الكافتيريا القريبة.
لم يتطلب الأمر الكثير من الوقت حتّى أصبح الجميع يعلم أنّ لربيع فتاته التي وفدت حديثا على المعهد وكانت سعادة أمل بلا حدود. بدا لها ربيع لطيفا بملامح هادئة وتصرفات تلقائية جعلها تشعر معه بأمان وأصبحت تميل إليه وبدأت تنسى أنها كانت تحبّ جورج كلوني.

7

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري

الساعة العاشرة صباحا و55 دق (بتوقيت تونس)
في مصحة الهناء، غرفة 216

بعد قليل دخل الطبيب غرفتها، وهي ملقاة كجثة، تصـــفّح ملفها الطبي، ثم دنا منها، وضع السمّاعات الطبية على صدرها تثبّت من نبضها، دوّن على ملفها شـيئا ثم غادر بسـرعة، كانت تتمنى لو تسـأله عن ربيع. عاد الصـمت يخيّم على الغرفة البيضـاء، رائحة الأدوية المنتشـرة في المكان تسـربت إلى أنفها فشـعرت برغبة في التقيؤ، لم تطلب أكثر من أن تعلم رئيس البلاد بما حدث وها هي الآن ملقاة على سـرير في مصـحة طبية، عقلها لا يريد أن يستكين ويفكر باستمرار "هل سيعود؟"، الصمت الذي يلف المكان يرغمها على نوم عميق لكن شيئا داخلها لا يتركها تنام، تشعر أنها جثة لا تنام، شـيء يجعل كل حواسـها متيقّظة، تنتظر في كل لحظة من يطرق الباب ويزفّ إليها الخبر الذي سيجعلها تُشفى تماما.

منذ رحيله لم تصـبح طَرَقات الباب سـوى ضـربات تسـقطها على الأرض.

كانت في البيت عندما استفاقت مذعورة، الضـربات على الباب تشـعر بها شـديدة على صـدرها يكاد يُخلع لها قلبها، كالمجنونة طارت بشـعر منفوش وخطى واسعة وصوت يخرج مبحوحا:

- من الطارق؟

عندما فتحت الباب، كانت أمها تصرخ في وجهها:

- ماذا كنت تفعلين، أنا فقدت عقلي ونسيت المفاتيح في البيت وأنت ماذا كنت تفعلين لماذا تأخرت في فتح الباب؟

ثم أضافت وملامح الرعب على وجهها المتجعد:

- خائفة كثيرا، خشيت أن تؤذي نفسك

أخفت تنهيدة في صـدرها وهي تصـوّب نظرات رثاء إلى اِبنتها وهتفت بها:

- هل من خبر جديد؟

تَراجعَتْ ثريا إلى الوراء، كان صـــوتها منكســـرا وهي تتذكر كم من طعنة سددت لقلبها:

- لقد فعل بي ربيع ما لم يفعله بي أحد.

ألقت بجسدها على طرف أريكة الصالون وأخذت في البكاء.

اقتربت الأم من ثريا وقد هالها ما أصبحت عليه من حال:

- هوّني عليك يا ابنتي، سيعود.

قالت ثريا من خلال نشيجها المتقطع:

- لا بد أنه مات.

ردّت الأم بجزع وهي تحضن ابنتها:

- لا تقولي هذا، هو بخير، تذكري أن ســـليما جارنا أخبرنا أمس أن صديق ابنه رآه في تركيا، حتما سيعود.

انفجرت ثريا بالبكاء:

- لقد أخذوه إلى الموت، من يذهب إلى هناك لا يعود يا أمي.

- هوّني عليك يا ابنتي وتفاءلي خيرا، ســـيعود ولدنا بإذن الله، لا بدّ أن تلك الفتاة أمل هي التي حرّضته على الذهاب ورحلت معه.

رفعت ثريّا بصرها إلى أمها وهي واجمة ثم قالت مندهشة:

- ماذا قلتِ؟ أمل رحلت أيضا؟ يا للهول.

- نعم، جاء والداها إليّ هذا الصباح وكانا في حالة غضب شديد يدّعيان أن ربيعا غرّر بابنتهما، لا يمكن لولدنا أن يفعل ذلك، ولدنا ضـحية أيضـا. يعرف الجميع من الذين غرروا بهما.

اِنخرطت ثريا في نوبة بكاء شديد لا تقطعه سوى شهقات حادة...

- إنه طاعون يزحف على البلاد..

تذكر جيدا أنها لم تكن ســعيدة جدا بفتاة تدخل حياة ولدها، لم ترغب أن تتصدّى له وهي تعلم أنه قد لا يطيعها ويترك الفتاة فتنهزم في أول معركة تخوضــها معه لذلك تركت أمل تتسـلّل إلى حياته وتتظاهر بالترحيب بها. كانت تكتفي بالدعاء في صلاتها أن يبعد الله عنه أصحاب السوء.

عندما انخرط في الصلاة واِلتحق بالدروس الدينيّة لم يشغلها الأمر كثيرا.

تتنهد الآن، لقد انطلَى عليها الأمر. اِعتقدت أنّ هداية ابنها بادرة خير قد تجعله يترك أمل وينشغل عن رفاق الحيّ الذين يتسللون من حصص الدرس ويفضّلون الجلوس على سور المعهد المنخفض يتبادلون سيجارة ويقهقهون لنكات سمجة، اِعتقدت أنّ صَلاَته قد تبعده عن كل شيء يلهيه عن دراسته، تركته يذهب إلى دروس في الجامع ويخالط شبانا جددا ومن ذلك الوقت تغيّر كليا وانقلبت حياته رأسا على عقب.

كثيرا ما تصل في حياتها إلى الحقيقة متأخرة جدا، تُوجعها كل الندوب التي في ذاكرتها وفي روحها غير أن هذه المرة خسارتها عظيمة ولا تقدّر بثمن.

استعاد عقلها اللّغط الشديد الذي يدور في البلاد حول حملات تسفير الشباب التونسيّ للقتال في سوريا، تصريحات في الصحف وأخرى في التلفزيون لسياسيين تحث الشباب للدفاع عن الله في سوريا، إمام جامع الفتح في العاصمة تونس عبر اليوتيوب يثير حماسة الشباب ويحثّهم على قتال الكفّار في سوريا، وزعيم ديني آخر من حزب حركة النهضة يصرخ أمام الصحافيين: "لو كنت شابا لذهبت للجهاد في سوريا"[3]

شعرت ثريا بأن الأرض تميد بها، يغمرها الحزن ويضنيها حدسها، ينبئها أن ربيعا ليس بخير، تفهم الآن هذا الجدل الذي يدور في البلاد حول ظاهرة تسفير الشبان التونسيين إلى ساحات الحرب في سوريا له علاقة بولدها، تفهم متأخرة جدا.

- يا إلهي، أين سنذهب؟

هتفت أمها وهي تضرب كفا بكف:

- لو أنّ أباه هنا لبحث عنه وأتى به من أيّ مكان ولو من بطن حوت.

حدجتها ثريا بنظرة حادة وطلع صوتها واهنا:

- عن أي أب تتحدثين يا أمي؟ لا أريد شيئا من ذلك الوغد، هل تظنين أنه سيترك حياته المريحة ويأتي للبحث عن ربيع؟

لاتزال تبكي وأمها تنظر إليها بحزن ولا تعرف ماذا تفعل.

[3] القيادي الإسلامي الحبيب اللوز في متابعة صحفية لجريدة "الصباح الأسبوعي" التونسية في عددها الصادر ليوم الاثنين 13 ماي 2013.

على الباب طَرقات شـــديدة جعلت الأم تســـرع لفتحه وخفّفت ثريّا من بكائها كان جارهم يسأل:

- هل من جديد عن ربيع؟

أجابت الأم "لا".

حوقل الرجل وهو يضرب كفّا بكف ويتمتم بصوت مسموع:

- حرام هذا الذي يفعله ربيع.

فكرت ثريا هل تطرق باب بيت أمل، قد يقودها ذلك إلى ولدها، وأجهشت بالبكاء.

8

في سفح جبل سيدي بوسعيد أين تلامس صخوره أمواج البحر يستريح ميناء صغير، في حضنه مقهى قلاسيار الشهير، جلس أناس كثر يستمتعون بالأمواج تراقص السفن والزوارق السياحية في منظر ساحر وقد ينتبهون إلى قُبلة بين عاشقين ويتظاهرون باللامبالاة، في زاوية من حديقة المقهى تجمع زمرة من تلاميذ السنة الثالثة ثانوي شعبة رياضيات.

قال ربيع:

- عيد ميلاد سعيد أمولتي، هذه هديتك (وقدم لها عُلبة صغيرة)

- واااااو

وأرسلت قهقهتها إلى السماء.

حول طاولة كبيرة أحاط بها جمع من أصدقائهما، كانت أمل نجمة مشرقة يرقص قلبها طربا لفتاها ربيع ولشبابها الذي يتفتّح بين يديه تحيط بها كل هذه التهاني والضحكات التي تغمرها من أصدقائهما، على الطاولة مشروبات مختلفة تتوسّطها قطعة مرطبات زينتها بعض الفراولة. تحفظ أمل كل الأحاديث التي دارت، كل الأغاني التي رددوها وتخلّلتها ضحكاتهم، تتذكر جيّدا كل الدعابات والفكاهات التي تبادلوها جميعا ولازال مذاق السعادة على شفتيها تتلمّظها وتبتسم، ضحكات أصدقائهما تندلق حولهما بمتعة تلفت انتباه بعض الجالسين في المقهى فتجعلها أكثر زهوا، كان عيد ميلاد تغبط نفسها عليه تستعيد ذكراه دائما وتتلمس العِقد الذي أهداه لها بسعادة وتبتسم.

لكنّها الآن حزينة.

لم يعد ربيع يتحسّس كفّها ولا يداعب شعرها. ابتعد عنها وبذلك حطم قلبها وبعثر حياتها وأبكاها، يقول لها إنّه لا يحب أن يغضب الله.

هل يكره الله الحب؟

هل يتربّص الله بالمحبّين أيضا؟

كانت في عجلة من أمرها، "الحبّ لا يجعلنا نتريّث، الحب يجعلنا نسرع لنلحق بالحياة" هكذا كانت تحدث نفسها، لم يكن لديها الوقت لتفكر ولم يكن لها خيار غير أن تلحق بفتاها.

راقها كثيرا أن أشرق وجهه بالفرح وهي تقول له:

- أريد أن تذكرني بقواعد الصلاة، منذ أن درسناها في التعليم الابتدائي لم أعد إليها.

كاد يطير من شدة الفرح عندما شدت ال على رأسها لأول مرة. اِندهش والدها من ذلك غير أنه كان مشغولا كعادته بلقاء في المقهى مع زمرته لم يناقش الأمر مع ابنته وترك المسألة لأمها التي صرخت في وجهها وهي تقول:

- من أين أتيتِ بهذا اللّباس، لسنا في حاجة له لنكون مسلمين، نحن نصلي ونصوم ونحج ونخشى الله دائما، انزعي عنك هذه الخدعة.

لم تنزع أمل الحجاب عن رأسها.

كانت أمل سعيدة بربيع لأنّها استطاعت أن تجعله مشدودا إليها أكثر ولم تهتم بغير ذلك. أختها الصغيرة تتابع كل ما يحدث بصمت.

جاءت العطلة الصيفية وأتقنت أمل تدريجيا شدّ الحجاب على رأسها ولم تعد تبالي بتعجّب أصدقائها من مظهرها الجديد، رأوه مجرد نزوة وستملّ هذا اللوك سريعا، أمّا هي فقد كانت سعيدة لأنّها عرفت كيف تعيد إليها ربيعا الذي بدأت لقاءاته بالشبّان الجدد تأخذه منها ويقضي الكثير من وقته معهم في دروس بالجامع. لذلك لم تحتج كثيرا من التفكير لتعرف طريقها إلى الجامع، كان ربيع قد ضاعف من اهتمامه بها وهو يراها تختار طريقه لتكفّر عن عثراتها الصغيرة في الحياة فجعلها تقلص من شغفها بالكثير من الأشياء، مثل الأفلام الأمريكية، وجورج كلوني وبراد بيت، وعشقها لأغاني الهيب هوب الغربية، وقهقهاتها وحديثها الصاخب في الكافيتيريا القريبة من المعهد يجمعها بأصدقاء الدراسة. يعلم أنّ أملا تتنازل عن حياتها من أجل أن تحافظ عليه ويقنع نفسه دائما أنه مجرد سبب أراده الله، لذلك دلّها على حلقات الدروس الدينية في الجامع خاصة بالأخوات لتعرف دينها وتقوّي إيمانها وتثبت في اختياراتها الجديدة ويدعو أن يحسب ذلك في ميزان حسناته.

كان ذلك آخر عيد ميلاد تحتفل به لأنّ أعياد الميلاد بِدعة وكانت آخر مرّة تسعد بصحبة أصدقائها ولم تندم على تركهم.

اِنتقلت أمل مع ربيع إلى السنة الرابعة من التعليم الثانوي، كانت عائلتا الشابين تعتقدان أنّ طبيعة هذه السنة الدراسيّة ستجعلهما ينشغلان أكثر بالدراسة، السنة الرابعة ثانوي تعني أن في نهايتها سيجرى امتحان الباكالوريا وهذا أمر مهم جدا، سينتقلان بعدها إلى الجامعة لذلك سيمنحان الدراسة كل الوقت والاهتمام ولن ينشغلان بغير ذلك، غير أن مفاجأة صاعقة كانت في الطريق.

لم يتطلّب الأمر من ربيع كثيرا من الوقت أو من الجهد ليقنع أمل أنّ أصدقاءهما هم من أصحاب السوء فهم يضحكون بصوت عال في الفضاءات العامة ويدخلون السينما والمقاهي والكافتيريات ويبيحون الاختلاط بينهم ويدخنون السجائر ويتبادلون الطرف السخيفة، لا تستطيع أن تنكر أنها كانت تستمتع بصحبتهم ولها معهم ذكريات جميلة تستحضرها فتبتسم رغما عنها.

Commenté [fb2]:

أصبحت تتردّد على دروس الجامع وتقرأ الكتب الصفراء والتقت بفتيات مثلها أصبحت تسميهن "الأخوات" غمرنها باهتمام شديد حتى لا تعود إلى حياة الجاهلية التي كانت تعيشها، يحدثنها بلطف شديد عن الآخرة ولذائذها، عن دولة الخلافة وشرعيتها، عن السلف الصالح ومثاليّته. يوفّرن لها العديد من الكتب والهدايا الصغيرة. بالنسبة إليها كانت تلك حياة جديدة ورائعة وأجمل ما فيها أنّ ربيعا لم يفارقها وستدخل الجنّة صحبته، أصبح ربيع الآن كل أصدقائها، صحيح أنّ صحبتهما خلت من لمسات بريئة وهمسات لذيذة ولكن تشعر بحنينه يضطرم في نظراته المرتبكة، وتلمس حرارة حبّه في ارتباكه الذي يخفيه دائما وهو يستعيذ من الشيطان الرجيم ويتلّهى بكتاب ابن تيميّة بين يديه.

سألته مرّة:

- لماذا لم تعد تلامس كفّي؟

أجاب دون أن ينظر إليها:

- حرام.

بدا لها ذلك غير مقنع لكنّها لم تكن تريد أن تخسره، لذلك عوّدت نفسها ألاّ تطرح عليه الأسئلة التي قد تحرجه. كانت أمل سعيدة وهي قريبة من

ربيع تتوغّل معه في الطريق الجديد دون أن تدري أنّها تدخل نفقا ولم تكن تدري ما الذي ينتظرها داخله.

9

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري

الساعة الحادية عشر و05 دق (بتوقيت سوريا)
في المستشفى الميداني

يعلم أنّه استفاق منذ الصباح لكنّه لا يدري كم مرّ عليه من الوقت في هذا المستشفى الميدانيّ الذي يبدو قبوا قديما يشرف عليه بعض المسعفين من المقاتلين بلحاهم الطويلة والأسلحة لا تفارق أحزمتهم يقدمون خدمات طبية بسيطة في انتظار قدوم طبيب قيل إنّه سيأتي اليوم.

عادت الحرارة ترتفع في جسمه، حبّات العرق تطلّ ببطء ثمّ تنحدر بسرعة على وجهه، تململ في فراشه فشعر بألم من سرير خشن تصدر أسلاكه المعدنية صريرا مزعجا كلّما تحرّك، أراد أن يرفع كفّه يتحسّس جبينه فآلمته حركة يده، شعر بأوجاع شديدة جعلته يتأوّه ويعيد يده إلى مكانها، تلمّظ ريقه مرّا، تمتم "بسم الله الذي لا يضرّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم". اشتدّ شعوره بالضيق، لا يطيق رطوبة المكان ولا يتحمّل حرارة جسمه. فتح عينيه، شعر كأنّ السقف المنخفض فوقه يتماوج، قرّر فتح عينيه جيّدا وإلهاء نفسه بالتذكّر، يعتقد أنّ ذلك يجعله لا يصاب بالإغماء مرّة أخرى، سيزوره الطبيب ويحبّ أن يكون في كامل قواه الذهنيّة عند وصوله حتّى يستفسر عن هذا الإغماء الذي يداهمه من حين إلى آخر وهذه الأوجاع الشديدة التي تكاد تطير بعقله.

يسكنه الاطمئنان كلّما رأى المقاتلين بلباسهم العسكريّ وشعورهم المتهدّلة على أكتافهم ولحاهم الطويلة ويبتسم للأسلحة المعلّقة على أكتافهم أو في أحزمتهم وذاكرته تعود به إلى المعسكر.

سيسأل الطبيب متى يشفى من جراحه حتّى يعود إلى ساحة المعركة؟

توقف عقله عند فكرة واحدة "القتال" هل سيعيش ليتمكّن من نصرة الله والدفاع عن الإسلام؟ هل في العمر بقيّة تمكّنه من العودة إلى ساحة

المعركة ليواصـــل محاربة الكفّار؟ ردّد في ســـرّه "اللّهم أنت عضـــدي ونصيري بك أقاتل ولا حول ولا قوة إلاّ بالله".

ظل طوال عمره يعتقد أنّ سوريا بلد مسلم، عندما كبر أكثر علم أنّ بهذا البلد قلّة من المسـيحيين وأنهم يتعايشـون فيما بينهم حتّى أنّك لا يمكن أن تميّز بينهم، كان يحبّ أغاني جورج وسـوف وحضـر مرّة مع أصـدقائه حفلا لـه في مهرجان قرطاج بتونس العاصـــمة، كانت ســـهرة رائعة استمتعوا كثيرا بأغانيه ولم يكن يعنيهم جميعا إن كان مسيحيّا أو مسلما.

في حلقات الدروس الدينيّة بجامع الحيّ علم أنّ للإســـلام أعداء كُثرا وأهمّهم المســلمون أنفســهم الذين حادوا عن طريق الحق ويعيشــون في جاهليّة، لذلك كانت المهمة الجهادية أن يعيدوا الإسلام إلى دياره بفتح بلاد الشـام من جديد، ستكون خلافة راشدة كما نظّر لها محمد بن عبد الوهاب وابن عثيمين وابن باز وأبو قتادة وســـيد قطب وغيرهم من العلماء وكما يعلن عنها الآن أبو بكر البغدادي، تنهّد قليلا وهو يريد أن يثبّت بصـــره ثانية على السـقف حتى يقنع نفسـه أن السـقف لا يتحرك ويتلهى بذكرياته حتى لا تأخذه غيبوبة لا يعلم متى يسـتفيق منها، لم يقرأ كل ما كتبه سـيد قطـب والظواهري وعبـد الله المهـاجر وأبو بكر النـاجي، قرأ فقط بعض المقالات على النت وتصفّح بعض الكتب القليلة واستمع كثيرا إلى دروس صوتيّة للشيخ أبي بكر البغدادي وأخرى تفسرّ علوم ابن حنبل وابن تيميّة لكنّه يصـــدّقهم جميعا فيما يقولون وطاعتهم واجبة في ما يأمرون لأنّ الإســـلام في خطر. إخوته في الجامع يعلمون أشـــياء كثيرة فاتته قراءتها ويثق في كلّ المعلومات التي يتلقاها في الدروس التي تجمعهم...

- أسـألك اللهم الشـفاء لأعود إلى محاربة أعداء الاسـلام وإسـقاط نظام بشار الكافر حتى تنتصر دولة الخلافة ويسود حكم الله في الأرض.

امتلأ حماسا وذاكرته تنتعش من جديد وتعود به تدريجيا ليستعيد صورا مشـرقة في سـاحة المعركة ويبتسـم لأنّه لم يكن صـلبا في بداياته ثمّ اشـتد عوده بعد كلّ التجارب القاسية التي تعلّم فيها أن تكون راية التوحيد عالية.

يذكر أنهم قبيل المواجهة العسـكرية كانوا في سـفح جبل ضـمن كتيبة القادسيّة في اتجاه ساحة المعركة عندما لمحوا بيتا صغيرا، طلب منهم أبو شـدّاد أن يتنقّلوا بهدوء ويبتعدوا عنه، لكن خياله دخل البيت واشـتم رائحة

الخبز اللذيذة وتمدّد في فراش وثير، شـــعر بيد أمه تتحسّـــس جبينه في دفء، فابتسم ونسي قليلا أوجاع جسده.

قرر قائد كتيبة القادسـية أن يقضـوا الليلة في كهف يعرفه حتى يؤمنون طريقهم إلى الخطوط الخلفية للعدو لكن البيت الصـغير لا يبتعد كثيرا عن مكانهم وهذه مشكلة.

من شـدّة التعب غطّ ربيع في نوم عميق وصُـعق من الغد عندما علم أن خليّة من المقاتلين تابعة لهم عادت تحت ستار اللّيل إلى البيت الصغير.

كان إخوته في الله يكبّرون لانتصـارهم على سـكّان البيت وهو صـامت كأنّه تمثال قُدّ من حجر، يســتمع إليهم يتحدّثون بزهو عن أفراد العائلة الذين توسّـلوا إليهم واسـتحلفوهم بالله أن يتركوهم وهم يضـحكون منهم، بدأوا بالأب ولم تثنيهم صـرخات عائلته عن قتله، ثمّ عادوا للأطفال طلقة واحدة على رأس الطفل الأوّل، وأخرى على رأس الثاني والأمّ تصـــرخ في حالة رعب شـديد قبل أن يطلقوا النار على الثالث كانت الأم قد أغمي عليها. سـحبوا الحياة بكلّ هدوء من بقيّة أفراد العائلة ولم يوقظوا الأمّ من غيبوبتها...

قبل أن يغادروا قطعوا رأس الأب وعلّقوه على الشجرة.

لا شك أن الشجرة كانت تئنّ من الرأس المتدلية في أحد أغصانها.

Commenté [FBM3]:

صاح أحدهم:

- هل قتلتم الأمّ بعد ذلك؟

رد عليه أحد المقاتلين:

- لا، تركناها لتكون شاهدة على أنّنا الأقوى.

اختلى ربيع بنفسـه ولم يشـعر برغبة في الحديث مع أحد، شـعر بإحباط شديد سرعان ما عاد يسيطر عليه، قال أبو شدّاد الذي شارك في المجزرة إنّ صـاحب البيت ركع أمامهم وهو يرتعش من شدّة الخوف، رفع إصبعه للتشـهّد وهم يضـحكون منه، ولمّا يئس من رحمة قلوبهم رغم تضـرّعه وتوسّله تمدّد على الأرض ينتظر رصاصهم، كانت لحظة قاسية.

اِسـتعاذ ربيع من الشـيطان وهو يتظاهر بالإعجاب بشـجاعة إخوته في القتال يجب ألاّ ينتبه أحد إلى لينه ورفع صوته أمام زهوهم بأنفسهم "اللّهم سـدّد رميتنا وأجب دعوتنا وانصـرنا على القوم الظالمين"، كان قد رُفع الآذان لصـلاة الفجر عندما قال أبو شـدّاد "ما فعله إخوتنا المجاهدون هو

الأصلح فقد يكون صاحب البيت لمحنا وربّما كان سيشي بنا، ليكن عبرة لغيره".

أسرع إلى الصلاة وهو يدعو "ربّي انصرنا على القوم الفاسقين" وتذكّر أنّ آخر موضوع في الدروس الدينية وهم في المعسكر حول ما يعدّه الله لجنود الإسلام من مُتَع الجنّة، يومها ألقى الشيخ أبو علاء الدرس، كان يوغل في وصف الجنّة ولذائذها والحوريّات وجمالهنّ، والصمت يخيّم على الجميع، فقط يتبادلون نظرات تلمع من شدّة الشوق للجنة ومرّت بذهنه أمل حوريته الجميلة...فاستغفر الله.

الآن لم يعد له وقت لها، كلّ حياته مكرّسة لخدمة الإسلام ومحاربة أعدائه، فتح عينيه جيّدا حتى يؤكد لنفسه أنّه منشغل بمتابعة الدرس، لكن أين هي الآن هل تراها تذكر فضله في هدايتها واصطحابها معه لمحاربة الكفار؟

اِستعاذ بالله ومثل كل مرة دعا أن تحتسب هدايتها في ميزان حسناته.

أجهد نفسه لينشغل بما يقوله الشيخ أبو علاء عن حوريّات الجنّة، اِنتبه إلى أصحابه فبدا له كلّ واحد منهم قد رشق عينيه في أبي علاء وذهنه معلّق بالحوريّات.

بعد صلاة الفجر تفرّق الشبّان كل إلى شأنه، هناك من عاد للنوم وهناك من اِنشغل بقراءة القرآن، أمّا هو فقد راقه أن يمتّع نفسه قليلا بهوايته الجميلة يفكّك سلاح الكلاشينكوف فينظّف ماسورة الخزّان، يتحسّس حجرات الرصاص ويمدّ أصبعه برفق إلى الزناد يمسح عنه ما علق به من غبار ويعجب كيف أنّ هذه القطعة الصغيرة يمكنها أن تطلق أكثر من ستّ مائة طلقة في الدقيقة. وهو يمرّر قطعة القماش على جهاز التسديد البصريّ للكلاشينكوف خطر بباله أبوه، تمنى لو أنه يراه فعلا الآن وهو يفكك السلاح بمهارة يلتقط الرصاصات الثقيلة ويعيدها إلى مخزن الكلاشينكوف، أن يرى كيف أصبح قويّا وشجاعا في ساحة القتال، حتما سيؤنّبه ضميره لأنّه أهمله في طفولته ولم يرافقه يوما إلى المدرسة، لم يأخذه إلى مدينة الألعاب ولم يرافقه يوما ليشتري له ملابس العيد، كان يترك كلّ تلك المهمّات لأمّه، عندما كبر قليلا أصبح يخجل من مرافقة أمه له إلى حلاق الحي ثم أصبح يبكي ويرفس برجليه حتى لا تأخذه بنفسها للحلاق فيضحك منه أترابه ويشعر بغصة من ليس له أب، كانت أمه

تهدّئه مرة وتلعن أباه مرات وأصـــبحت تنتظره في الســـيّارة أمام دكان الحلاق حتّى يُتمّ ما جاء من أجله، عندما أصـــبح يتردّد على الجامع كان يتمنّى لو أنّ أباه اصـطحبه يوما للصـلاة، في الصـيف فقط يزورهم والده لأسابيع قليلة حينها يكون سعيدا ويحبّ أن يرى كل أترابه أنّه مثلهم له أب يحبّه ويأتيه بالكثير من اللعب.

تلك أسراره الصغيرة التي كانت تعذبه، الآن يشعر بالإحباط لأن أباه لن يراه بالبزّة العسكرية وبشعره المتهدل. تنهّد ربيع وهو يعلّق الكلاشينكوف على رقبته، همس لنفسه وهو يسوّي حزام الكلاشينكوف على صدره "لقد وجدتُ الطريق المناسب".

أخذته إغفاءة ووجد نفسـه تائها في صـحراء شـاسـعة، قروش ضـخمة تسـبح في الفضـــاء وتلاحقه، سـكنه الرعب وهو يجري دون وجهة، ولا يدري من أين تخرج تلك القروش الســـابحة التي تعدو خلفه وتهمّ بالتهامه في كلّ حين.

صـــوت ارتطام الباب بقوّة جعله يفتح عينيه واشـتدّت الجلبة من حوله، الحمد الله أنـه تخلص من الكـابوس المرعب ورأى اخوتـه المقـاتلين من المسعفين يدخلون مجموعة أخرى من الجرحى ويلقون بهم على الأرض، بعضـهم ينزف بشـدة ويصـيح من الألم وبعضـهم الآخر في غيبوبة عميقة فتمتم أحد أدعية القتال التي حفظها في الدروس الدينية "اللّهم منزّل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم". علم فيما بعد أن أحد الألغام المفخّخة التي يدسّـــها المقاتلون للكفّار قد اِنفجرت خطأ. أصـــابه الوجوم، هل يمكن لإخوته المقاتلين أن يخطئوا في حقّ بعضـــهم أيضا.

بدت لحظة مناسـبة جدّا لتتسـرّب إليه ذكرى تلك اللحظة القاسـية حينما لحق به أحد كبار المقاتلين وكان وحده في نقطة الحراسة ليلا واستغفر الله في سرّه، بسرعة طرد تلك الذكرى وهو يتساءل هل يأتي الطبيب اليوم؟

10

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري

الساعة الحادية عشر صباحا و20 دق (بتوقيت تونس)
مصحّة الهناء، غرفة 216

غادر الطبيب الغرفة وكانت ثريا تتمنّى لو أخذتها اغفاءة أخرى وحين تستيقظ تجد نفسها في بيتها، بالأمس كانت ترغب أن تحدّث رئيس الجمهورية بحقيقة ما يحدث في البلاد، تذكر جيّدا أنّها دفعت حشدا من رجال الأمن الذين أحاطوا بها من كلّ جانب ثمّ لا تدري ما الذي حدث لها تحديدا وتفكر "ماذا يحدث لو أنّ كلّ هذا مجرّد كابوس". لا شيء يمنع أن يكون الجرح الذي نتج عن ضربة شديدة من متراك البوليس أو من سقوطها وارتطامها على الأرض كابوسا، لكنّها كلّما فتحت عينيها ووجدت نفسها في غرفة بيضاء بمصحّة تلعن حظّها الذي لم يبتسم لها سوى لماما، لا تعرف ماذا تفعل بالوقت الثمين الذي تهدره وهي ملقاة على سرير في هذه الغرفة البيضاء التي تثير لديها رغبة في التقيو؟

تريد أن تغادر الآن وتبحث عن ولدها ربيع.

تبدو الغرفة هادئة لكنّها تشعر أنّها ممتلئة ضجرا وتريد أن تغادرها فورا اعتادت أن تحاصر الضجر في أيّامها الرتيبة من خلال عملها كمُدرسة تعليم ابتدائي فتقضي أوقات فراغها في مكتبة "الحياة" التي ورثتها عن أبيها وعندما تعود إلى البيت وبعد إعداد دروس تلاميذها تنشغل بالأفلام الأمريكيّة لذلك ضبط لها ربيع كلّ القنوات التلفزيونيّة التي تحبها في خانة خاصة بها وجعلها مرتّبة ليسهل عليها التقاطها وتحرص دائما ألا يفوتها أي فيلم جديد، فعل ذلك قبل أن يتبع أصحاب لحي التيوس كما تحب أن تسميهم.

كانت في الصالون، تعيد مشاهدة أحد أفلامها المفضلة "بودي قارد"، إعجابها الشديد بالفيلم جعلها تستمتع كأنها تشاهده لأول مرة. عندما دخل

ربيع أســـرعت خلفه لتأتي بما يزيد من متعتها، تفقّدت كيس المشـــتريات التي طلبتها منه وقالت له:
- ربيع، لقد نسيتَ شراء علبة السجائر.
ردّ ببرود وهو يغادر المطبخ:
- لم أنس شراء السجائر، لا يليق بك كامرأة أن تدخني...
بلطف شديد سكب النار على هدوئها فصرخت:
- ماذا تقول يا ولد، هل تقصد أيّها الغبي أنّي امرأة غير صالحة؟
أجاب ببرود شديد دون أن ينظر إليها:
- لا تنعتيني بالغباء، الإسلام كرّم الإنسان ونهى عن شتمه.
ملأ صراخها البيت:
- هل للتدخين معايير أخلاقيّة؟ هل هذا ما تعلمّته من إخوان الشـــؤم وأصحاب لحيّ التيوس الجرباء؟
- ابن باز حرّم التدخين كليّا لأنّ أضـــراره متعددة بإجماع علماء الدين، أنصحك بالابتعاد عنه وأن تتوبي إلى الله حتى يغفر لك.
- من فوّضـــك لتختار ما يناســـبني في حياتي؟ لا تنس أنّ طالبان التي تدعي تطبيق الشـــريعة تنتج لوحدها ثمانين في المائة من مخدرات العالم تبيعها وتشـــتري أســـلحة تقتل بها الناس دون ذنب اِقترفوه، لذلك أولى أن يتوب أصحاب لحي التيوس عن جرائمهم، الرسول يقول "المسلم من سلم الناس من لســانه ومن يده"، - أضــافت ورذاذ البصــاق يتطاير من فمها - هم يقتلون الأبرياء لمجرد الاختلاف عنهم وأنت تحاكمني أخلاقيا لمجرّد الاختلاف عنك أيضا.
لم يكن يعرف كيف يرد عليها لذلك راقه أنّه منشغل عنها بالوضوء.
خرج من الحمّام وهو يقول:
- ستندمين يوما على جهلك وتعنتك.
- هل تنعت أمك بالجهل والتعنّت يا ولد؟ هل علّمك أصـــحاب لحيّ التيوس أن تهينني؟ بئس إخوة الشـيطان الذين تجعلهم مصـدر تعلّمك وهم أجهل من حذائي، هل نسيت قوله تعالى "وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا" ألم يصلك حديث الرسول الكريم "الجنة تحت أقدام الأمهات".
تفحمه في كل مرة ترد عليه، رغم ذلك لا تزعزع ثقته بإخوته في الله ولا يملك بعد الحجج الدامغة ما يؤيد أقواله لذلك اختار أن يصمت.

عادت ثريا إلى الصـالون تتابع فيلم "بودي قارد" ودخل ربيع غرفته ثم غادرها بعد لحظات مرتديا القميص الأفغاني الأبيض، رفعت البصـــر نحوه وظلت تتابعه خائفة وهو يدخل المطبخ، لقطة مثيرة في الفيلم لأحد المعجبين المتطرفين بالمغنية ويتني هوســـتن يقطع بالمقص كلمات تهديد بالقتل، في نفس تلك اللحظة كان ربيع في المطبخ يبحث عن سكين، شيء في نفس ثريا يقول إنّ ما يحدث لولدها لا يبشّـر بخير، اللقطة الموالية في الفيلم أنهى فيها المعجب المتطرّف رسالته المشفّرة والتي ستجعله يتحوّل من عاشـق إلى قاتل، عثر ربيع على سـكين بدت حادة أخفاها في حقيبته، كـانـت الخلفيـة الموســـيقيـة التي تتـابع بتوجّس وارتبـاك حركـة المعجب المتطرّف في الفيلم وهو يمهّد لجريمته هي التي رافقت نظرات ثريا وهي تتـابع إبنهـا يغـادر البيت إلى أن علقت نظراتهـا بـالبـاب الذي أغلقه خلفه بقوة، تقول في نفســها لا يمكن لهذا القميص الأفغاني الأبيض الذي يرتديه ولا غطاء الرأس الذي يضعه أن يكونا مجرد نزوة عابرة، إنها إشارة إلى شـــيء ما. نظرات القاتل في الفيلم غامضـــة ومريبة فتســـاءلت والخوف يملؤها "هل سيتحول ولدي الوحيد إلى قاتل أيضا؟" وانقبض قلبها بشدة.

لم تعد لها رغبة لمتابعة الفيلم، دخلت غرفة ربيع كأنها تبحث عن آثار لجريمة تحدث كل يوم ولا تعرف كيف تتصدى لها، رفعت بصرها تتأمل جدران غرفته إنتبهت أنّ قيتارته لم تعد معلّقة فقد ألصـــق مكانها راية داعش السوداء وانخرطت في البكاء.

ما أمرّ الشعور بالإحباط.

ولم تكن تدري أن ما ينتظرها أشد من الإحباط.

11

تأخذ أمل الكتب الصـــفراء من ربيع تقرؤها وتعيدها إليه فتجد في ذلك فرصـة للقائه، لم تكن في دراستها تعنيها مادّة الفلسفة فهي طريق للإلحاد ولم تكن لتنشغل بالمواد العلميّة أو اللغات أيضا ولم يكن يزعجها بتاتا أنّها في آخر السـنة ستجتاز امتحانات الباكالوريا، تقول في نفسـها ما يقوله لها ربيع عندما يلتقيان "علوم الدين أهم".

لاحظ والداها تحوّلات كبيرة في سلوك ابنتهما، أصبح الشيخ الإدريسي يلقي دروسه من حاسوبها عوض أغاني الهيب هوب الصـاخبة، كما يطلّ صوت السديسيّ يرتّل القرآن من غرفتها أناء الليل وأطراف النهار.

تغيّرت صـفحة الفايسـبوك عند أمل لم تعد تعجّ بصـورها مع أصـدقائها ولم تعد تفيض بحكم بليغة أغلبها باللغة الإنكليزية ولا تصـــدح بأغاني جاسـتن بيبر وريانا، تديّنت صـفحتها في الفايسـبوك أصـبحت تفوح منها أدعية وأحاديث نبوية كما يليق بفتاة تضـع الحجاب وتؤدي الصـلوات في أوقاتها، خفّفت من دخولها للفايســـبوك لكن لم تقطع علاقتها بالأنترنيت أصـبحت تدخل باسـتمرار صـفحات معينة ومواقع محددة تقرأ عن أخبار دولة الخلافة والتي سيكون نصرها قريب.

توطدت علاقة أمل بـالأخوات اللواتي تلتقي بهن في حلقات الدروس الدينية في الجامع وأحيانا يجتمعن حول حصـــص تعليم تجويد القرآن في بيت إحداهنّ هكذا أصـــبح لها أخوات مثل خولة ورحمة وأســماء وعبير يعاملنها بلطف شديد ويتحدّثن معها بهدوء وثقة...

تراجعت أعداد أمل في الدراسة، فزعت أمها لأنها إذا واصلت على هذا المنوال لن تنجح في مناظرة الباكالوريا وارتفع صـــراخها وتهديدها في وجه أمل، لم تهتم البنت لذلك، كانت ترد بتبرم واضـح "لا طاعة لمخلوق في معصـية الخالق" وتضـيف في نفسـها "بماذا سـتفيدني الدراسـة الآن، دولة الخلافة تحتاجنا".

انبهرت أمل بهذا العالم الجديد والمختلف الذي دخلته وشـعرت بسـعادة غامرة وهي تكتشـــف رفقة ربيع وجها آخر للحياة لم تكن تدريه، تخلت تدريجيا عن أصـدقاء وصـديقات الأمس ودخل حياتها وحياة ربيع أخوات وإخوة على أخلاق عظيمـة، اعتـادت أمل التردد على الجـامع في حلقـات

عامة للدروس وفي حلقات خاصـــة في بيوت تتغير في كل مرة وشـــدتها الجهود التي يبذلها الجميع من أجل دعم المقاتلين بالتبرعات السخية ووافر الدعاء لهم في الصـــلاة، كانت الأخوات يحطنها برعاية واهتمام حتى لا تكون وحيدة في حربها على أهواء النفس ويرددن قول الرســـول عليه الصلاة والسلام "يأكل الذئب من الغنم القاصية"، يهدونها كتبا دينية عديدة كما أهدوها حاســـوبا جديدا يســـاعدها على حفظ القرآن حتى تثبّت إيمانها وتؤمن أن دولة الخلافة ثابتة وتتمدد.

في الوقت الذي كان فيه أصدقاؤها القدامى - منذ بداية السنة الدراسية - يتجمعون من أجل حصـــص الدعم المكثفة اســـتعدادا لمناظرة الباكالوريا كانت أمل تطهّر أيامها تدريجيا من كل ما يشـــدها إلى حياتها الســـابقة وتقترب من ربيع، أصـــبحت تعتكف في غرفتها لســـاعات لا تغادرها، تكتفي بقراءة القرآن والصـــلاة والدخول إلى صـــفحات بعينها على النت وراقها أن تجد السكينة والاطمئنان.

عندما أسدلت أمل على وجهها نقابا أسودا كانت أمها تبكي، ولأول مرة يجد أبوها الوقت لتوبيخها غير أن أملا أغلقت باب غرفتها عليها ووضـــعت ســـمّاعات في أذنيها، كانت تنصـــت إلى ترتيل القرآن الكريم بصوت السديسي وتردد بينها وبين نفسها "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق".

أختها الصغرى تراقب كل شيء ولا تفهم شيئا.

12

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري

الساعة الحادية عشر صباحا و35 دق (بتوقيت تونس)
في مصحة الهناء، غرفة 216

دخل الدكتور الغرفة يتفقد ثريا للمرة الثانية هذا الصباح وهي في بياض الغرفة الصامتة لا تدري كم من الوقت مضى عليها، تتأرجح بين غيبوبة عميقة واستفاقة باهتة وتتمنى لو أنها نجحت في الوصول إلى رئيس الدولة وحدثته بحقيقة ما جرى فعلا غير أن ما حدث لها جعلها تهذي..

عندما وخزتها الإبرة الطبية من معصمها فتحت عينيها كانت تود أن تسأل الدكتور إن كان يعرف ابنها ربيعا، ربما رآه في الجوار وربما كان يدرس مع ابنته أو ربما كان صديق ابنه.

لا يوجد أي رابط بين الدكتور وربيع ولكنها لا تستطيع أن تمنع نفسها من الوهم الجميل. ليست لديها القدرة على فتح شفتيها اللتين بدتا ملتصقتين التصاقا تاما، غادر الدكتور بهدوء الغرفة البيضاء التي كانت بها برودة منعشة تريح الأعصاب وتجلب النعاس ويبدو أنها تنعش الذاكرة أيضا ولسبب ما لم تفهمه ثريا كانت ذاكرتها تواصل تداعيها وتسترسل في استحضار الأحداث القاسية التي عاشتها بترتيب جيد، وهي مشدودة إلى ذاكرتها كأنها تبحث عن الثغرات في حياتها التي تسلل منها ربيع وفقدته، كانت ثريا مستسلمة للبرودة المنعشة حيث المكيف الهوائي يعمل بهمّة ويترك حرارة الصيف اللاذعة خارج المصحة تلسع الوجوه. تذكر جيدا أنه كان يوما شديد الحر عندما دفعت باب المنزل بكتفها ودخلت تحمل بيديها أكياسا من المشتريات، قالت بصوت مرتفع:

- إنه يوم صعب كأن أبواب جهنم قد فُتحت (أضافت وهي تضع الأكياس على الطاولة) حرارة الشمس قوية هذا اليوم، تلفح مباشرة وجهي ويديّ كأنها سياط من لهب.

ردّت أمها وهي تضـــع مســـبحتها على ســـجادة الصـــلاة التي تتركها مفروشة كعادتها ولحقتها إلى المطبخ:

- إنها أيام أوسّو ومازالت قوائل الرمان.

أطلّ ربيع من غرفته وقد بدت له الفرصـــة ذهبية وعليه اســـتغلالها فهتف:

- كان عليكِ الالتزام باللباس الشـــرعي وبوضـــع الحجاب، فيقيك ذلك حرارة الشمس وحرارة جهنم.

استدارت إليه وقد تفاجأت أصلا من وجوده في البيت:

- ماذا تقول يا ولد؟ احتفظ بمقولات إخوان السوء لنفسك، لستُ بحاجة إلى ترّهاتك، أنا أعرف طريقي في الحياة.

ردّ ببرود دون أن ينظر إليها:

- رفض الحجاب، يعني مخالفة لأمر الله تعالى.

صرخت:

- قلت لك مليون مرة ابتعد عن طريقي يا ولد، أنت تصيبني بصداع في كل مرة تقدم لي فيها هذه المواعظ البائسة التي لا أحتاجها.

أجاب بهدوء شديد وهو يعلم أن هدوءه يغيظها:

- التبرّج معصية لله ورسوله، ثم هو من كبائر الذنوب ومن صفات أهل النار (اســـتدار إليها وهو يفتح الباب) عليك وأنت في هذا العمر أن تتقي الله.

لكنها خيّبت توقعاته وأجابت بصوت ثابت وهي تنظر في عينيه:

- يا عزيزي الحجاب عادة وليس عبادة، ما ورد في ســـورة النور هو دعوة لستر الصدر والعنق فقط ولا توجد إشارة لغطاء الرأس، أما ما ورد في سـورة "الأحزاب" فهو دعوة تخص أمهات المؤمنين فقط وذلك عندما تســـتدعي الحاجـة مخـاطبـة الأغراب الـذين يـأتون إلى بيوتهن فيكون التواصـل معهن من وراء حجاب، بمعنى أن وضـع حجاب على الرأس لم تكن دعوة موجهة لغيرهن من النساء.

ثم رفعت صوتها بشكل مباغت وقالت بصوت حاد وهي تشير بسبابتها متوعدة:

- يا ولد، إياك أن تفهم أنك المسلم الصالح وأنّي كافرة. أنا مسلمة وأصلّي مثلك غير أني أنصحك بالعقل قبل النقل كما يقول رجال الدين الحكماء وأحذّرك من شيوخ الخرف الذين تنصت إليهم.

ثم ارتفع صوتها أكثر وهي غاضبة:

- صلّيتَ أربع ركعات، فجئتني واعضا أيها الغبي؟

ردّ بصوت بارد:

- ستندمين.

كان صراخها المرتفع يصله بشكل متقطع وهو يبتعد عن البيت وعندما أصبح في الشارع تلاشى صراخها كليّا، غمغم وهو يقطع الطريق بهدوء "سأظلّ أواجهها إلى أن تهتدي حتّى إذا جاءت اللحظة الحاسمة التي ستغيّر حياتي سأكون قد أديت واجبي في دعوة أهل بيتي".

لم تكن تعلم ما يخفيه عنها، تشعر في كل مواجهة ضده أن ربيعا يتبدل ويبتعد عنها أكثر ويتوغل في طريق لم تكن تتوقعها وتعجز عن رده فيزيد ذلك من إحباطها، كان يهددها بترك البيت وهذا يكفي ليوقف سطوتها عليه، كانت على يقين أنه بهذا التهديد يقصد إيلامها بل تحطيمها وكأنّه يعلم أن الندم في حياتها هو الخنجر الذي اِنغرس في صدرها ولم يُسحب.

كل أحلامها وانتصاراتها تحولت إلى ندم، عندما نجحت في دراستها لم تعمل في المهنة التي رغبت بها وتشعر بالندم في كل مرة تدخل المدرسة لتواجه عشرات العيون لتلامذتها الصغار، عندما أحبت رجلا لم تتزوجه وتشعر بالندم في كل مرة تتسرب برودة فراشها إلى قلبها الصغير، عندما تزوجت آخر لم تسعد وتشعر بالندم يتراكم ويعلو بينها وبين هذا الزوج الذي تشعر به غريبا في حياتها، وعندما أنجبت ربيعا لم تدم سعادتها به وها هي تنهار بسببه.

كلّ أحلامها في الحياة مجرّد أوهام والندم هو الحقيقة الوحيدة الثابتة لديها وربيع الآن أجمل أحلامها يهدّدها بالندم، لذلك حرصت ألاّ تنجرف إلى تلك المواجهات الحادّة معه خشية أن يهجرها من أجل إخوان السوء أصحاب لحي التيوس فتندم وهذه المرة سيكون خنجر الندم قاتلا لها.

عادت تحملق في سـقف الغرفة رقم 216 البيضـاء والباردة والذاكرة مثل فرس تعدو إلى الأمام وتلهث كأنها تسـابق جريمة قبل أن تقع، تذكر جيدا أنها بعد أن أدت صلاة العصر التي دعت فيها الله كثيرا أن يساعدها على محنتها، اِرتدت على عجل قميصـا بنّيا وبحركات سـريعة سـوّت شعرها الأسود إلى الخلف، قالت لأمها وهي في اِتّجاه الباب:

- سأذهب لأبحث عنه.

التحقت بها أمها وهي توسّع خطواتها:

- أين ستبحثين يا ابنتي – ثمّ أضافت – آه لو كان أبوه هنا.

رمقتها ثريا بنظرة حادة فلم تكمل الأم جملتها وهي تفتح الباب ردت على أمها:

- عن أي أب تتحدثين يا أمي؟

تلعثمت الأم وهي تقول:

- إذن، لأذهب معك - أضافت بصوت منخفض - يجب أن تعلميه بغياب ولده.

ردّت بنبرة حادة على الجزء الذي يعنيها من حديث أمها:

- ابقي هنا قد يهاتفنا وربما يعود يجب أن يكون أحدنا في البيت.

وأغلقت الباب خلفها بقوة.

- سأجده، حتما سأجده. لا يمكن أن يضيع مني بهذه السهولة.

ندّت عنها زفرة حادة، لم ترسـم خطة للبحث عنه، ذهنها المشـوّش وتفكيرها المضـطرب يعوقانها بشـدة، وجدت نفسـها تقترب من مقهى الحي، قد تعثر على أثر يقودها إليه، تعلم أنه لم يعد يحب الجلوس في المقاهي ولكن ستسأل عنه هناك، من يدري..

لم تنتبه إلى حركة الشـارع، إلى صـراخ الباعة، إلى عِراك بعض الصِـبية العائدين من مدارسـهم، لم تنتبه إلى حفرة في الرصـيف أفقدتها توازنها وكادت تسقط، لم تنتبه إلى خطى تقترب منها:

- مساء الخير طا[4]

رفعت بصرها إلى صاحب الصوت، كان أحد أصدقاء اِبنها ندّت عنها ابتسامة عريضة مثل غريق يرى منقذه وهتفت:

- مرحبا رشاد، كيف حالك؟

[4] طا: اختزالا بالدارجة التونسية لكلمة بالفرنسية (Tata) وتعني الخالة أو العمّة.

- أنا بخير، وأنت كيف حالك؟ هل من أخبار عن ربيع؟
أطلقت زفرة طويلة وقالت:
- أنا ســـأجنّ، غياب ربيع يقتلني، ســـأدخل إلى المقهى أريد أن ألتقي بأصدقائه ربما هناك من يدلّني عليه.
- أنا كنت في المقهى الآن، لا أعتقد أن أحدا من أصدقائه القدامى يمكن أن يساعدك، أنت تعلمين أنه لم يعد يجلس إلينا ولم نعد نعلم شيئا عنه - ثم أضاف بنبرة حزينة – تركني، وكنت أحبّ أصدقائه.
يصلها صوت رشاد فيزيد من حزنها، زمّت شفتيها وتلألأت دمعة في عينيها وظلت صامتة، عزّ عليها أن تفقد أول خيط قد يؤدي إليه، في حين واصل رشاد يقول:
- حتى أمل لا أثر لها، أغلب الظن أنها رحلت معه.
ظلّت صامتة كأن صوته لا يصلها في حين واصل رشاد يقول:
- عندما تعرّف عليهم، تغيّرت حياته تماما ولم يعد يرضى بصحبتنا.
يتحدث رشاد وشريط يمرّ في ذهنها حاملا كل صور اِبنها الوحيد.
كان ربيع صديق رشاد منذ الطفولة، يدخل البيت في كل حين كأنه أحد أفراد العائلة وينغمس مع ربيع في ألعاب كثيرة منذ أن كانت ألعاب الغميضـــة والكرة وهما طفلان وألعاب الكترونية كثيرة وهما مراهقان، يشتد صخبهما خلف كرة افتراضية في مباراة حامية الوطيس كانت أحيانا تطلب منهما خفض صـــوتيهما حتى تتابع فيلما أمريكيا لبطلها المفضـــل ريتشارد غير.
الآن، صوت رشاد يصلها كأنها من مكان سحيق لا تسمع ما يقوله وذاكرتها تطوّح بها بعيدا، أطل ربيع من غرفته مبتسما:
- ماما، اخفضي قليلا من صوت التلفزيون نحن بصدد إنجاز تمارين في الرياضيات، فتعدّ لهما عصير ليمون وتدعو لهما بالتوفيق...
رفعت بصرها إلى رشاد وارتفع صوتها حزينا
- إذن ماذا سأفعل؟ أين سأذهب؟ كيف أصل إليه؟
- هوّني عليك - ثم أضاف بصوت واثق – أعرف طريقا وسنصل إليه تعالي معي...

13

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري

الساعة الحادية عشر صباحا و50 دق (بتوقيت سورية)
في المستشفى الميداني، بإحدى المناطق السورية

بين الحياة والموت، مُلقى بإهمال، لا شـــيء ينبئ أنّه بخير غير ذاكرته التي تنزّ وتشـعره أنّه على قيد الحياة، عندما فتح عينيه هذا الصـباح وجد نفسه داخل قبو رطب بجسم سكنته رصاصة على ما يبدو، مثل عقله الذي أصبح يفكر عائدا إلى الماضي، إلى الزمن الصالح ويعيش حياة الأسلاف هكذا كانت ذاكرته أيضا تمشي للخلف كأن هناك علاقة بين طريقة التفكير وعمل الذاكرة. من المؤكد أن أبا شـــدّاد افتقده وســـيبحث عنه، لا يمكن لإخوته الذين جاء معهم يركضـون خلف حلم دولة الخلافة أن يهملوه، هل يعقل ألاّ ينتبه لغيابه أحد؟

قبل المواجهة العسكرية كان قد انتقل إلى المخيم العسكري وفيه تعرّف على إخوة آخرين من بلدان مختلفة جمعت بينهم راية العُقاب الســـوداء لم يرغب أن يتذكر أبا طلحة الدنماركي[5]، يشـعر بالحزن والأسـف من أجله ولا يرغب فعلا في تذكره. جال ببصره في أرجاء القبو بدت أثار الرطوبة شديدة وبقع سوداء متعفنة تثير التقزز فحوّل بصره إلى السقف المنخفض الذي يشـعر به يكاد يسـقط عليه فازداد شـعوره بالاختناق، وتسـاءل كيف يمكن أن يجعلوا هذا المكان البائس مشفى؟
بسرعة استغفر وتمتم لا بد أن هناك حِكمة لا يدركها؟

[5] أبوطلحة الدنماركي هو واحد من آلاف الشباب من أوربا الذي وقع التغرير بهم والتحقوا بصفوف داعش للقتال، تمّت الإشارة إليه في مجلة "المجلة" في النسخة الورقية عدد 1611 سبتمبر/ أيلول 2015 في مقال بعنوان "الرقص مع داعش" ص 20/ 23، وتم نشر هذا المقال بعنوان آخر هو "مسيحيّون وأيزيديون وشيعة في صفوف التنظيم" في النسخة الالكترونية لمجلة "المجلة" بتاريخ 11 نوفمبر 2015 بقلم الصحفية الكردية العراقية روشن قاسم.

عادت به ذاكرته إلى أبي طلحة الدنماركي فأشاح من جديد بذاكرته عنه لا يحب أن يفكر فيه، تساءل هل سيأتي الطبيب اليوم؟ هل سيعود للحياة ويذهب للقتال ثانية؟ ولا يدري لماذا توقفت ذاكرته عند أبي طلحة مرة أخرى؟

لا يدري لما ألحت عليه ذكرى أبو طلحة، كان مقرّبا من ربيع، شـــابّ في الثامنة عشرة من عمره تقريبا، غير أنّه عندما وصل إلى دولة الخلافة كان أصـــغر من ذلك ولأنه لم يكن يحســـن شـــيئا ولم يتدرب على حمل السـلاح وليسـت له مؤهلات تميزه فقد كُلّف بمهمة المسـاعدة على الطبخ للمجموعة، لم يسـأله ربيع عن الاسـم الذي كان يحمله قبل انضـمامه إلى النظيم، بدا له ذلك غير مهم لأن الإســـلام يُجبّ ما قبله، يتكلم أبو طلحة العربية بتعثّر وبلكنة مختلفة تجعل ربيعا يضحك، كان يحدثه عن أمه التي تركها في الدنمارك، يبكي أحيانا وهو يحدثه كيف كانت تهتم به وتريده أن يكبر بسـرعة ليعوضـها هجر والده ويتألم بشـدة عندما يتذكر كيف كان تلاميذ مدرسـته وشـبان الحي الذي يقطنه يتنمّرون عليه حتى أن بعضـهم سـرقوا له بيتهم وأحرقوا سـيارتهم ولم تنصـفهم المحكمة وقد فهم لاحقا أن المتنمرين فعلوا ذلك به وبعائلته لأنه مسلم وعربي وفلسطيني ولأنه بدين أيضا.

كان أبو طلحة يهرب من كل ذلك إلى عالم النت يتابع أخبار ريال مدريد وينشـغل بالألعاب الإلكترونية، ثم عرف طريقه إلى مسـجد المدينة فشـعر بالأمان ووجد من الإخوة السلفيين الاهتمام والرعاية فسلّم أمره لهم، أخيرا وجد من يحترمه ويعامله بلطف وشـــدته كثيرا الدروس التي كان يتلقاها في المسـجد، يهتف بهم الشـيخ أثناء الدرس بصـوت قوي "أيهما أحبّ إلى قلوبكم الله أم أمهاتكم؟" فيردون بصـــوت واحد "الله" ويشـــعر بقشـــعريرة تسـري في كامل جسـده فقد أصـبح صـوت الشـيخ مغناطيس يشـده إلى الجماعة.

كان أبو طلحة يتذكر بحنين وشـوق حياته مع عائلته فيغلبه البكاء، الآن فقط يدرك خسارته ولا يستطيع أن يبوح.

أبرز ما كان يشـــدّ ربيعا في أبي طلحة طيبته وعفويّته الزائدة، كان يستمتع بحكاياته ويحبّ أن يسمعه يحكي للمرّة المائة بعربية مكسّرة كيف اكتشـف دولة الخلافة، واضـب على الذهاب الى المسـجد ودفعه الفضـول

إلى الدخول إلى مواقع التنظيم عبر الإنترنيت ولفت انتباهه اختلافهم عن غيرهم في لباســـهم ونمط حياتهم وانبهر بقدرتهم القتالية فكانوا في نظره أبطالا ليسوا على شاشة السينما مثل ستيلفستر ستالوني وجاكي شان و دوين جونسون وجيسون ستاثام ولا على شاشة الحاسوب في ألعاب إلكترونيّة بل أبطال على أرض الواقع ثمّ إنّهم مسلمون مثله وينتمون إلى عرقه وكان هذا يشعره بالفخر وينسيه تنمر زملائه في المدرسة وتدريجيا تحمّس لأفكارهم...

حدّثه أبو طلحة أنّه بينما كان يتجوّل عبر الإنترنيت في مواقع دولة الخلافة تلقّفه عمّار الألمانيّ الذي كان مثله يحبّ ريال مدريد وبمرور الوقت توطدت صداقتهما، اِقتنع أبو طلحة الدنماركي بمبادئ التنظيم بدت له مبادئ سهلة وواضحة وأيضا مختلفة، كان صوت أبي عمار يصله هادئا وقويا وهو يحدثه عن فساد العالم وعن صلاح دولة الخلافة، يفسر له كيف أن الصحابة قاتلوا بشراسة من أجل دولة الإسلام وأنّهم يجب أن يفكرّوا مثلهم حتّى ينقذوا أنفسهم من جاهليّة القرن الواحد والعشرين، كان صــوت أبي عمّار ينسكب بهدوء في أذنه حتى يصــل إلى قرارة نفســه ويستقر، يحدثه أن كل ما في الإسلام يجعل الحياة أفضل للبشر وأن أرض الخلافة هي جنة الله على الأرض. وأحب أبو طلحة الدنماركي كل ذلك، وأصـــبح يرى في دولة الخلافة فكرة طريفة وحقيقة مثيرة كأنه أمام حلقة جديدة من الميمز.

عندما طلب منه عمار الألماني أن يبايع أبا بكر البغدادي في مســـجد صغير بالدنمارك لم يعترض على ذلك وهكذا تلقفه الإخوة باهتمام وعندما طلبوا منه الذهاب إلى الدولة الإسـلامية والعيش وسـط الرصـاص وافق دون تردد فقد اعتقد أنها حياة جديدة مثيرة وممتعة، بدا له الأمر أشـــبه بلعبة الكترونية كبيرة يمكنه الدخول فيها والاستمتاع بها. يكرر أبو طلحة أمام الجميع أنّ أمّه عندما علمت نيّته الســفر إلى دولة الخلافة ذهبت إلى الســلط الدنماركيّة لتمنعه غير أنّه لا يقول لهم انه لا يفهم إلى الآن لماذا تراخى الأمن الدنماركي ولم يمنعه.

عندما وصــل إلى تركيا تفاجأ به الجميع فقد كان صــغير الســنّ لكنّهم رحبّوا به على كلّ حال وأوصلوه إلى دولة الخلافة.

يلعن أبو طلحة حظّه كل يوم وهو يتساءل في سرّه بمرارة لو تدخل الأمن الدنماركيّ واعترض سبيله لكان الآن يستمتع بألعاب الفيديو ويتابع أخبار ريال مدريد، لكان منشغلا بدراسته ويحب الله كما تفعل أمّه، يصليّ مثلها وقد يساعد المحتاجين وربما انخرط في جمعية خيرية تهتم بأطفال الشوارع وباللاجئين الذين يسكنون حدائق المدينة.
كان يمكن لعلاقة أبي طلحة بربيع أن تستمر لو لا أنه ارتكب خطأ اعتبره ربيع خطيرا.

باح أبو طلحة لربيع بسره وهو أنه يشتاق إلى عائلته كثيرا وأخبره أنه يرغب حقا في العودة إلى الدنمارك، وهو يحدثه اشتد به الحنين خاصة إلى أمه وأخيه الصغير وأخذ في البكاء ويسأل ربيع كيف يعود إلى دياره. رأى ربيع في ذلك ضعفا لا يرضاه لأحد مقاتلي الدولة واعتبر – مثلما تعلم في دروس الجماعة – ان فكرة الحنين إلى العائلة وخاصة التفكير في العودة إنما هو خطأ كبيرا لا يغتفر، أخبر ربيع قائد السرية أبا شدّاد بسر أبا طلحة نه يحن إلى عائلته ويرغب في العودة إلى أهله ولذلك فهو يشك في أنه من المدبرين عن القتال. لم يعتبر ربيع ذلك وشاية لأنه لم يقصد إلحاق الأذى بأبي طلحة بل أراد تعزيز مكانته كمقاتل تونسي شجاع وغيور على دولة الخلافة. طمأن القائد أبو شدّاد ربيعا أن الوضع تحت المراقبة، وقتها لم ينتبه ربيع إلى معنى أن يكون الوضع تحت المراقبة.

تجلّت هشاشة أبى طلحة الدنماركي عندما ضغطوا عليه للقتال في سنجار، أعلن صراحة رفضه الذهاب للحرب، قال إنه جاء ليعيش في دولة الإسلام ولا يريد أن يقتل أحدا وعندما رضي أبو طلحة أن يسجن على أن يقاتل وجد ربيع في ذلك حجة دامغة على ضعف إيمان أبى طلحة الدنماركي وتأكيدا على شكوكه.
ما فعله أبو طلحة أمرا خطيرا وجريمة لا تغتفر في دولة الخلافة.
في صباح أحد الأيام وُجد أبو طلحة الدنماركي على أطراف المعسكر مقتولا، سرت بلبلة بين بعض إخوته من المقاتلين وانتشر الخوف بينهم.

طمأن ربيع نفسه لقد قام بدوره كمقاتل صالح لا يرضى أن يكون من بين جنود الدولة من بهم ضعف أو وهن.

جال ربيع ببصره في أرجاء القبو فهاله عدد الجرحى الذين ازدادوا عمّا كانوا عليه في الصباح لكنّه تمتم في سرّه "لن أكون مثل أبي طلحة الدنماركيّ، لن أحنّ لعائلتي ولن أرأف بالكُفّار" وتحسّس بأنامله المرتعشة كفّه، يعرف كيف يستعمل الكلاشينكوف جيدا.

عوّد ربيع نفسه أن يطرد من ذهنه صورة أمّه كلّما خطرت بباله ويقول لنفسه مثل كل مرة "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"، أحيانا يقولها لنفسه بصوت مرتفع عندما تلحّ عليه صورة أمه حتّى لا يضعف لكن كلما خطر والده بباله تغيرت ملامحه فيبدو أشد صرامة، "أبي اختار أن يعيش في دولة خليجية ناعمة وأنا اخترت الدولة الربانية، لم أتدخل في اختياره وليس له الحق أن يتدخل في اختياري" ويلوذ بالصمت.

في مساء اليوم الذي وجد فيه أبو طلحة الدنماركي مقتولا أعلنت القيادة عن القبض على رجل فرنسي تهمته أنه صُحفي، لا يدري أحد كيف دخل المدينة لكنه الآن في قبضة رجال الدولة، لذلك شعر العديد من الإخوة بالزهو فهم ينتقمون من فرنسا الاستعمارية ومن الرائع أن يكون أحد صحفيها رهينة لديهم. من المؤكد أن الغرب الكافر يغيظه تأسيس دولة الخلافة وتمددها لذلك يرسلون صحفيين لتصويرها ومن المؤكد أنه يدهشهم ما عليها من قوة ونظام وربما لذلك أرسلوا هذا الصحفي للتجسس، تذكر ربيع الفيلم الأمريكي "رجم ثريا"[6]،

ابتسم ربيع وهو يجد حياته فعلا مثل شريط سينمائي فيها الكثير من الإثارة والعنف والدسائس والقتل، وتغيرت ملامحه بسرعة ثم استدرك وقال في نفسه "ما يقوم به الكفار من قتل يُعدّ جريمة في حق البشرية، أما ما يقومون به من قتل فهو شرعي" استغفر وتمتم "ربي احتسبه في ميزان أفعالي واكتبني عندك من الصالحين" ثم انتفض كمن لسعته عقرب لأنّه تذكر كم كان يحب الأشرطة السينمائية والسينما حرام، وعاد يستغفر.

[6] فيلم "رجم ثريا" يتحدث عن صحفي يزور قرية إيرانية نائية وينقل إلى العالم قصة رجم ثريا بناء على تهمة كيدية بالزنى من طرف زوجها ليكشف عن ممارسات ظالمة تجاه المرأة (الفيلم عن قصة حقيقية). أخرجه الأمريكي سايروس نورسته، صدر سنة 2008 وتحصل على جوائز عديدة.

14

- ماذا سنفعل الآن؟

في ردهة البيت، صرخت أمّ أمل بزوجها وهي تروح وتجيء مثل لبؤة جريحة، وجهها ممتقع وقلبها منقبض:

- ماذا سنفعل الآن؟ قل لي ماذا سنفعل؟

وأجهشت بالبكاء...

كان زوجها حزينا وصامتا ينفث دخان سيجارته بعصبيّة دون أن ينظر إلى زوجته التي ارتفعت شهقاتها، تقدّم من النافذة الصغيرة المغلقة فرفع عنها الستار وألقى نظرة إلى الخارج، كانت سيارة جاره الفخمة التي اشتراها حديثا واقفة في الشارع، لا يؤمن بالفال السيء وليست هناك علاقة بين سيارة جاره السوداء وفقدان ابنته ولا يحبّ أن يقارن بينه وبين جاره الذي بدأ حياته مثل يشتغل في البناء وعلم أنّه سينتقل إلى بيت اشتراه حديثا في مدينة الزهراء، شعر بغصة في حلقه واكتفي بلعن حظّه السيء.

ارتفع بكاء زوجته فاستدار نحوها قائلا بصوت حادّ:

- لا حيلة لنا فمن تذهب إلى هناك لا تعود.

قالت من خلال شهقاتها وهي لازالت منكبّة على وجهها:

- أيّ عار أَلْحَقَتْهُ بنا، ماذا سنقول للعائلة وكيف سنواجه الناس؟

التفت إليها زوجها وهو يقول:

- أنتِ السبب لم تكوني مهتمّة بها، انشغلتِ عنها بعملك في المصنع وتركتها تضيع منّا.

رفعت رأسها وصوّبت إليه نظرات غاضبة وقالت بحنق شديد:

- كنت أتعب من أجلكم، المصنع سرق عمري وأنا كنت أريدها أن تكون مثل أندادها لا ينقصها شيء، كنت أحبّ أن أراها تعيش حياة أفضل من حياتنا، (بلعت ريقها وأضافت بصوت مختنق) أنتَ السبب لم تكن تهتم بنا.

تقدّم منها بخطى صغيرة وخرجت الكلمات من بين أسنانه كأنّها صرير باب قديم:

- أنا الذي كنت أتعب من أجلكم، الحياة صعبة ولم أكن وحدي أستطيع توفير حاجيات العائلة، أنتِ أمها كان يجب أن تكوني قريبة منها وتنتبهي لكل تغيّراتها المريبة.

ردّت دون أن تنظر إليه:

- لن تغيّر رأيي، سأظل أحمّلك مسؤولية هذا البيت.

أجاب بسخرية وهو يقترب منها:

- وهل ستغيّري لي أنتِ رأيي، حظي عاثر منذ أن تزوجتكِ.

شَعُرتْ أن الجدل الذي يشتد بينهما لن يحل المشكلة فعادت إلى السؤال الذي يؤرقها:

- كيف سنبرّر غيابها الآن؟

ردّ بهدوء شديد:

- وحدكِ المسؤولة وليس عليّ أن أبرّر غيابها، لقد تمّ تسفيرها إلى سوريا لتقاتل هذه هي الحقيقة.

عادت تصرخ:

- هل تريد أن أقول لأهلي ولزميلاتي في العمل ولجاراتي أنّ ابنتي سرقها مني التيار السلفي وأخذها لسوريا لتقاتل؟ هل جننت؟ هل تريدني أن أموت...

أجاب ببرود وهو يتجه إلى الباب:

- قولي لأهلك ولغيرهم ما تريدين، بالنسبة إليّ تمّ تسفيرها والله وحده يعلم مصيرها.

ردّت وهي تكتم صراخها فتخرج الكلمات من فمها حادّة:

- أريد حلاً، أريد أن تعيد لي ابنتي.

لم يرد، كان قد غادر البيت وتجاهل صوتها كأنّه لا يصله.

في زاوية من الردهة بجانب الأريكة القديمة كانت طفلتهما الصغيرة تجلس على الأرض، تتابع الشجار بين والديها وتبكي بصمت، لا ينتبه إليها أحد في البيت كأنّها ضمير غائب في جملة ركيكة.

15

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري

منتصف النهار و12 دق (بتوقيت تونس)
في مصحة الهناء، غرفة رقم 216

غادر الطبيب الغرفة البيضـــاء، كانت تطبق جفنيها في اســتســـلام، لم تســـتطع النوم وكرهـت اليوم الـذي فكّرت فيـه أن تـذهـب إلى رئيس الجمهورية، لا تدري كيف خطر لها أن تلقي بنفســـها بين رجال الأمن وتجد نفسها من الغد في هذه الغرفة الموحشة فريسة ذاكرة تعذّبها، تمنّت لو يصمت هذا العقل أو تفقد ذاكرتها فترتاح وتتحوّل إلى شيء نافع طاولة مثلا أو ســتار نافذة لا تفتح أو ســطل أو قارورة دواء أو مبيد حشــرات. كانت مســتســلمة لغيبوبة تأخذها بعيدا، تشــعر أحيانا أنها تســقط في بئر عميقة وأحيانا تعود إلى الســـطح. تنظر إلى الباب لا تحب أن تحوّل بصــرها عنه، تتمنى لو يُفتح الباب ويدخل ولدها وتكتشـف الآن أهمية أن يكون هناك باب، لو كانت البيوت بلا أبواب لتحولت إلى قبور، راقها أنها تفكر، هذا يعني أنها مازالت حيّة وهناك فرصة لتبحث عن ولدها.

طال انتظارها، بصرها معلق بالباب ولم يفتحه أحد ففتحت باب الذاكرة التي تأخذها من مكان إلى آخر تنطلق في كل مرة من حيث توقفت فتتقدم وتســرع الخطى في اتّجاه المجهول. تذكر أنّها اقتربت من الباب الحديدي الفخم وضـــغطت على زر الجرس لم يجبها أحد، ضـــغطت على الزر مطوّلا ولم يجبها أحد. طرقت الباب بكفها بشـــدة ورنت الجرس مرات أخرى، دقائق قليلة بدت لها طويلة عندما وصلها صوت من الأنترفون:

- مرحبا، ماذا تريدين؟

ردت ثريا بصوت مرتفع:

- أسأل عن رامي، أنا أمّ صديقه.

- رامي، ليس هنا.

سألت بلهفة:
- متى يعود؟ أين أجده؟
وصلها الصوت البارد:
- آسف، قلتُ غير موجود.
رنّت مرّات على الجرس، ولم يعد الصوت البارد يرد عليها كأن لا أحد يسكن هذا القصر الفخم، عندما تراجعت خطوات صغيرة إلى الوراء لترفع بصرها إلى شرفته العريضة المرصّعة بأصص الأزهار علها تبصر أحدا، أطل كهل من خلف الباب الضخم في يده مجرفة، يبدو أنه البستاني، بادرته:
- أريد رامي، هو صديق ربيع ولدي وهو متغيب عن البيت منذ فترة قال إنه سيراجع دروسه مع إخوة له، ربما يدلّني رامي عليه.
- رامي ليس بالبيت منذ وقت طويل، والدته الدكتورة الساحلي في عيادتها بمصحة التوفيق وأبوه سافر منذ يومين يتفقد ضيعاتهم في الشمال ولا أحد يمكنه أن يقدم لك أي مساعدة.
شعرت والباب الحديدي الضخم يغلق في وجهها بالإحباط الشديد.

لم يترك رشاد حماسها يفتر. اقتربا من جامع الحيّ، كانت الحركة التي تؤدّي إلى داخله خفيفة، قال رشاد:
- هنا سنجده، أعلم أن له أصدقاء يلتقي بهم في هذا الجامع ويصلي معهم، سنسأل عنه، بعد قليل ستقام صلاة العصر وسنجد من يدلّنا عليه، فلننتظر.
قالت بصوت متهدّج وقد برق الأمل في داخلها:
- نعم لننتظر..
قلبها ينبئها بأنها ستصل إلى ابنها وعقلها يرفض التصديق. قضت عمرها تتأرجح بين القلب والعقل، لم يهنأ القلب ولم ينتصر العقل وكانت دائما ضحية هذا الصراع المرير الذي يحولها في كل مرة إلى جثة تتنفس. لكن لا بأس، يحدث أن ينتصر القلب أيضا عندما يتعلق الأمر بولدها.
شنّج الإنتظار أعصابها وجعلها تتململ في وقفتها وعقلها لا يكفّ عن الهواجس وقلبها يغوص في جوفها وأملها يتأرجح.

- لماذا تفعل هذا بأمك يا ربيع، لماذا تحطم قلبا يحبك يا عزيزي؟
أي فكر يقودك إلى قتل أمك عشرات المرّات في اليوم.؟
فجأة أيقظها صوت رشاد وهو يقول:
- رأيته مرات عديدة مع هذا الشاب، انتظريني سأسأله عنه.
ردت بلهفة:
- بل سأكون معك.
وبسرعة أمسكها من ذراعها وأخذا يقطعان الشارع في خطوات راكضة...اعترض رشاد الشاب الذي بدا في العشرين من عمره تقريبا بلحية خفيفة مرتديا لباسا افغانيا أبيض وحياه:
- سلام صاحبي.
نظر الشاب إلى رشاد متفاجئا ونقل بصره إلى المرأة الأربعينيّة التي ترافقه وردّ ببرود:
- عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
ابتسم له رشاد كأنّه أراد أن يطمئنه قائلا:
- كنت أراك مع ربيع وكان سعيدا بصحبتك - أضاف - أنا صديقه رشاد نحن نسأل عنه فقد انقطعت أخباره منذ فترة ولا نعلم عنه شيئا - أشار رشاد إلى ثريا وهو يقول للشاب يستدر شفقته - إنها أمه ستجنّ، تريد أن يعود لها اِبنها.
اِضطرب الشابّ قليلا وهو ينقل البصر بين رشاد وثريّا وقال بصوت متلعثم:
- أنا لا أعلم شيئا عن ربيع، لا شأن لي بهذا.
همّ بالانصراف، فاستوقفته ثريّا وقد غلبتها دموعها
- أرجوك، ساعدني، إنّه ولدي الوحيد هو كلّ حياتي.
هتف الفتى:
- صدّقيني، لا علاقة لي بالأمر ولا أستطيع مساعدتك.
قاطعته ثريا:
- هل هو بخير؟ ذهب معكم مرّات كثيرة في مخيّمات في الجبال لعدّة أيام لكن هذه المرة تأخر كثيرا، أريد أن أطمئن عليه، لم يعد وقتا على امتحاناته أيضا وأريده أن يعود إلى البيت.
غلبتها دموعها فغصّت بالكلمات وتدخّل رشاد:

- أنا أعلم أنّه صديقك وأنت تستطيع أن تدلّنا كيف نصل إليه - أضاف بثقة - أعلم أنّه يحضر دروسا دينيّة معك في الجامع وتقضيان أوقاتا كثيرة معا، إذن يمكن أن تساعدنا ذهبنا إلى بيت رامي هو أيضا غير موجود.

- لا أعرف رامي، لا أدري عمّن تتحدّث، لا أعلم شيئا.

انخرطت ثريا في نشـــيج مرّ وانهمكت تبحث عن منديل في حقيبتها الصغيرة وجدها الفتى فرصة للتملّص فقال وهو يهمّ بالذهاب:

- قلت لكما لا أعلم شيئا.

وبخطوة واحدة استوقف رشاد الفتى مرّة أخرى وألحّ عليه:

- ســـاعدنا بجاه ربي، ســـاعدنا لا يمكن أن تترك قلب أمّ يتمزّق ويحترق...

أجاب الفتى وقد ضاق ذرعا بهما:

- قلت لك أنا لا أعلم شـــيئا، لا علاقة لي بأي شـــيء ولا أســـتطيع مساعدتكما.

صاحت به ثريا وصبرها يوشك على النفاد:

- هل حقا أرسلتم ولدي إلى الموت، هل حقا حوّلتم ولدي إلى قاتل؟

أجاب الفتى بصوت بدا متشنجا:

- نحن لا نرسل أحدا إلى الموت، الجهاد في سبيل الله حقّ علينا.

صعقت ثريا وكأنّها تتأكّد الآن من ظنونها ووجد رشاد الفرصة فسأل الفتى:

- أرجوك، كيف نصل إليه؟ لا نطلب منك أكثر من أن تدلّنا على مكانه فقط.

قال الفتى بتبرّم:

- قلت لكما لا أعلم شيئا.

عنّت من الفتى اِلتفاتة فرأى أحد إخوته في الله يمشي قريبا منهم، كانت فرصة مناسبة للتملّص من رشاد وثريّا وبسرعة نادى صاحبه واِنفلت منهما.

لحقت به ثريا بخطى متعثرة وبصوت باك:

- أرجوك ساعدنا، أرجوك دلني على ولدي، حرام ما تفعلونه بي...

كان الفتى يهمس إلى صـــاحبه ويســـرعان الخطى إلى الجامع لم تكن تدري ماذا يقول له لكنها أبصــرتهما يوجهان لها نظرات متقطعة ثم دخلا الجامع معا.

قال لها رشاد:

- ابقي هنا، سألحق بهما وسأعود لك بالخبر اليقين..!

16

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري

منتصف النهار و20 دق (بتوقيت سوريا)
في المستشفى الميداني بإحدى المناطق السورية

عاد ربيع يرى نفسه وحيدا في الصحراء وقروش ضخمة تسبح في الفضاء وتعدو خلفه، يتملّكه الرعب وهو يجري والقروش تلاحقه ومع كلّ خطوة واسعة يصرخ بشدّة، ليس لديه الوقت ليفكر ما الذي أتى به إلى هنا، إلى هذه الصحراء القاحلة؟ وكيف تترك القروش البحر وتسبح في الفضاء؟ يشعر أنّها بقضمة واحدة ستبتلعه فيتملّكه الرعب، كان يعدو بسرعة لا عهد له بها وبين الفينة والأخرى يلتفت مذعورا إلى الوراء والقروش الضخمة تلاحقه فيصرخ من شدة الرعب، في اللّحظة التي دنت منه سمكة قرش كادت تلامسه فتحت فمها وظهرت أسنانها المدببة مثل المنشار علا صراخه بشدة وحين همّت بقضمه فتح عينيه ليجد نفسه في القبو المعتّم والرطب يرتجف من شدّة الرعب الذي ألحقته به القروش وهي تعدو خلفه، يتصبّب العرق من كامل جسده ويسكنه العطش، شعر بحاجته إلى الماء، كأن ما به من سوء حال لا يكفي حتى يزيد الكابوس من حالته المزرية.

يحتاج أن يشرب بين الفينة والأخرى كي لا يجفّ الماء من جسمه الذي ينزّ عرقا باستمرار، منذ أن أصيب أمس في أوّل معركة حربيّة له لم يجد في هذا القبو من يهتم به، جال ببصره في القبو وتذكر غرفته في تونس، نظر إلى المصابين وقد وُضعوا كما اتفق، أثارته الرطوبة في المكان فشعر برغبة في التقيؤ من جديد، حوّل بصره إلى جسده الواهن، ذراعه ملفوفة في بقايا قماش يَبُسَ عليها الدم، أثرت فيه الشفقة على نفسه، برقت في ذهنه أمه وجدته وشعر برغبة شديدة في البكاء وكان يجب أن يقاوم تلك الرغبة بشدة حتى لا يضعف ويعشّش فيه الحنين إلى عائلته فينهار، لذلك استغفر الله حتى لا يضعف وعاد يجول ببصره في القبو،

مكان بائس رطب تتردّد بين جنباته زفرات المرضى لكنّه شعر أنّه ينتمي إلى هذا المكان، يحبّه ويقدّره، إنّه مكان بين الحياة والموت بين الجهاد في سبيل الله وبين جاهليّة القرن الحادي والعشرين، بين دولة الخلافة ودولة الطاغوت. نعم يجب أن يحب هذا المكان رغم أنّ رطوبته تزعجه وتجعل تنفسه صعبا.

في المعسكر كانت له حياة مع المقاتلين وذكريات مع أبو طلحة الدنماركي وطدت علاقته أكثر بقائده أبي شداد، كان الاستعداد حثيثا في المعسكر من أجل أول معركة عسكرية أصيب فيها، لكنه يذكر أنه جاء المعسكر من مدينة الرقة التي وصلها مع بقية الوافدين الجدد وأسكنوهم في شقق خصصت لهم. يذكر ربيع أنه بسرعة أَلِفَ المدينة التي كانت في حركة دائمة لا تفتر وقد أدهشه وجود الكثير من التونسيين الذين سبقوه إلى هنا يشغلون خططا عديدة يعلم بعضها ويجهل بعضها الآخر فضلا عن جنسيات عربية وأوروبية. كانت سعادته كبيرة بلقاء أبي شدّاد يريد أن يسأله كيف سبقهم إلى الرقة لكنه تعلّم أن هناك مسافة يجب أن تكون بينه وبين قائده فلا يحق له أن يكون فضوليا ولا أن يسأل كثيرا من أجل أمن دولة الخلافة.

التقى ربيع بأبي شدّاد في جامع شرق ميدان النعيم مركز المدينة مع مجموعة من التونسيين وكانت فرصة ليثبت لقائده أن تلميذه وفيا له ويتعلم بسرعة، قال ربيع:

- وجود جنسيّات مختلفة يؤكد أنها رسالة للعالمين وأنّ الخلافة حقّ ودولتنا ثابتة وتتمدّد بإذن الله.

ابتسم أبو شداد ولم يردّ. يعرف ربيع بعض التونسيين ممّن التقاهم هنا، كان يراهم في جامع الفتح في تونس، صرخ فرحا عندما التقى برضا الذي أصبح يكنّى بأبي حمزة، كان يشغل حلاقا في شارع باريس بمنطقة المروج، علم ربيع أنّ رضا أصبح الآن مدرّسا للأطفال الذين يأتي بهم جنود الدولة غنائم في كلّ مرّة يفتحون فيها مدنا جديدة.

سأله ربيع:

- ماذا تدرّسهم يا رضا، هل تعلّمهم الحلاقة؟

ردّ أبو حمزة ضاحكا:

- لا توجد محلاّت حلاقة هنا ومن يضـبطه أعوان ديوان الحِسـبة حلّق لحيته يُجلد، نحن نجمع الأطفال من المناطق التي يفتحها جنودنا وأغلبهم من الكرد وغيرهم في معسـكر خاص في مدينة الطبقة[7]، ندخلهم الإسـلام ويَدْرُسـون عندنا التعليم الديني، القرآن والعبادات والسـنّة النبويّة ونعوّض حصص الرياضة بالتدريب العسكريّ.

- ماذا غير التعليم الدينيّ؟

أجابه أبو حمزة بثقة:

- لا يدرسـون إلاّ التعليم الدينيّ، لن يحتاج تلاميذنا الرياضـيات والعلوم والآداب واللغات الأجنبية، بماذا سـيفيدهم كل ذلك وما الخير الذي سيجنونه من تعلّم أشياء تابعة للكفار؟ في الإسلام يوجد كلّ شيء. - أضـاف بثقة - أنا أهتم بالتدريب العسـكري، أحوّلهم إلى آلات قتاليّة والجميع يعلم مهارتي في ذلك ولي سـمعة تليق بي كتونسـي، يظنون أننا نأتي من دولة عَلمانية وهذا يعني أننا نعجز على البطش مثلهم بل نحن أشد فتكا من الكثير هنا، الكل يعترف بأننا لا نخاف كبيرا ولا نشفق على ضعيف.

- ماذا فعلتم حتى تحولوا الأطفال إلى جنود مطيعين رغم أنهم ينتمون إلى ثقافة مختلفة كما أنهم حديثي عهد بالإسلام؟

رد أبو حمزة بابتسامة مائلة وهو يغمز بطرف عينه:

- يجوز لنا استعمالهم في مهمة خاصة جدا.

وصدرت عنه قهقهة عالية جعلته يميل برأسه للخلف وأضاف بصوت حاول أن يجعله خافتا:

- من أجل إحْكام السيطرة عليهم يجوز لنا أن نفعل بهم ما نريد.

- ولكزه غامزا - أنت تفهم ماذا أقصد طبعا؟

في تلك اللّحظة برقت في ذهن ربيع صـورة القائد العسـكريّ الكبير بجثته الضخمة وهو يدنو منه ليلا في نقطة المراقبة وارتجف قلبه.

انتشله صوت أبي حمزة عندما أضاف وهو يمرّر أصابعه على لحيته الشعثاء:

- هذه المهمّة الخاصّة ضرورية لتهشيم شخصيتهم فيصبح الأطفال مُلكا لنا ويتحولون إلى عجينة في أيدينا.

[7] مدينة الطبقة تبعد 55 كم عن مدينة الرقة باتجاه الغرب ويقع فيها مطار الطبقة العسكري.

ابتلع ربيع ريقه وأحسّ بغصـــة في حلقه وتســاءل في ســره "هل لذلك الســبب لحق بي القائد العســكريّ الكبير في نقطة المراقبة؟" شـــعر أنه يُسـحب في هوّة عميقة وحمد الله أن رضـا لن ينتبه لحديثه لنفسـه، انتشـله صوت "الجلف" يقصد أبو حمزة ويعني رضا وهو يواصل حديثه:

- في المرحلة الأولى من تعليمنا يقع إخضاع الأطفال إلى حلقات تحفيظ القرآن بالمساجد، في المرحلة الثانية نختار منهم الأفضل أي أشدّهم تيقّظا وأكثرهم استعدادا للبطش نأخذهم في المعسكر الشرعيّ للأشبال وهنا تأتي مهمّتي الأســاســيّة نخضـــعهم إلى دورات عســكرية يتدربّون فيها على اسـتعمال السـلاح وتدوم ثلاثة أشـهر وبحكم قتال الدولة العنيف في مدينة كوباني فقد وقع اِختصار مدّة التكوين إلى شهر واحد ونأتي بغيرهم.

عاد رضـــا يقهقه، شـــعر ربيع بأنّ هذه القهقهة تحمل شـيئا لا يحب أن يفهمه.

قال أبو حمزة مبتسما:

- لدينا حفل تخرّج غدا، أدعوك للحضـــور ســترى تلاميذي - أضـــاف بفخر - كلّ طفل منهم كلاشينكوف يمشي على رجليه.

واصل وقد رفع من صوته:

- هل تعلم أنّ أبا محمد العفريّ أصـــبح قائد ســرية وعمره لا يتجاوز ثمانية عشرة سنة؟

أضاف وهو يغمز بطرف عينه: العِبرة بالقليّب.

منذ ذلك اليوم أصـــبح في كل مرة يرى فيها أبا حمزة يتذكر "الجلف" الذي اشتهر في حيه بميله للتحرش بالصبيان.

يتململ ربيع على السرير الخشن وتتساقط الصور من ذاكرته، يتذكر أن حفل التخرّج الذي دعاه له الجلف ويقصـــد أبو حمزة كان مســـاء يوم جمعة، تجمّعت حشود من الناس في دوار النعيم، على اليمين كانت منصة جلس عليها مجموعة من الأطفال تتراوح أعمارهم بين ثلاث عشرة وست عشـرة سـنة في لباس أسـود وعلى جبهاتهم قدّت رايات العُقاب السـوداء، كان أمن الدولة يشـرف على كل التفاصـيل بنظام ودقة لافتين والأناشـيد الدينيـة تبث الحمـاس في الأجواء، لا يـدري لمـاذا خطرت ببـالـه أجواء حفلات مهرجان قرطاج في صـيف تونس وأغاني جورج وسـوف وكاظم

الساهر واستغفر الله على تلك المعاصي، بعد برهة تقدم رجال أمن الدولة يقودون أسرى في قيودهم، غُطت رؤوسهم بأكياس وارتفعت أصوات التكبير، هتف ربيع بأبي حمزة:

- ماذا سيحدث؟

قهقه أبو حمزة ولكزه بمرفقه وهو يقول:

- تعال من هنا حتى ترى جيدا، ستكون حفلة رائعة لن تنساها ما حييت.

تبعه ربيع وارتفع صوت التكبير عاليا فغطى على الأناشيد الحماسية.

اقتربا من المنصة كثيرا عندما التفت أبو حمزة إلى ربيع وقال:

-لا تبرح هذا المكان، أنا سأذهب أتوّج أطفالي المهرة وجنودي الصغار.

تقدم أحد المسؤولين الكبار في الدولة واعتلى الركح، بعد التحية الإسلاميّة وترتيل ما تيسّر من قصار السور، أخذ يتحدث عبر الميكروفون عن الجهد الكبير في تكوين هؤلاء الأشبال، أحال الكلمة إلى رضا فشكر القُوّاد على رعايتهم والأطفال على مثابرتهم ونادى على الطفل الأول الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره فتقدم بخطى بطيئة مدّ له رضا سيفا كبيرا يكاد يكون في طول الطفل، في تلك اللّحظة تقدّم أحدهم يقود أحد الأسرى بدا نحيفا وهو يتعثر في سلاسل شدّت رجليه ويديه كأنه خروف يقاد إلى مصيره المحتوم، جثم الأسير على ركبتيه وارتفعت أصوات التكبير، نظر ربيع بدهشة وهو لا يصدق، وضعوا رأس الأسير على مصطبة تعلو قليلا الأرض فبدا كأنه في حالة سجود يصلي. في اللحظة التي رفع فيها الطفل السيف عاليا ونزل به على رقبة الأسير أغمض ربيع عينيه، كانت أصوات التكبير عالية تصمّ الآذان وعندما فتح ربيع عينيه كانت الدماء قد لطخت ثياب الطفل والسيف لايزال في يده، تم ضرب عنق الأسير فكاد رأسه يفصل عن جسده وكان رضا يصرخ من شدة الفرح لقد نجح الطفل في الامتحان وقُتل الأسير بضربة واحدة.

بعد صلاة المغرب، كان الجميع يهنّئ رضا على تخرّج الدفعة الأولى من تلاميذه أشبال الدولة، بدت ملامح البهجة والفخر على وجهه وقال:

- لا شكر على واجب، شرف لي أن نحوّل المئات من الأطفال من الكفر إلى الإسلام ومن أعداء محتملين للدولة إلى مقاتلين يدافعون عنها

بشــراســة وينشــرون دين الرحمة في كلّ العالم - أضــاف وهو يمســح بأصـابعه على لحيته الشـعثاء مثل كلّ مرّة يشـعر بالزهو - اللّهم اجعله في ميزان حسناتي.

تقدّم ربيع صـفوف المهنّئين شـدّ على كفّ رضـا بحرارة، شـعر للحظة أنه يصافح "الجلف" وهتف به:

- جازاك الله خيرا عمّا تفعله.

كانت حفلة لم ينسها ربيع أبدا.

17

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري

منتصف النهار و30 دق (بتوقيت تونس)
في مصحة الهناء، الغرفة رقم 216

يمرّ الوقت ثقيلا وثريا ملقاة على سـريرها الأبيض، هي على يقين أنها لم تمت ولا تدري هل تبتهج لأنها مازالت حية أم تحزن لأنها تعجز على الخروج للبحث عنه؟ وليسـت على يقين هل مازال لها عقل وتفكر أم أنها فقدت عقلها وتتوهم؟

شـعرت أن الأرض تميد تحتها والسـرير يميل بها تتلمّس حافتيه وتشـد بقبضـتيها لا تريد أن تسـقط، تذكر جيدا أنها كانت أمام جامع الفتح عندما اِنتابها نفس الإحساس شعرت بالوهن الشديد حتى أنها كادت تقع أرضا.

كانت ما تزال صـــحبة رشـــاد عندما أخذها إلى جامع الفتح الذي كان يتردد عليه ولدها من أجل الدروس الدينية وهي كانت تظن أنّه منشـــغل بدروس الباكالوريا، لم يقدم لهما الشـــاب المتدين معلومة تخفف عنها لوعتها وتركها تتخبط في حيرة قاتلة.

يقع جامع الفتح في لافايات بالعاصـمة ويُعد المقر الرئيسـي للسـلفيين، تذكر ثريا أن رشـــاد دخل إليه بحثا عن خيط يقودهما إلى ربيع عندما ارتفع صـوت المؤذن لصـلاة العصـر، شـعرت أن قدميها ما عادتا تقدران على حملها اســتندت إلى جدار الجامع كأنها تتكئ على صـــوت الآذان القوي يرتفع عاليا يدعو الناس إلى الصـــلاة، شـعرت بالوهن والضـــعف فأســـندت قامتها أكثر إلى الجدار الأبيض الكبير ولم تســـتطع أن تقاوم دموعها فكانت تنشـج بصـمت، وجه إليها بعض المصـلين التفاتة خاطفة وهم يحثّون الخطى الواســـعة نحو باب الجامع الكبير ويغضّ بعضـــهم البصر عنها وهي لازالت مستندة إلى الجدار حتى لا تسقط...

- يا ربي بجاه كل صـلاة لك أعِد إليّ ولدي حيّا، أعِد إليّ ولدي سـالما، أعد إليّ ولدي الآن؟

هل يعقل أن يفتكّوا مني ولدي باسمك ويلقوا الجمر في أحشائي؟
هل صـــحيح ما يتداول حولي أنهم يأخذون أولادنا إلى حرب لا ناقة لنا فيها و لا جمل يجوز بِإسمك أن يرسلوا ولدي إلى الموت ويقتلوني؟
هل يحقّ لهم أن يأخذوه من مقاعد الدراسـة فيوجّهون تفكيره إلى الدماء ويحوّلونه إلى قاتل؟
ما إن تمدّ كفّها تمسح الدموع المنهمرة بغزارة على خديها حتى ينساب فيض آخر من الدموع فتشعر بانقباض في صدرها، يرتبك تنفّسها ويتلعثم لسـانها وهي تدعو..."يا ربّي اِرفق بولدي، يا ربي خلّصـه من أصـحاب السـوء نجه من إخوان الشـيطان، يا ربي أعده لي حيّا، يا ربي بجاه هذا الآذان، بجاه كل من صلى لك، بجاه كل الصلوات التي تتوجه لك من كل المؤمنين أعد إليّ ولدي سـالما...لا أريد شـيئا غير أن يعود لي ولدي".
تعضّ على شـفتها وتبكي وتقول في نفسـها "كان يجب أن أنتبه إليه وأن أفهم كلّ الشـفرات التي كانت تصـلني كم أنا غبيّة ولا أصـلح أن أكون أمّا..."
كيف فاتها أن ابنها يتغير ويبتعد عنها؟

تهوي عليها ذاكرتها بصور تؤلمها وتعض على شفتها ندما، تذكر يوما أنه بعد حصص تدريسها في المدرسة الابتدائية بالحي ذهبت للمكتبة التي ورثتها عن أبيها تسـاعد العاملة، عندما مر بها أحد أصـدقائها القدامى يتجاذبان كالعادة أحاديث متنوعة حول آخر المشـاغل النقابيّة التي تهمّ قطاع مهنة التعليم الذي سـرق عمريهما وعن آخر مسـتجدّات الحراك الثوريّ في البلاد.
دخل ربيع وألقى التحيّة ببرود، قالت له أمّه:
- مالك يا ربيع؟ هذا عِماد صـديقي، هل نسـيته؟ سـلّم على خالك يعيّش ولدي.
قال ربيع وهو يمدّ يده إلى الرجل:
مرحبا عمّي، آسف أنا مستعجل، قريبا سيؤذن لصلاة المغرب ولم أتهيأ بعد.
ثم وجه كلامه إلى أمه:
- أنا أريدك لأمر مهمّ.

أجابته:
- تفضل.
بدا عليه التردد وهو ينظر إلى عماد فتنحنح هذا الأخير ومدّ يده مصافحا ثريا:
- لن أشغلك أكثر يا ثريا، نلتقي لاحقا...
أضاف وهو يمدّ يده إلى ربيع:
- أتركك بخير يا بني.
كانت ثريا تنظر مندهشة إلى ولدها، ما إن غادر عماد المكتبة حتى سألت ابنها:
- مالك يا ربيع، كيف تعامل صديقي بكل هذا البرود؟
أجاب ربيع بانفعال:
- أمي أنا لم أعد صغيرا - ثم لوّح بيده في الفضاء ورفع صوته - ماذا تعني بكلمة صديقي تقولينها لكل رجل تعرفينه؟ ما من صداقة بين رجل وامرأة وقد حرّم الإسلام هذه العلاقات واعتبرها غير شرعية.
شهقت ثريا:
- ماذا تقول يا ولد؟ من أين تأتي بهذه الترّهات؟ اللّقاء بين الرجال والنساء ليس محرّما بل جائز ومطلوب إذا كان القصد منه نبيلا، ثم إن الحياة من نِعم الله ولذلك علينا أن نتشاركها رجالا ونساء وجميع صداقاتي راقية - أضافت بنبرة حادة - ومَن أَذِنَ لك أصلا أن تتدخل في حياتي؟
- عندما تكونين على ضلالة فإنّي أفعل، إنّما الدين النصيحة.
- تبّا لك أيها البائس، هل تعلم ما معنى أن يكون الدين النصيحة؟ يعني أن يكون الدين لإرشاد الناس إلى الخير وأن يحب المسلم لأخيه المسلم ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه وهذا يعني ألا ينشر البغضاء والكره وأن لا يسيء الظن بالناس وألا يبرر العنف والسحل والقتل وألا تُغسل عقول الشباب بالمقولات الزائفة عن الدين. - أضافت وقد بدا عليها الضيق- هل نسيت يا ولد أني راشدة ومتعلّمة وأختار حياتي كما أريد..
- ليس إن كان في ذلك ما يتعارض مع ديننا.
صاحت به وكأنّها قبضت على الكلمة السحرية:
- ها قد قلتها "ديننا"، نعم هو دينكم أنتم وليس دين الإسلام.
ردّ وقد بدا عليه الضيق:

- أنتِ تغيّرين الموضـوع، أنا أرفض أن تكون لك صـداقة مع أيّ رجل وأرفض أن تختلي به.

صاحت في وجهه غاضبة:

- اللّعنة عليك يا ولد، من زرع في عقلك سـوء النية هذا؟ من علّمك أن تحاسـب الناس على ما في قلوبهم وما في عقولهم وتتدخل في حياتهم؟ الله خلق الإنسان فكرّمه بينما أنتم تهينونه فتعاملونه كقاصر.

اشتد حنقها فرفعت كفها تهمّ بصفعه وهي تصرخ:

- ثم كيف تسمح لنفسك أن تحدثني بهذا الشكل يا ولد؟

بسرعة خاطفة أمسكها بشدة من رسغها وهو يصرخ:

- ستندمين على عصيانك لأوامر الله وعلى خسارتي.

ارتخى كفُّها، أطلق رسغها.

يعرف كيف يضع لها حدودا بتهديده لها في كلّ مرّة بالرحيل وكان ذلك كافيا لتندم على كل مواجهة معه. غادر غاضبا وكانت الريح تعبث بلباسه الطائفي الأبيض ولم تنطق بكلمة، ظلت تشـيّعه بنظراتها الحزينة وهو يبتعد عنها، لمحت في آخر الشـارع رامي ينتظره، تعلم أن رامي يسـكن الحي المجاور كان طالبا في السـنة الثانية طب عندما تخلى عن دراسـته ولا تدري ماذا يفعل الآن وخفق قلبها بشدة.

شـيء في داخلها ينهار، حتى أنها كادت تسـقط وتلمّسـت جدار الجامع لتسند جسدها عليه.

كانت تبكي ولم تكن تدري أنّ الأسوأ ينتظرها..

مازالت أمام الجامع، شـعرت أنّ الزمن بطيء جدّا ويضـغط على صـدرها ولم تعد تقوى على الانتظار، بدا لها أنّ رشـادا قد تأخّر كثيرا داخل الجامع وهي لاتزال مسـتندة إلى الجدار والدموع لا تتوقف وقلبها يردد الأدعية وروحها تتوسّـل إلى رب العالمين أن ينقذ ولدها ويردّها للحياة.

ترى ماذا يفعل رشاد داخل الجامع؟

هل سيجد من يقوده إلى ربيع؟

هل سيعود رشاد؟

كان القلق ينهشها وصبرها يكاد ينفد والدموع لا تتوقّف...

انتهى الآذان ولايزال المصـــلون يتوافدون على الجامع بخطوات حثيثة واســـعة ولا أحد يعيرها اِهتماما وخطرت لها فكرة ما الذي يجعلها تنتظر في حين بإمكانها أن تدخل؟

بسـرعة قدحت الفكرة في رأسـها لماذا لا تفتكّ ولدها بنفسـها من قبضـة لصوص الدين؟

رفعت كتفها عن الجدار، تقدّمت في اتّجاه باب الجامع بخطى متعثّرة تكاد تسقطها، انتبهت إلى متسوّلة جاثمة على عتبة الجامع تحضـن ولدها الصـغير ورفّ قلبها "يا ربّي ولدي..." وازدادت لوعتها فوسّـعت الخطى لتقطع المسافة الصـغيرة بين الباب الكبير للجامع وعتبة قاعة الصلاة التي بدت لها فسيحة جدا..."يا ربي بجاه رحمتك أعد لي ولدي حيّا"...وبحركة سـريعة أخذت الشـال المتدلي بإهمال على رقبتها وسـوّته على رأسـها، خلعت حذاءها وهي تنظر إلى أعداد المصـلين يسـوون صـفوفهم...لم تكن تدري إلى من تتجه تحديدا..." يا ربي بجاه كل الصـلوات التي ترفع إليك أعد لي ولدي سـالما" ولم تكد تخطو الخطوة الأولى داخل قاعة الصـلاة حتى اشتد اللّغط حولها، تقدم ناحيتها أكثر من صوت يطلب منها التراجع، اقتربت منها لحية شعثاء تتقدم وجها ممتقعا يصرخ بها:

- ماذا تفعلين هنا، اخرجي فورا لا يحقّ لك الدخول.

لحية أخرى شعثاء تصرخ في وجهها:

- ما هذه الوقاحة أيتها السافرة، أخرجي فورا ما الذي أتى بك؟

لحية أخرى يسبقها صراخ صاحبها ورذاذ البصاق المتناثر أمامها:

- لماذا تدخلين إلى هنا أيتها العورة، اخرجي بسرعة؟

زاد ارتباكها ولم تكن تدري لمن توجه حديثها لتقول إنها لا تريد منهم شيئا غير ولدها، صراخهم يشتّت انتباهها ويزيد من ضياع أسئلتها التي تغصّ بها ولا تدري كيف تلم شتاتها وبسرعة تحوّل الصراخ في وجهها إلى أياد تمتدّ نحوها وتدفعها خارج قاعة الصـــلاة، لم تتمالك نفســـها فصرخت بدورها في اللحى الشعثاء التي تحيط بها:

- أتركوني، لا أريد شيئا منكم، أريد ولدي فقط..

لم يتبين أحد ما تقوله وسط تداخل أصواتهم واشتدّ اللّغط حولها.

ازداد حولها تجمّع اللحى والمصلّين بين لاعن وشاتم وصارخ ومتبرّم وفضولي...وضاع صوتها وسط صخبهم وتدافعهم حولها، تبيّنت وسط الضجيج صوت رشاد يصرخ عاليا:

- اتركوها، اتركوها، تريد أن تسأل عن ولدها فقط.

لم يعره أحد انتباها، ولم يتركوها إلاّ بعد أن رموا بها خارج الجامع وعادوا إلى صلاتهم منتصرين وهم ينفضون أياديهم من دفع امرأة عورة ومتبرّجة تقتحم عليهم فضاءهم.

لم يكن معها خارج الجامع سوى رشاد والمرأة المتسولة المتكوّمة حول طفلها مثل كيس قمامة:

- لماذا طردوني من الجامع هل هو ملك خاص بهم؟ لماذا يفعلون بي هذا؟

عادت إلى البكاء، ربّت رشاد على كتفها وساعدها على الوقوف، كانت حافية.

- أطلب فقط أن يردوا لي ولدي...

أتاها رشاد بحذائها من قاعة الصلاة وهي تقول من خلال دموعها:

- لا يحق لهم طردي ألا يعرفون أن الدين معاملة، هل أنا خطر عليهم؟ هل سأفعل مثل بعضهم وأفجّر وسطهم قنبلة، ما ضرّهم لو انصتوا إلي وساعدوني؟

ثم التفتت إلى رشاد:

- بمن التقيت في الداخل يا رشاد، هل هناك أمل يقودنا إلى ربيع؟

استدار إليها رشاد ورمقها بنظرة خاطفة وظل صامتا. ارتجف صوتها وهي تسأله:

- قل لي يا رشاد بمن التقيت في الداخل؟

زمّ الفتى شفتيه وقال:

- لا شيء التقيت ببعض أصدقائه الذين يسمّيهم إخوته ويصلّي معهم وجميعهم لهم نفس الإجابة لا يدرون شيئا.

صرخت ثريّا حتّى ارتعشت خصلات شعرها وتناثر رذاذ بصاقها في الهواء:

- ما يفعلونه حرام، لقد أساؤوا معاملتي ثمّ هم يخفون عنّي ابني وأنا لن أسكت أبدا وسأُطْبِق السماء على رؤوسهم، سأجعلهم يندمون ويعتذرون وسيأتون بولدي طوعا أو كرها.

ثمّ أضافت بصوت لايزال صارخا:

- أعرف كيف أنتقم لنفسي وأستعيد ولدي، تعال معي يا رشاد أنا أعرف كيف أدمّرهم جميعا وسترى ذلك بنفسك.

لم يفهم رشاد شيئا والمتسولة تنظر إليها بشفقة وهي لا تتوقف عن دعائها "حاجة لربي على رحمة الوالدين.."

استوت ثريا في وقفتها وأتى لها رشاد بحذائها فلبسته ثم أشارت إليه:

- هيا معي، أعرف كيف سأنتقم لولدي من هؤلاء الجرذان.

أضافت بثقة وهي تحثّه بحركة من يدها على المشي.

- تعال معي وسترى بعينيك!

بدت ثابتة في خطاها وعلى يقين من وجهتها، رافقها رشاد وهو لا يدري أين ستذهب به.

18

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري

منتصف النهار و40 دقيقة، (بتوقيت سوريا)
في المستشفى الميداني، بإحدى المناطق السوريّة

منذ الصباح أوجاع ذراعه شديدة وأنينه لا يخفت، يتنفس الصعداء قليلا عندما تأخذه غيبوبة لا يدري كم تدوم، الآن العرق ينز باردا من جسمه يتمنّى لو أطل أبو شدّاد، إنه أكثر من قائد بالنسبة إليه سيستحي منه لأنه أصيب في أول معركة يخوضها للدفاع عن دولة الخلافة ولكن كان يحب أن يراه ليشعر أنه لم يتخلى عنه أحد عندما سقط جريحا وأنه سيعود للقتال، وغمغم "ربّي نسألك الثبات على الحق والنصر على أعداء الله".

في مدينة الرقة تعوّد أبو شداد أن يأخذ ربيعا معه من حين إلى آخر في جولة في أرجاء المدينة، يذكر ربيع انبهاره بدولة الخلافة التي بدت له قائمة بأجهزتها الإدارية والأمنية والإعلامية والعسكرية ومخابراتها أيضا.

قال له أبو شدّاد بثقة واعتزاز:

- تسيطر دولة الخلافة على أكثر من ستين في المائة من النفط السوري وهذا يوفر لنا دخلا يقدّر بثلاثة مليون دولار يوميا لذلك نحن ندير شؤوننا باستقلال تام عن الكفار.

لاحظ ربيع أن سلطة أبي شدّاد كبيرة في مدينة الرقة تماما مثلما كان في تونس، ومعلوماته واسعة ودقيقة، لا يفهم سر هذا النفوذ، عليه أن يثق به وكانت ثقته به كبيرة منذ أن كان في تونس.

هتف أبو شداد:

- لقد أتيت بأخي شادي إلى هنا أيضا، هل تتذكره؟

- أتذكر أخاك شادي جيّدا، يصغرني بقليل، كان مثلي يحبّ الترجّي الرياضيّ وريال مدريد، أذكر أنّه كان يشاركنا اللّعب في مباريات كرة القدم في الحي ويحب دائما أن يكون حارس المرمى.

- سيكون سعيدا بلقائك هنا، نشكر الله على نعمة الإسلام وندعو أن يتقبّل منا أجر الهداية - أضاف أبو شدّاد - سنمرّ به لنأخذه معنا في جولة مراقبة في المدينة، لقد اقترحتُ عليه أن يعمل بديوان الحِسبة، ذلك أفضل من أن يبقى بتونس، هنا يخدم الدولة الإسلاميّة.

ذلك المساء، كانت سعادة ربيع كبيرة بلقاء شادي، ما إن رآه حتّى هرول إليه وصافحه بحرارة مهنّئا إيّاه على دخوله أرض الإسلام كان يحبّ أن يحضنه ويسأله عن أمّه وجدّته لكنّه يعلم أنّه لا يجوز للرجل أن يحضن آخر وإن كان على سبيل التحية ولا يجب أن يسأل عن أهله فيكشف حنينا إلى عائلته وهذا يحسب ضعفا منه لا تحمد عواقبه وتذكر أبا طلحة الدنماركي فشعر بانقباض شديد في صدره. كان ربيع فخورا بنفسه كثيرا لقد سبق شادي في اللحاق بدولة الخلافة في أرض الشام المباركة.

تجول ربيع مع شادي يقودهم أبو شدّاد في شوارع مدينة الرقة في سيارة رباعية الدفع للإطّلاع على عمل أعوان ديوان الحِسبة الذين يقومون بدوريات يومية فيتجولون في أسواق المدينة وشوارعها ويدخلون المحلاّت التجارية وغيرها بحثا عن المخالفين لقوانين دولة الخلافة، في الأثناء حدّثهم أبو شداد عن الرهينة الصحفي الفرنسي. أخبرهم بأنّه يُترك للجوع والعطش ويُكوى بالنار في أماكن مختلفة من جسمه.

اندفع شادي يقول في حماس:

- إذن سنقتله؟

ردّ بهدوء شديد:

- لا يفكرون في قتله الآن، إنه ورقة مهمة لإحراج قوات التحالف.

كانت الجولة توشك على نهايتها عندما عنّ لأبي شدّاد أن يدخل محل كُتب على لافتته "محل حلاقة للرجال" وغصّ بصناديق الخضر، كان به صاحب المحل وشابان، ما إن لمحوا أبا شداد ورفيقيه حتى بدا عليهم الارتباك، صاح الحلاّق وهو يرفع يديه:

- لم أحلق لأحد، لم أفعل شيئا أنا أبيع الخضر الآن.

تشمّم أبو شدّاد الهواء وهتف:

- من منكم كان يدخّن؟

تداخلت أصوات الحلاّق والشابين:
- لا أحد، لا أحد...
صرخ أبو شدّاد في وجوههم ويده على مقبض الكلاشينكوف:
- هل تكذبون أيضا؟
بسرعة أخذ هاتفه ودون أن يهتم بتوسلاتهم طلب الدعم من فرقة المراقبة.
لم تمر دقائق حتى توقفت سيارة رباعية سوداء كتب عليها بخط غليظ "شرطة الدولة" نزل منها أربعة مراقبين مدججين بأسلحة الكلاشينكوف وبعصي غليظة وأخذوا الشبان الثلاثة، كان ربيع وشادي يراقبان المشهد بفضول في حين بدا أبو شدّاد هادئا وقال مبتسما:
- هذا المساء سنشهد عملية جلد هؤلاء الثلاثة في ميدان النعيم وسيدفعون فدية لبيت مال المسلمين. - أضاف بثقة - نحن نهتم بصلاح كل الأهالي ونحرص على إيمانهم ونخلص في عملنا حتى أنك لا تكاد تعثر على مفطر في شهر رمضان.
تساءل ربيع:
- كيف يقع التفطن للمفطرين؟
- سهل جدا، أعوان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينتشرون بين الناس ويسألونهم إن كانوا صائمين أو مفطرين ومن يشكّون به يقوم أحد الأعوان بشمّ فمه وأصابعه وفحص أسنانه، والكثير منهم يعترفون أنهم مُفطرون بداعي المرض وبحجج أخرى فلا يشفع لهم ذلك ويقع صلبهم على أعمدة الكهرباء في الشوارع الرئيسية للمدينة حتى يراهم الجميع ويُجلد كل واحد منهم سبعين جلدة في الساحة العامة.
قال ربيع:
- هل تذكر يا أبا شداد بعض شبان حينا في رادس ممن كانوا يجاهرون بإفطارهم في شهر رمضان، ولا يستحون من عصيانهم مثل سمير عجة وزياد شورّب ومكرم ولد العكري...
- نعم أتذكرهم وأتمنى أن نجعلهم يوما عِبرة لغيرهم فنصلبهم على أعمدة الكهرباء في الحي وأجلدهم بنفسي حتى تسلخ جلودهم عن أجسادهم.
بدت على شادي ملامح السعادة بعمله الجديد، سأل ربيع أبا شدّاد:

- لماذا اخترت لأخيك هذا العمل؟

أجاب أبو شدّاد:

- يقع التوجيه حسب حاجة الدولة من جهة ورغبة المجاهدين من جهة أخرى هناك من التونسيين من يعمل خياطا أو مراقبا أو في الأمن أو غيرها من الأعمال. شعر ربيع بغصة عندما تذكر أن القائد سأله في مضيف التل الأبيض على الحدود السورية:

- ماذا تريد أن تكون في الدولة الإسلامية؟

أجاب دون تردد:

- مقاتل.

ابتلع ريقه وكان يجب بسرعة أن يستنجد بمقولة حفظها لابن تيمية حتى يثبت "إن الجهاد فيه خير الدنيا والآخرة وفي تركه خسارة الدنيا والآخرة"[8] في حين كان أبو شدّاد يواصل قائلا:

- أليس ذلك أفضل له من البقاء في تونس، جرايته هنا تصل إلى ألف دولار مع امتيازات أخرى، طبعا أنت تعرف عائلتنا، لسنا بحاجة إلى المال يقول تعالى في كتابه الحكيم "وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى"

أضاف أبو شدّاد:

- لن تفيده شهادة الباكالوريا في شيء إن تركته يواصل دراسته في تونس.

قال ربيع باعتزاز:

- خيرا فعلت، لا قيمة لشهائد في دولة كافرة ولا علم يعلو على علوم الدين ثمّ إنّ دولة الخلافة تحتاجنا.

في تلك اللّحظة تذكر أمل الذي افترق عنها عند الحدود السورية ولم يعد يعلم عنها شيئا، هَمَّ أن يسأل عنها أبا شداد غير أن أحدهم نادى عليه فاستأذن من ربيع وذهب، ظل ربيع يشيّعه بنظراته لا يدري شيئا عن مصير أمل ولا يعلم الهول الذي ينتظره.

[8] المصدر: مجموع فتاوي ابن تيمية في باب الفقه / فصل الجهاد (ما كتبه شيخ الإسلام لما قدم التتار إلى حلب).

19

علمت انها في مدينة الرقة، منذ أن افترقت عن مجموعة ربيع تشـــعر انها في قبضـــة المجهول ولم تكن وحدها. كنّ ثلاث فتيات، قادهنّ الرجل الذي كان بصحبتهن إلى بيت كبير فاستقبلتهنّ سيّدة تحمل نقابا تتكلّم لهجة سوريّة حسب ما تذكره من المسلسلات التلفزيونية، استأذنها الرجل قائلا:

- دقيقة يا أختنا...

في مدخل البيت وشـوش لها بكلمات لم تسـمعها الفتيات، غادر بعد ذلك تصـحبه دعوات السـيّدة، ما إن أغلقت الباب خلفه حتّى نزعت النقاب عن وجهها فبدت امرأة خمسينية بسمرة خفيفة وعينين واسعتين وقالت للفتيات مبتسمة:

- الســـلام عليكنّ ورحمة الله وبركاته، ألف مرحبا يا أخواتي، نحن في "مضـــافة أمّ المؤمنين" نرحب بكنّ في دولة الخلافة جنّتنا على الأرض، ونبارك إختياركنّ الجهاد في الله من أجل نصـــرة الإســـلام وإعلاء راية رسولنا عليه الصلاة والسلام.

أضافت وهي تشير إليهنّ بالجلوس على أريكة بدت جديدة وفاخرة:

- تفضّـــلن بالجلوس، أريد أن نتعارف أوّلا، أنا أختكّن الكبرى يمكن أن تناديننـي بأمّ سَـلمان، في البيت توجد خادمة لا تشـغلن أنفسـكنّ بها، إنّها سـبيّة هي التي سـتشـرف على توفير الراحة للجميع، أنا سـأعتني بكنّ في كلّ ما تحتجنه من أجل إنجاح مهمّتكنّ في خدمة دولتنا الرشيدة. الآن أريد من كل واحدة أن تقدّم نفســـها ثمّ ســـأطرح عليكنّ برنامج العمل الخاصّ بكنّ.

تردّدت الفتيات فيمن تقدّم نفسـها أوّلا، ابتسـمت أمّ سَـلمان لهنّ وبادرت بالأقرب منهنّ إليها وكانت أملا وقالت لها بابتسامة دافئة:

- تفضّلي يا أختنا في الله...

ارتبكت أمل وخرجت الكلمات من فمها متلعثمة تغصّ ببعض الحروف:

- أنا أمل من تونس...

ضاعت الكلمات فلم تضف شيئا، هل تقول بأنّها أحبّت ربيعا وأنّها تبعته إلى هنا؟

هل تقول إنّها من أجله أهملت دراســتها وتنازلت عن حلم الباكالوريا وغافلت عائلتها وتركت الحياة خلفها، وأنّ قلبها الآن يرتجف من شــدّة الخوف؟

لم تكن تسمع إلى بقية الفتيات وهن يقدمن أنفسهن للمجموعة حتى أنها لم تنتبه إلى مرافقتيها التونســيتين ســندس ومنال اللتين التقت بهما عند الحدود التونسية الليبية وقد شعّ وجهيهما بفرح جليّ، انتبهت إلى أم سَلمان وهي تستهل دورها في الحديث بدعاء يخرج بصوت فيه الكثير من الثقة ثم قالت:

- ستلتحق بكن قريبا أخوات في الله من السودان والشيشان والعراق وليكتب الله لنا الأجر فيما نسعى إليه.

بسطت كفيها وهي تدعو:

- رب اكتبنا عندك من المجاهدات في سبيل نصرتك وأدخلنا جنّاتك - ثم أضافت - سيكون لكل واحدة منكنّ اِسما إسلاميّا تعرف به وليجزنا الله خيرا - أشارت إلى الغرف التي تحيط بالصالة - لكلّ واحدة منكنّ غرفتها الخاصّة. ثمّ وزّعت الأسماء الإسلاميّة على الجميع وقالت لأمل:

- منذ الآن، سيكون اسمك أمّ براء.

تساءلت في سرّها "كيف تكون أمّا وهي ليست بأمّ؟"

كانت غرفة أمل لا تشــبه أبدا تلك التي في تونس وتيقّظت مشــاعرها، جالت ببصــرها في غرفة باردة صــامتة بنافذة لا تفتح وكانت غرفتها في بيتهم زهريّة بنافذة مفتوحة دائما وفوضــى لذيذة تحبّها، تتناثر قطع من ملابســها في كلّ مكان وحدها الروايات مرتّبة على رفّ أنيق، لها مرآة كبيرة ودبّ قطني أهداه لها ربيع.

ما الذي أتى بها إلى هنا؟

تقدمت بخطى قصيرة وألقت بنفسها على الفراش، كان فراشها يهتز بها في كل مرة ويلذ لها أن تقفز عليه مثل طفلة صغيرة لكن هذا فراش صلب لا يرفق بجسدها الطري وتذكرت أختها، كم تشتاق أن تحضنها وتبكي، لم تدر أن أختها تسكنها بكل هذا العمق مثل ضمير حي لا تغادرها الا لماما، كان الألم يعتصــرها، الآن فقط تشــعر أنها خذلت عائلتها وخانت أختها وضيّعت نفسها وأجهشت بالبكاء.

كم تتمنّى لو تغمض عينيها وتفتحها لتجد نفسها في غرفتها في تونس. شعرت باختناق شديد، كانت تعتقد أنها تغيّر حياتها بإرادتها و تجد في ذلك متعتها لكنها أدركت الآن انها لم تغير شيئا بنفسها وأن كل السيناريو جاء على غير ما كانت تعتقد، مضى زمن الأخوات في جامع الرحمة وجاء زمن الأخت الكبرى أم سَلمان. ذهب اللين وحلت محله الأوامر، غابت الابتسامة وحل محلها الوجه المتجهم وهي تُدفع الآن للقبول بالأمر الواقع، مُجبرة على تقمّص شخصيّة امرأة أخرى لا تعرفها، لم يعد اسمها أملا الآن اسمها أم براء، شعرت أنّها لم تعد هي، كأنّ يدا تسُلّها من عوالمها حتّى اسمها سُلب منها، هل تقصد الأخت الكبرى بهذه الأسماء الجديدة أن تجتث هويتهن فيسهل عليها التحكم في شخصيات بلا اِسم؟
كانت تحبّ اسمها يملؤها طموحا ويغذي فيها الرجاء ويدفعها للتطلّع إلى الآتي. تحسّست بخيالها اسمها وقد نُقش على طبق فضيّ بأحرف أندلسيّة أنيقة علّقته فوق رفّ يضم روايات بالفرنسيّة والعربية اشترت أغلبها من سوق الكتب بالدباغين في العاصمة، كان الطبق هدية من صديقتها فاطمة اختارت هذا المكان تعلّق فيه الطبق حتى إذا استيقظت من نومها كل صباح تجده (أمل) أمامها يبتسم لها ويحثها على النهوض.

هل يمكن أن تقطع كلّ هذه المسافة من أجل أن تستبدل غرفتها وتغيّر اسمها؟
تذكّرت ربيعا هل تراه غيّر اسمه أيضا؟
همست لنفسها "قيس ابن الملوح تغيّر اسمه إلى مجنون ليلى، بعد قصّة الحب التي جمعته بي ويعرفها كلّ تلاميذ السنة الرابعة رياضيات ما الاسم الذي يمكن أن يختاره ربيع لنفسه؟ بعد كل هذا الوقت الذي قضيناه نقرأ كتب ابن تيمية وابن عثيمين بعد كلّ هذه المسافة التي قطعناها معا والتي تقدّر بالآلاف من الكيلومترات؟ هل سيصبح أيضا مجنون أمل؟ هل تراه سيختار أن يكون أبا مايا؟"
تذكّرت أمل كيف كانت في أحيان كثيرة تجلس مع ربيع على صخور الشاطئ في ضاحية سيدي بوسعيد قبل أن يرتدي القميص الأفغاني الأبيض وتتغيّر مشيته فينكس رأسه ويبدو متجهما على الدوام، كان ينشغلان باختيار أسماء أطفالهما ويتضاحكان. كان يحب أن يسمي ابنته

منها مايا ويفسره للمرة الألف "عند الرومان اسم لألهة الربيع وزوجة البركان أيضا" ويضيف وهو يلوح بقبضته في الهواء "أنا إله وأنا البركان أيضا" وتحب أن تسمّي ولدها منه آدم وتضيف وهي تفتح ذراعيها في الهواء "ستكون أبو البشرية" ويغرقان في الضحك ثمّ يختلفان هي تريد أن تختار اسم البنت وستكون مايا أيضا وهو يختار اسم الولد وسيكون آدم مرّة أخرى ويعلو ضحكهما.

- أين أنت يا ربيع؟

وأخذتها الهواجس هل هو بخير؟

تذكرت أنّ قيسا بن الملوّح كان يفكّر في حبيبته وإن كانت بعيدة، هل يفكّر بها ربيع أيضا؟

كانت أمل مستلقية على السرير الصلب عندما هاجت عليها الذكريات وغلبها البكاء فكانت لا تستطيع أن تكبت صوتها وهي تنشج ولا أن تمنع نفسها من شهقات تهزّ كتفيها، كانت تبكي بحرقة شديدة لأول مرة منذ أن غادرت تونس، لم تمض سوى دقائق ثقيلة حتى دخلت عليها أم سَلمان وقد بدت متعجبة من حالة أمل، وهي التي عوّدت نفسها في مثل هذه الحالات أن تسيطر على الوضع فبدأت تبسمل وتستعين بآيات قرآنية وبصوت يبدو ناعما قالت:

- يا ابنتي أنتِ من المبشّرات بالجنة لماذا تفعلين بنفسك كل هذا، لقد اصطفاك الله فهداك إلى الجهاد ومن المفترض أن تهنئي نفسك بما اخترتِ، يقول تعالى "يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اتقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيلَةَ وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَعَلَكُمْ تَفْلَحُونَ" صدق الله مولانا العظيم - ثمّ أضافت وهي تعلم بخبرتها ما الذي يفجع أمل - إن خطرت ببالك عائلتك فانه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، أنت في جهاد مقدس وإن شاء الله ستكتبين من الشهداء، ستدخلين أفواجا من عائلتك الجنة، ارتاحي عزيزتي، بعد قليل سنصلّي المغرب ثم ننطلق في الدرس الديني - وأضافت بثقة بدت كبيرة - ستهدئين وسيعود لك اطمئنانك وحماسك للجهاد.

غادرت أم سلمان ولم تعد أمل، كانت أم براء مستلقية في فراشها تتأمل غرفتها الجديدة التي بدت معتّمة بفراش كبير ويابس وخزانة ثياب بدت قديمة ومنضدة صغيرة بمرآة أكل الصدأ أطرافها، بدا لها أثاث البيت غير

منســـجم كأنه التقط من بيوت مختلفة وبقيت تتأمله، كم تحمّل الفراش من أجساد وكم فاضت عليه الرغبات وكم امتلأت الخزانة بقصص وتذكرت كيف كانت أمها تدسّ في كفيها ما تجمعه من مال فتستمتع وهي تشتري من دكاكين مختلفة لتتحصل في النهاية على ملابس متناسقة ولأنها تحب ربيع فقد جمعت كل ما في خزانتها من ثياب داخل ســـلال وتركتها لأمّها لتأخذها إلى بنات خالتها وأصبحت ترتدي الجلابيب الفضفاضة، تذكر أن أمها لم تأخذ ســـلال الثياب إلاّ بعد أســـابيع كانت تعتقد أنّ أملا لن تكون جادّة في التنازل عن ثيابها. تنهدت أمل وهي تحوّل بصـــرها إلى المرآة، شعرت أن هذه المرآة ستكون شاهدة على مرحلة جديدة ستعيشها ولا تدري لماذا انقبض قلبها من شدّة الخوف...

عادت تنشـــج بصـــوت منخفض حتّى لا تســـمعها الأخت الكبرى التي حذّرت الجميع بصـــوته في ظاهره هادئا وفي باطنه تهديد أنّ الســـمع والطاعة واجبان وأن الأســـئلة غير مســـموح بها في هذا البيت للمحافظة على أمن دولة الخلافة.

بعد أيّام قليلة وإثر صلاة العشاء تململت أمّ سلمان في جلستها وانخفض صوتها قليلا وهي تقول:

- تعلمن أنّ الجهاد أنواع، قد يكون بالتمريض كما يكون بشـــد إزر المجاهدين الأبطال وقد اخترنا لكن جهادا يســـمى "أخوات فراش" لا تتجاوز مدّته بضع ساعات مع إخوتنا الأبطال. صُعقت أمل وصمتت أمّ سلمان قليلا كأنها تريد من الفتيات أن يستوعبن ما تقول ثمّ أضافت - هذه إحدى الطرق ليعود أبطالنا إلى محاربة أعداء الإسلام أشدّ قوّة وبأسا.

سألت منال بعفوية كأنّها تعلم أنّ هذا السؤال يجوس داخل كل واحدة:

- ما معنى أخوات فِراش؟

بدا كأنّ هذا السؤال يضع أمّ سلمان في مواجهة مع الفتيات، إذن لتقل وتنتهي منه، فأجابت دفعة واحدة وبشكل قاطع لا يترك المجال لأيّ لُبس:

- يعني جهاد النكاح - وأضافت بسرعة - ستفهمن هذا جيدا لاحقا، لا تستعجلن الأمر سيكون كل شيء على ما يرام.

يا للهول!!

همست أمل في سرّها وشعرت أنها ترتجف.

الآن، تفهم جيّدا معنى أن يهوي إنســان من طابق مرتفع ويتكسّــر مثل آنية زهور، شعرت برغبة شديدة أن تكون وحدها وتبكي. ارتفع صوت أمّ سلمان، كأنّها كانت تعلم ما يدور في ذهن أمل وقالت بصوت حادّ اختفى معه كلّ لين ورقّة:

- هذا الزواج شــرعي وليس فيه لُبس، كان يحدث زمن الفتوحات ولنا في سيرة السَلف الصالح القدوة، سنخصّص له لاحقا درسا خاصّا به.

ثمّ صــفقت بيديها وتلك طريقة تنادي بها الخادمة لتأمرها بأن تعدّ الطاولة للعشاء.

منذ تلك الليلة أصــبحت أمل تنتبه أكثر لكلّ ما تقوم به الأخت الكبرى وقد لاحظت أنّها كانت تأخذ في كلّ مرة واحدة من الفتيات وتعود بها منهكة عند المساء. كانت أمل تتساءل في سرّها "أين تذهب بالفتيات" ولم تكن تدري أن الأسوأ في انتظارها.

20

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري

منتصف النهار و45 دقيقة، (بتوقيت تونس)
في مصحة الهناء، غرفة 216

تكره رائحة الأدوية دائما، وتحبّ السماء الفسيحة والحدائق الجميلة ولأنّ بيتها صغير فقد جعلت في مدخله أصصا فخاريّة زرعت فيها بعض النباتات التي تستمتع بها وهي تنمو وأطلقت على كلّ نبتة اِسما، اختارت للحبق اسم حوريّة وللنعناع اِسم نعمان ولمسك اللّيل اِسم الأسمر وتسمّي بيتها بستانا. كانت أمّها تبتسم من تصرفاتها وربيع يضحك منها باستمرار وهي لا تتوهم كل ذلك.

الآن هي في غرفة رقم 216 ملقاة كغصن كسّرته الريح، النافذة الوحيدة مغلقة وهذا يشعرها أنّ الغرفة صغيرة وضيّقة مثل البلاد. تتحسّس رأسها فتتلمّس الضمّاد القطني يحيط به وكانت رغبتها في البكاء ملحّة غير أنّ ذاكرتها تنتشلها ككل مرّة لا وقت تهدره في البكاء يجب أن تركز على موضوع ابنها حتى يعود إليها. تشعر أن البلاد تحولت إلى سجن كبير أينما توجه بصرها تصطدم بالكتب الصفراء، بإشارات المرور المتربّصة، بوجوه البوليس الممتقعة، كلّ البيوت والشوارع والمحلاّت والمسارح والمساجد مجرّد زنازين. تملّكها شعور بالقهر عندما أطردها أصحاب اللّحى الشعثاء من جامع الفتح هي وصديق ولدها رشاد. هنا استراحت ذاكرتها قليلا ثم عادت للعمل، كانت تجر قدميها خارج الجامع وهي تحاول أن تتماسك هتفت برشاد:

- هيا معي، أعرف كيف سأنتقم لولدي من هؤلاء الجرذان.

أضافت بثقة وهي تحثّه بحركة من يدها على المشي.

- تعال معي وسترى بعينيك!

بدت على يقين من وجهتها، رافقها رشاد وهو لا يدري أين ستذهب به.

كانت ثريّا في مركز الشرطة تنتظر دورها ولا تثبت على حال، تجلس على الكرسي مرّة، تقف أخرى، تنقر قدمها على الأرض بتوتر بيّن ويعنّ لها أن تذهب وتجيء في البهو وأحيانا تتلهّى بمن حولها، هناك اِمرأة تحمل خدوشا في وجهها وكدمة على عينها اليمنى ولسانها لا يكفّ عن شتم زوج متهوّر تشبّهه بالبغل وأحيانا بالكلب، عجوز يحمل حقيبة متآكلة ويلعن كنّته التي طردته من بيته بتواطىء من ابنه العاق، في جانب من البهو شابّ خرج جريحا من خصومة بين حيّين وقد أحاط به أصدقاؤه يهمسون إليه "لا تنس أن تذكر "ولد اللبّة" فهو الذي ضربك بالعصا أوّلا، تذكّر "حربوشة" الذي ألّب عليك أصحابه، هذه فرصته لتنتقم من حمّة "كعابر" لا تنس أنّه دلق عمدا قهوتك منذ أيّام في المقهى وجعل الجميع يسخرون منك، اجعلهم يأتون به ودعه يتعرّض للإهانة والضرب والسجن أيضا". يصمت الجميع فجأة في كل مرة يعبر الرواق عون أمن وتتملكهم رهبة من أن تهوي على أحدهم صفعة بلا مبرر أو ركلة بلا سبب، يحدث هذا كثيرا عندما تتحوّل البلاد إلى سجن كبير عندها يصبح مركز الشرطة بناية تكتظ بالخوف وبالملفّات التي يكسوها الغبار وتعشّش في زواياه الرتيلاء، يستعرض فيه أعوانه سلطتهم وبأسهم على المستضعفين ويطلقون في وجوهم الشتائم المجانيّة ورذاذ البصاق.

تنتظر ثريّا ولا تهدأ لها حركة، يتقطّع قلبها على ولدها وتتألم للإهانة التي لحقتها من السلفيين في جامع الفتح دون أن تظفر منهم برد يثلج صدرها أو خيط يقودها إلى ولدها، لا تزال ثريا قلقة ولا يسعها مكان غير أنها على يقين أن الشرطة ستمسك بهم وستعيد لها ولدها. كان عليها منذ البداية أن تطرق الباب الحقيقي وتأتي إلى هنا. أرادت أن تشعل سيجارة تلمّست بيد مرتعشة عُلبة السجائر داخل حقيبتها وتذكرت أنها في مركز الشرطة، سحبت يدها وابتلعت ريقها فشعرت به مرّا في حلقها.
بدا لها أنّ اِنتظارها قد طال والضجيج من حولها يثير أعصابها وهي لا تهدأ.
اقترب منها رشاد وقد أحسّ بما تعانيه "رفقا بحالك يا طا ثريّا، قد يكون كعادته في تخييم دعوي في أحد الجبال التونسية" ثم أضاف بثقة كبيرة "الشرطة ستعيده حتما ولو كان في بطن حوت". تحب أن تطمئن

أكثر روحها القلقة لذلك تُصَدّق ما يقوله رشاد لكن حدسها الماكر تحرك من مكانه ولا يطمئنها وهذا ما أجّج قلقها. يتحدث الناس من حولها في المدرسة في السوق في الفيسبوك عن أناس كثيرون فقدوا أبناءهم، اكتشفوا أنهم ذهبوا بهم من الجامع إلى جحيم الحرب في سوريا والعراق، زعيمهم الأكبر يقول: "أن يموت ابنك في سورية أفضل من أن يموت هنا. سيكون شهيداً وسيشفع لكم يوم القيامة. قتال بشار الأسد أفضل من البقاء هنا"[9] وعادت تنقر الأرض بقدمها، لن يحصل هذا لها، والشرطة ستعيده لها.

ناداها رئيس مركز الشرطة، دخلت يتبعها رشاد، كانت مرتبكة وأثار الدموع جلية على خديها، وبصوت يفيض بالحزن واللّوعة قالت:

- ولدي يا سيدي، غرّر به بعض المتشدّدين دينيا فأخذوه معهم ولا أدري أين هو الآن، كان يعيش حياة عادية ويتابع دراسته - أضافت بلوعة من يكتشف كارثة - من المفترض أن يجتاز الباكالوريا هذه السنة يا مصيبتي - تنفجر بالبكاء- غادر البيت منذ فترة لم أكن أحسب أنه سيفعلها ويمزّق كبدي، أرجوكم أعيدوه لي إنه ولدي الوحيد...

أضافت بثقة وهي تمسح دموعها المنهمرة:

- أريد أن تعيدوا لي ولدي، حدسي ينبئني أنّ شرا أصابه أعيدوا لي ولدي وبعد ذلك سأقدّم قضية بهؤلاء الأوغاد الذين غسلوا دماغه بأفكارهم المسمومة.

كان صوتها يعلو تدريجيّا فكانت الكلمات تخرج حادّة حينا منهكة حينا آخر قاطعها رئيس مركز الشرطة قائلا:

- أرجو أن توفّري على نفسك كلّ هذا العناء، أحتاج بياناتك الشخصية أولا ثم ما اسم ابنك وكم عمره؟

كفكفت دموعها وهي تطمئن نفسها، "إنّه يحتاج بياناتي ليتصلوا بي حالما يعثرون عليه وهو يسأل عن عمره طبعا يحتاج معلومات عنه يسجّلها حتّى يسهل عليهم إعادته إليّ" قالت من خلال ابتسامة صغيرة:

- هذه بطاقتي الشخصية عليها كل بياناتي، ولدي اسمه ربيع التونسي وعمره تسعة عشر سنة يا سيدي - وعادت للتأكيد وربما لتجلب تعاطف

[9] تناقلت الصحافة هذا التصريح من زعيم الإسلاميين راشد الغنوشي رئيس حزب حركة النهضة الإسلامي ردّا على أب استنجد به وهو عسكري متقاعد ليستعيد ولده الذي أخذوه للقتال في سوريا (من الصحف التي تناقلت هذا التصريح الصحيفة الالكترونية "عرب برس" بتاريخ 18 أوت 2019).

الرجل معها - يدرس في السنة الرابعة من التعليم الثانوي، سيجتاز الباكالوريا هذه السنة.

وأرسلت تنهيدة عميقة قاطعها رئيس المركز ثانية بصوت حازم:

- هل لديك إثبات أن السلفيين هم الذين غرّروا به ليترك البيت؟

تلعثمت وهي تقول:

- نعم، حدثني عبر الهاتف بعد أيام قليلة من مغادرته البيت، قال لي إنّه في منزل أحد أصدقائه منشغلون بالتحضير لامتحاناتهم وقد وجدتُها فرصة حتى يساعدوه في تدارك ما فاته - غصّت بالبكاء – فهمت من حديثه أنه كان معهم، كلمني وكأنه يودّعني ثم انقطعت أخباره نهائيا.

وأخذت في نشيج موجع.

- متى تكلم معك؟

قالت من خلال شهقات متقطّعة:

- يوم الأحد 2 مارس، في حدود العاشرة مساء.

- هل أخبرك أين هو؟ ومن معه؟

- لا لم يخبرني شيئا ولكن عندما كنت أتوسّل إليه أن يعود قال لي لقد اخترتُ طريقي وعندما بدأت أرفع صوتي موضّحة له أنّ من يعتبرهم إخوته في الدين إنّما يتلاعبون به أقفل الخطّ.

كان رئيس المركز يسجّل ما تقول في ورق أمامه وبدأت تستعيد ثقتها بهم سيعيدون لها ولدها وأضافت بصوت هادئ:

- منذ أن تعرّف إليهم تغيّر نسق حياته بل غيّر حياته كلّها وأصبح لا يرافق أحدا سواهم، يفكر مثلهم ويتحدث مثلهم ويلبس مثلهم أيضا...

قاطعها رئيس مركز الشرطة مرة أخرى:

- يا سيدتي، لا يوجد إثبات أنهم غرّروا به وما من حُجّة عليهم، ثم إن ابنك بلغ السن القانوني وبالتالي لا يعتبر الأمر تغريرا به، إنه يتحمّل مسؤوليته الكاملة.

صُعقت، فتغيّرت ملامحها فجأة، عاد الرعب يتحرك في أحشائها وينعكس في نظراتها وهي لا تريد أن تصدّق ما تسمعه في هذه اللحظة:

- ما معنى هذا؟ هل تريد أن تقول إن ولدي لن يعود وأنكم لن تبحثوا عنه؟

أجابها بصوت حاول أن يجعله هادئا حتى لا يثير رعبها أكثر:

- سنسجّل محضرك الآن لكن لا نملك أن نأتي بولدك، في هذه الفترة تصلنا شكاوٍ كثيرة جدا لشباب من الجنسين يأخذون أغلبهم للقتال في سوريا.

ردّت تصرخ وكأنّها فقدت عقلها:

- هل أخذوا ابني للقتال في سوريا؟ هل غسلوا دماغه ليحوّلوه إلى قاتل؟

غضّ رئيس المركز عن صراخها متفهّما صدمتها، ثمّ أجاب بهدوء وكأن الأمر لا يعنيه:

- نحن لا نملك شيئا لك أو لغيرك.

هتفت وبؤبؤ عيناها يكاد يخرج من محجريهما:

- أنت تؤكد لي ما كنت أخشاه، أنت تمثل الدولة التونسية وتعترف لي أن ما يتناقل حولي و في الفايسبوك حقيقة إنهم يأخذون أولادنا للقتال، إذن اذهبوا إلى السلفيين إنهم في العديد من الجوامع يغسلون أدمغتهم، ويسفرونهم إلى بؤر التوتر، اذهبوا إليهم الآن.

أجاب رئيس المركز وهو يعيد إليها بطاقتها الشخصية وقد بدأ يعييه الحديث مع ثريّا:

- نعلم كلّ شيء يا سيّدتي وليس لنا قدرة عليهم، أولئك لن يقدر عليهم سوى الله.

ردّت بتعجب شديد:

- ما معنى هذا يا سيدي؟ هل تريد أن تقول إنّهم أحرار فيما يفعلون - أضافت وهي تلوّح بيدها بصوت حادّ كأنّه يخرج من بين أسنانها - إنّهم يسرقون أولادنا، يرسلونهم إلى الموت، لقد سرقوا منّي ولدي..

عاد رئيس المركز يقاطعها:

- أرجوك يا سيّدتي، إنّي أقدّر وضعك جيّدا ولكن لا أريد أيضا أن أعطيك أملا كاذبا.

صدمها جواب رئيس مركز الشرطة مرّة أخرى فصرخت:

- ما معنى هذا، أنا لا أفهمك..

ردّ ببرود:

- حاولي أن تعثري على ولدك بطريقتك الخاصّة، اسألي رفاقه مثلا، ربّما لم يجتز الحدود بعد وقد يعود إليك.

هالها أن ترى رئيس المركز يسـلّم بعجزه ويترك لها مصـير ولدها فخرج صوتها حادّا يشبه الصراخ:

- لقد ذهبت إليهم في الجامع فطردوني وأنا الآن استنجد بكم أفتخذلونني؟ هذه أوّل حكومة لنا بعد الثورة، انتظرناها لتنقذ البلاد ويجب أن تساعد الناس، هل يعقل أن تتواطؤوا مع الإخوان المجرمين؟ ماذا سأفعل الآن؟

ودون أن تقصد ارتفع صوتها:

- ماذا لو كان ولدك هو الذي فقدته وأخذوه للقتال؟ هل ستتركهم يفعلون بك ذلك؟ هل لأنّي امرأة بلا نفوذ أو واسطة تستخفّ بي ولا تساعدني؟ أم لأنّهم أبناء الشيخ ويذكّرونه بشبابه إذن فهم فوق القانون؟

التفتت إلى رشاد وكأنها لأوّل مرّة تشعر بوجوده في المكتب فوجّهت إليه صراخها:

- هل يعقل هذا الكلام؟ إذن ما دور الأمن إن لم يحمِ حياة أبنائنا ويوقف هذه الجرائم التي تحدث باسم الدين؟

التفتت إلى رئيس المركز ثانية وهي تصرخ:

- صديقته أيضا تدرس معه في نفس المعهد وفي نفس الفصل لم تعد إلى بيتها يبدو أنّه أخذوها إلى الجحيم هي الأخرى.

أمسك رشاد بذراعها محاولا تهدئتها وهو يقول:

- سنعود إليهم في جامع الفتح، سيساعدوننا هذه المرة هوّني عليك قليلا...

قال رئيس مركز الشرطة بصوت قوي وحاد وقد بدأ صبره ينفد:

- أنتم مسؤولون عن أبنائكم، راقبوهم ولا تتركوهم ضحيّة أحد، الآن سجلت محضرك في خصوص غياب ولدك وإن وصلتنا معلومة عنه سنتصل بكِ.

قام رئيس المركز من كرسيّه إشارة إلى انتهاء المقابلة وهو يقول:

- أنا أتفهّم لوعتك يا مدام، لكن أنا صريح معك أيضا، لن نذهب للبحث عن شخص مسؤول عن نفسه وعن اختياراته، أؤكد لك إذا وصلتنا معلومة عنه سنخبرك.

لا تريد أن تصدّق ما يقوله رئيس مركز الشرطة، استغل رشاد حالة الذهول ليقودها بخطى بطيئة خارج المكتب، لا تكاد تستوعب ما سمعته،

في البهو الخارجي ألقت برأســـها على كتفه وأخذت تبكي بكاء شـــديدا، كانت دموعها تنهمر غزيرة وصوت رشاد يصل إليها ضعيفا:

- أنا سأعيد إليك ربيع، ثقي بي سأعيده إليك.

نظرت إليـه من خلال دموعهـا وهي تبتلع ريقـا كـالحنظـل تريـد أن تصدّقه.

فأعاد رشاد قوله:

- نعم ثقي بي، لديّ طريق آخر للوصول إلى ربيع تعالي معي.

21

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري

منتصف النهار و55 دقيقة، (بتوقيت سوريا)
في المستشفى الميداني بمدينة الرقّة

لم يأت الطبيب بعد، لا يملك القدرة إلا على الأنين، يتألم الآن أيضـــا لأنه أصيب في أول معركة عسكرية له، تساءل عن الدافع من جعلهم في أول مواجهة عســـكرية في الصـــفوف الأمامية وهم لم يتعودوا بعد على أجواء المعارك؟ وبسرعة استغفر الله، لا يميل إلى فكرة المؤامرة من أحد القيادات بجعلهم درعا لحماية بقية الفيالق - قال في نفســه – "إن كتب الله لي الحياة سأعود للقتال، وأدعو الله أن أكون من الشهداء".

حملق في أرجاء القبو للمرة الألف وهمس لنفســه "اللّهم رحمتك، أرجو ألا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت".

لا يدري أي ذنب اقترفه حتى تأخذه الذكريات إلى بيته، ولعن نفسه..

كانت غرفته مزدانة بصـــور مختلفة بعضـــها له في مناســـبات مختلفة وأخرى للاعبه المفضل ميسي، بجانبها صورة للملاكم الأسطورة كلاي، غير بعيد عنها صـورة لمغني الراب التونســي الشـهير كافون، كان يحب في كافون أغانيه المنفلتة التي تنهل من واقع شـــباب رمت به الثورة إلى الإحباط واليأس والإدمان على الخمور والحشـــيش والعربدة، يروقه من كافون أيضـــا شـــعره الطويل المنفوش الذي يميزه، كان يحب أن يطيل شعره ويجعله منفوشا غير أن أمه لم تحب ذلك.

ذات يوم، بعد درس ديني في جامع الحي، عاد للبيت وبيد ثابتة أزاح كل الصـور المعلّقة في غرفته وثبّت في قلبه آيات من الذكر الحكيم "وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَـهُ فَإِنَّمَا حِسَـــابُهُ عِنْدَ رَبِهِ إِنَـهُ لَا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ". ظلّ الشَّـــعر الطويل يثير اهتمامه، وعندما كان على حدود الدولة الإسـلامية راقه أن يرى المقاتلين بشـعورهم الطويلة المتهدّلة على

أكتافهم وزيهم العسكري المميز وأسلحة الكلاشينكوف في أيديهم أو معلقة على رقابهم، يعلم أنّ مظهرهم يثير لدى العوام الخوف لكن هو يـأمِن لهم ويشعر بالفخر لأنه أصبح منهم، منذ أن غادر بيته لم يحلق شعره ويستمتع به يطول، يشعره أنه حقا من رجال الدولة الإسلامية الأقوياء. يتذكر جيدا أن قلبه الصـغير اهتز لصـورة أبي بكر البغدادي خليفة المؤمنين عندما أعلن مبايعته في جامع الفتح على السمع والطاعة، يذكّره حاجباه الغليظان بأب لم يستمتع بأبوته، امتقع وجهه وتساءل في سره ككل مرة "إن كان أبي مسلما صادقا سيتفخر بي فقد صرتُ شابا صالحا اختار طريق السلف الصالح ويقاتل من أجل الدولة الإسلاميّة"، كلّما تذكّر والده تتملّكه مشاعر غريبة تجاهه ولا يفهم هل هو الخوف منه أم الحنين إليه لا يدري هل يحق لأبيه أن يعتز به لأنه ابنه أو أن يخجل هو منه لأنّه أبوه.

ربّما لو علم ربيع رأي والده في دولة الخلافة لفهم كيف ستكون علاقة كلّ واحد منهما بالآخر.

تبدّدت صورة أبيه من مخيّلته وحلّت مكانها صورة أمّه فأبعدها سريعا، إنّها على ضلالة. يتذكر جيّدا أنّها لم تكن أبدا سعيدة بإتّباعه طريق السلّف الصـالح، تمتم وهو يغمض عينيه محاولا أن ينام حتّى تتلاشـى صـورتها وينسـى آلام ذراعه "وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَـلَامًا" ومثل كل مرّة يردّد ما تعلّمه من الإخوة حتّى لا يلين قلبه "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق".

عندما كان في تونس التفّ حوله الإخوان الجدد الذين حلّوا محلّ أصدقائه لم يتركوه وحيدا، ما إن تنتهي حصص الدراسة حتى يتجه إلى مجالسهم التي تكون عادة في الجامع وأحيانا يخرجون في نزهات جماعيّة تحولت لاحقا إلى مخيمات دعوية، سـدّوا كلّ فراغ قد يكون في حياته بأحاديثهم التي تأخذه إلى زمن السـلف الصـالح وكان مسـتمتعا بحياته الجديدة.

في أوقات فراغه القليلة يفتح الفايسـبوك، كان سـعيدا عندما حذف صفحته القديمة وكأنّه يحذف جزءا من حياة لم تعد تليق به وأصبحت له حياة أخرى اختار لها اسم "ربيع الإسلام" وراية العُقاب صورة بروفايل، يفتح دائما روابط تطل على دولة الخلافة أو بلاد الجنة كما يحلو له الحديث عنها، ويستمتع بفيديوهات تصل من أرض المعركة في العراق

وســوريا لجنود الخلافة الذين أخلصـــوا لله فيها نداءات متكررة للالتحاق بهم من أجل نصـــرة دين الله "تعالوا معنا"، "نحن على أطراف الجنّة"، "نحن قريبون من الحور العين"، "هنا الســعادة الحقيقيّة..."يهتز قلبه لتلك النداءات ويزداد حماسـة خاصـة للنشـيد الشـهير" أمتي قد لاح فجر، دولة الإسلام قامت".

كان يحلم أن يكون يوما في الرقّة وقد تحقق حلمه وأصـــبح يعيش فيها ومنها نشـــر بعض الفيديوهات مثل التي كان يتلقّاها وهو في تونس فيهزه الشوق للنفير وقد أصبح الآن على خطوة منه كما نشر بعض الصور وهو ملثم براية العُقاب وحاضنا الكلاشينكوف. كانت سعادته كبيرة عندما نزّل رابط لصـــور ســـبع جنود من دولة الخلافة أدبروا عن القتال فتمّ تقييدهم ورميهم في الماء المُغليّ، كان يراهم يتقافزون في الماء من شـدة الحرارة ورغم توسلاتهم وصراخهم لم يبال بهم أحد، بسرعة كانت جلودهم تسلخ عن عظامهم، وأصـــوات إخوته في الله تدوي حولهم "تكبير"...ظلوا في حوض ســـاخن جدا ويُصـــب عليهم الماء المُغلي حتى خفتت أصـــواتهم وخمدت حركاتهم ثم ردموا لاحقا في حفرة في ساحة المعسكر حتى يظلوا درسا للجميع. انتشرت هذه الحادثة في الفايسبوك وكان ربيع مصدوما من إدبارهم ويرى أن رميهم في الماء المُغلي أفضـــل طريقة ليكونوا عبرة لغيرهم وردد قوله تعالى "مَنْ يُطِعْ اللهَ وَالرَسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهُمْ مِنَ النَبِيينَ وَالصَدّقِيينَ وَالشُهَدَاءِ وَالصَالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا".

في مســـاء ذلك اليوم الذي تمّ فيه ردم المقاتلين دون أن يُصـــلّى عليهم، كان التكبير شـــديدا في الطرف الآخر من المدينة حيث تجمّع حشـــد في دوار النعيم، كان ربيع سيشـعر بالحسـرة لو فاته ذبح الصـحفي الفرنسـي الذي كان رهينة في قبضـة قُواد الدولة. في اللحظات الأخيرة اسـتطاع أن يلتحق بالحفل البهيج ومن ســـطح بناية قريبة رأى المشـــهد كاملا، جلس الصـــحفي الكافر على ركبتيه في بدلة برتقالية وأحد أبطال الدولة بلباســـه الأسود وقد ربط رأسه براية العُقاب يقف بجواره ثابتا، اشتد الصراخ من حوله "تكبير" حتى أنه لم يســـمع جيدا القائد الذي قرأ على الجميع قرار إعدام الصـحفي الذي وضـعوه في حالة سـجود ثم هوى عليه الملثم البطل الشجاع بسيفه فكانت الضربة شديدة على عنق الصحفي وبسرعة انفصل

رأسه وتدحرج بعيدا عن جسمه وتدفق بلعوم دم انتشر رذاذه على الصف الأول من المتابعين للحدث. كان الحماس على أشـده والهتاف شـديدا "الله أكبر" يعلو في سماء دوار النعيم.

كان يوما رائعا من أيام مدينة الرقة، وتسـاءل ربيع في سـره قبل أن تأخذه غيبوبة لا يعرف متى يستيقظ منها "هل سيأتي الطبيب هذا المساء؟"

22

في البيت الكبير تمرّ الأيّام رتيبة، تقضـــي أمل يومها بين الصـــلاة والدروس الدينيّة، الأخت الكبرى تشرف على كل تفاصيل البيت وتسعى لتوفير الراحة لساكناته لذلك بدت مفرطة في استغلال الخادم وتكليفها بكل شـيء، كما كانت تحذر الفتيات من الإختلاط بها ولتبرير المعاملة المهينة لها كانت الأخت الكبرى تحتج قائلة:

- إنّها مجرّد سبيّة فليبينية[10] من غنائم الحرب ثمّ إنّها كافرة.

وتضيف بابتسامة فخر:

- أما أنتن فإنكن مسلمات مجاهدات".

كانت أمل تبدو حزينة لحال الخادم حتى أنها تجرأت مرة وسألت الأخت الكبرى:

- الإسلام دين مساواة فلماذا أراها في مرتبة أقلّ، تستيقظ قبلنا وتقضي كامل اليوم في شؤون البيت، لا ترتاح أبدا وتأكل من بقايا طعامنا؟

ردّت الأخت الكبرى وقد اِتّسعت عيناها:

- طبعا الإسلام دين مساواة وعدل غير أنّها كافرة وقد جاءت خصّيصا بعَقد عمل لتعمل في مثل هذا العمل في ليبيا وتمّ سبيها من هناك ثمّ إنّنا لا نعرف لها دينا أصلا، إيّاكم والرأفة بها.

لم تفهم أمل كيف أنّ الإسلام دين المساواة والعدل وفي دولته يعامل من يختلف عنه بهذا الشكل؟

اِكتشفت أنّ الأجوبة الجاهزة التي كانت تثق بها قد بدأت تنهار تدرجيا، بدأت الأسئلة تلحّ عليها وشعرت أنها تتوغل في نفق.

مثل كل الفتيات تهاب أمل الأخت الكبرى ولأن السمع والطاعة واجبان في نظام الدولة الإســلامية لم تكن تطرح الأســئلة التي تؤرقها على أحد، كانت الأخت الكبرى عينها على الجميع لذلك لم يكن هناك تواصـل ممكن بين الفتيات في البيت، كلّ كلمة محسوبة وكلّ حركة مراقبة وعين الأخت الكبرى لا تغفل عن أحد.

[10] من القصـص التي تم تداولها في الصـحافة عن ضـحايا لداعش هي قصـة فتاة فليبية تدعى فيرن كانت تشـتغل محاضـرة في كلية التمريض في جامعة سـرت بليبيا بعقد عمل وقع اختطافها سـنة 2015 وأخذها الدواعش سـبية حرب وتم تحريرها سـنة 2016 (عن الموقع الالكترونية "العربي الجديد" بتاريخ 9 أفريل 2019).

إلى أن أتى يوم، طلبت الأخت الكبرى من أمل وفتاتين أخريين مرافقتها مع حارسين إلى خارج البيت لشأن مّا. في الطريق نزلت الأخت الكبرى من السيّارة رفقة الفتيات الثلاث ومشت بهنّ في شارع صغير يؤدّي إلى ساحة كبيرة علمت فيما بعد أنّها دوّار النعيم، كان هناك حشد من الناس قد تحلقوا حول شـــيء، تمتمت الأخت الكبرى لأحد الحراس فقادهن جميعا إلى الصف الأول وأتى بكيس بدا ثقيلا يجره على الأرض حتى وصل به إلى الأخت الكبرى التي فتحته وهي تبسمل، كان الكيس ممتلئا حجارة ولم تفهم أمل شيئا.

طلع شيخ إلى المنصّة الصغيرة وسط الساحة افتتح كلمته بالصلاة والسلام على النبيّ الكريم ما كاد ينهي خطبته القصيرة حتّى أتوا بامرأة يجرّونها على الأرض ملتفّة في السواد فلا يظهر منها شـــيء وألقوا بها وســـط الميدان، وبنبرة حادّة أمرت الأخت الكبرى الفتيات أن يلتقطن الحجارة من الكيس ويتأهبن، أخذ صراخ المرأة الملقاة في نصف حفرة وسط ميدان النعيم يختلط بصيحات التكبير وبإشارة من يد الشيخ بدأت الحجارة تنهال على المرأة التي تكوّرت على نفسها وغصّت بصراخها. كانت الفتيات مندهشـــات لكن واجب الطّاعة يفرض عليهنّ أن يرجمن المرأة. في الطرف الآخر من الشارع وفوق سطح احدى العمارات كان ربيع يتابع نفس المشهد وعندما بدأوا في رجم المرأة نزل بسرعة وحاول ان يتسرب بين الصفوف، مر قريبا من الأخت الكبرى ومرافقيها ولم يكن يشغله غير نصيبه من الحجارة يلقيها على المرأة المرجومة.

في البيت قالت الأخت الكبرى بأن زوج تلك المرأة شك في وفائها لذلك تستحق الرجم، وأضافت بلهجة حادة:

- الإسلام لا يسامح أبدا من يتعدّى حدود الله.

كانت أمل لا تزال ترتجف من الخوف، كانت ترتعش من شدة الخوف ولم تستطع أن تنسى الأجواء المشحونة بالتوتّر والعنف وصرخات التكبير المدويّة، كانت الحجارة تتساقط على المرأة المسكينة التي تكوّرت حول نفسها وتقطّع صراخها حتّى لم يعد يصلها وتدريجيا سكنت حركة جسدها حتى أضحت كتلة سوداء هامدة فاضت منها بقع دم كثيرة.

رافقها صـــراخ المرأة إلى غرفتها وحوّل ليلها إلى كوابيس متلاحقة، تذكر أمل انها قرأت رواية "مرجومة" للروائي الإيراني فريدون

صــاحبجام مترجمة إلى العربية (1) وصــعقت لفظاعة الدســائس ومقدار الظلم الذي كان منتشــرا على صــفحات الرواية حتى انها لم ترغب لاحقا في مشــاهدة الرواية التي تحولت إلى فيلم، لم ترغب في المزيد من العنف المجاني المســلط على المرأة ولم يكن يخطر ببالها انها ســتشــهد بنفســها كرنفال يحتفي بتعنيف المرأة ويســـتبيح قتلها بقســـوة لا مثيل لها لمجرد الشبهة.

كانت أمل ترتعش وهي تردّد قول الرســـول الكريم "إنّما بُعثتُ لأتمّم مكارم الأخلاق". عندما خلت إلى نفسها تساءلت:

- هل يسمح الرسول أن تقتل امرأة لمجرّد أن زوجها شكّ في سيرتها؟

قضــت أمل ليلتها تبكي بكاء مريرا لم تكن تدري هل كانت تبكي المرأة المرجومة أم تبكي ما ستفعله بها الأخت الكبرى بعد ذلك؟

---

(1) رواية "المرجومة" للروائي الإيراني/ الفرنسي فريدون صبحجام ترجمة التونسي وليد سليمان وقدم لها السعودي عبد الله ثابت ونشرت عن دار مسكلياني بتونس سنة 2015. موضوع الرواية عن قصة حقيقية تتعلق برجم امرأة حتى الموت.

23

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري

الساعة الواحدة و10 دقائق بعد الظهر (بتوقيت تونس)
في مصحّة الهناء الغرفة 216

بيد مرتعشة تحسّست الجرح في رأسها، لم تمت بعد.

مازالت مصـــرة ســـتخبر رئيس الدولة بكلّ ما يحدث، شـــيء يتململ داخلها، يتحرّك في صـــدرها، ينطّ في عقلها ويرتبط بولدها ربيع، لا تقدر أن تفكّر بعيدا عنـه.. والذاكرة مثل هراوة البوليس تهوي عليها كل حين فتأتي لها بكل اللحظات القاسـية التي عاشـتها وتسـرع بها في اتجاه خاتمة لا تدريها.

همست بينها وبين نفسها ما أقسى هذا اليوم، متى ينتهي؟

كم تتمنى أن يكون كل هذا كابوســـا أو مجرد أوهام، بصـــعوبة ترفع جفنيها، تحب أن تفتح عينيها فتجد نفسها في بيتها يضج بضحكات ولدها، تريد الآن أن تغادر المصحة وتبحث عن ولدها.

تمنّت لو يفتح الباب الآن، إحسـاسـها بالوهن يشـعرها بتأنيب الضـمير كانت تهمس لنفسـها بصـوت مضـطرب هل حقا أنا التي تركته ينفلت من بين يديّ ولم أســـتطع المحافظة عليه؟ أيتها الذاكرة رفقا بي، لا أذكر أني غفلت عنه يوما كيف حدث كل هذا؟ كنت أحلم بوصـــوله للباكالوريا وها هو يصـــل وبدل أن ينشـــغل بدراســـته يشـــغلني عنه ولا أدري أيّ أرض ابتلعته؟

كنتُ أدخل إلى غرفته على أطراف أصـابع قدمي حتّى لا أشـوّش على تركيزه في دروس الرياضـــيات أو الفيزياء وبيدي قهوة شـــوكولا دافئة يحبها، الآن أخرج للبحث عنه ولهيب القلق يشـــتعل في وجداني وأتوه، لماذا تفعل بي هذا يا ربيع؟

كان حضور رشاد مهما في تلك الفترة بعد أن غادرا مركز الأمن عادت إلى بيتها تجرّ الخيبة وتتلمظ المرارة، في ذلك المسـاء سـمعت طرقا خفيفا

على باب بيتها، هبّت ثريا بسرعة فتحت الباب ثم تراجعت خطوة إلى الوراء وسألته بلهفة:

- هل من جديد؟

تقدّم رشاد خطوات صغيرة صامتا، ألقت ثريّا بنفسها على الأريكة وهي تتنهّد:

- يبدو أنّي فقدتُ ربيعا إلى الأبد، قلبي يخبرني أنّ شرّا أصابه.

ردّ رشاد بصوت خافت:

- أنا آسف يا طا، عدتُ بمفردي إلى جامع الفتح، المقرّ الرئيسيّ للجماعة في العاصمة غير أنّي وجدتُ كل الأبواب موصدة في وجهي، كل أجوبتهم جاهزة وهي أن لا علم لهم بأي شيء - أضاف وهو يشدّ قبضته بحنق - أنا متأكد أنّهم يتعمّدون الإنكار، أنا متأكّد أنّهم يعرفون كلّ شيء.

أطلقت زفرة طويلة وقالت:

- يا إلهي، أيّ قلب من حجر هو قلبك يا ربيع، كيف هُنت عليك يا ولدي لتفعل بي كلّ هذا؟

التفتت إلى رشاد وقالت بصوت وهن:

- هل من خبر عن أمل؟

أجاب دون أن يرفع بصره إليها:

- لا

غمغمت:

- لا حول ولا قوّة إلا بالله..

صمت ثقيل ساد الصالون، الهواجس تتصارع داخل ثريّا...

- لو أن أباه معي في هذه المحنة لانتزع معلومات عن ولدنا وأعاده إليّ؟

لم تكن تدري أنّها ستحتاجه بشدّة، تزوّجته لأنّها شعرت أنّها يجب أن تتزوج وسافر إلى الخليج من أجل العمل، تبدو حياته مريحة وناعمة يقول إنّه يتحمّل الغربة من أجل عائلته وتفهم ثريا جيّدا أنّه يقدّم تبريرات لا تقنعها لأنه يهرب من حياة زوجية لا يتحمّل ضغوطاتها ومن مسؤوليات أبوية لا يستطيع مواجهتها لذلك يبدو سعيدا بحريته في بلاد أخرى، يرسل الأموال والهدايا وتكون لقاءاته بعائلته عبر السكايب متباعدة وسريعة.

ربّما خطؤها أيضـــا أنّها امرأة لا تطيق زوجا يتلمّظ عند الأكل ويلقي بحذائه في أيّ مكان ويســـهر في المقهى حتّى آخر الليل ويتجاهلها دائما، لذلك قبلت بتركه واعتبرت هجرته حلا يناسب الجميع.

ارتفع صوت رشاد يقطع شرودها:

- علمتُ أنّ عائلات كثيرة أعلنت عن وقفة احتجاجية لأنّه وقع تســـفير أبنائها وبناتها إلى القتال، شباب كثير أخذوهم من معاهدهم من كلياتهم من ملاعبهم من بيوتهم إلى الجوامع ومنها إلى ســـاحات القتال في ســـوريا ســـافروا بهم عبر ليبيا وتركيا ولأنّ حكومة الترويكا في تونس أغلقت سـفارة سـوريا (1) سـيقومون بهذه الوقفة الاحتجاجيّة أمام سـفارتي ليبيا وتركيا.

قالت بصوت خافت ونبرة مستسلمة:

- هل تعتقد انه فعلا ذهب إلى سوريا للقتال يا رشاد؟

رد الشاب وهو ينظر إليها مندهشا:

- رئيس المركز هو الذي قال لنا ذلك يا طا، هل نسيتِ؟.

ردت وهي تتهاوى وتلقي بنفسها على الأريكة:

-لا، لم أنس ما قاله ولكن عقلي لا يصدق

وأجهشت بالبكاء.

---

[1]) أعلن الرئيس التونســـي المؤقت المنصـــف المرزوقي في بيان نشـــره على صـــفحته الرســـمية في الفايســـبوك يوم 4 فيفري 2012 "الشـــروع في الاجراءات العملية والترتيبية لطرد الســـفير الســـوري من تونس وسـحب أي اعتراف بالنظام الحاكم في دمشـق"، يتصـدر سـدّة الحكم في تونس في تلك الفترة حكم الترويكا بقيادة حزب حركة النهضة الإسلامي.

كأنّه يوم الحشر في شارع محمّد الخامس، المسافة الفاصلة بين سفارتي تركيا وليبيا غصّت بالمحتجّين، جاؤوا من أحياء كثيرة في العاصمة ومن مدن مختلفة في البلاد، ساندتهم منظّمات حقوقيّة وبعض أحزاب المعارضة. الحشود ضخمة رفعت أصواتها بالشعارات وحملت لافتات كبيرة تندّد بما يحاك في جوامع عديدة تستقطب أبناءهم وتغسل أدمغتهم ليتحوّلوا عند أصحاب اللّحى إلى جهاديّين وعند الأهالي إلى قتلة لا يعودون، ينتهون في الغالب جثثا ملقاة في شوارع سوريا يحوم حولها الذباب الأزرق وتتشممها الكلاب..

هتف رشاد لثريا وأمها:

- يبدو أنّ ظاهرة تسفير الشباب إلى ساحات الحرب قد تحوّل إلى طاعون فتك بالكثير.

من يعرف ثريا يمكن أن يتبيّن صوتها الملتاع في زحمة الأصوات الصارخة، صوت غاضب ومضطرب وحزين ويائس. يجب أن تتحرّك الحكومة وتناصرهم في محنتهم وتُوقف هذا النزيف الذي ينزّ من قلوب الأمّهات والآباء ويزرع الخوف لدى الجميع، هكذا كانوا يتبادلون الحديث بأصوات حزينة..

يضرب أحدهم كفّا بكفّ:

- أيّ دين يرضى هذا المصير لأكبادنا؟

- أيّ ربّ يقبل أن يتحوّل الشباب إلى قرابين له؟

كانت الحشود متراصّة، ثمّة اِمرأة تتمرّغ على عتبة السفارة تصرخ في حالة هستيريّة "أريد ولدي الآن، هاتوا لي ولدي الآن"، عجوز يرتعش صوته في بكاء متقطّع "أخذوا حفيدتي، أخذوا الغالية"..

رأت ثريّا امرأة بدوية تلطم وجهها بقوّة وتصرخ وقد انزاح عن رأسها اللّحاف فبدا شعرها منفوشا وبسرعة اِلتفّ حولها بعضهم يشدّون يديها، رأت أخرى مكلومة بشعر أصفر يصل إلى كتفيها ونظارات سوداء تخفي بها نصف وجهها، بدا لها أن الطاعون قد جرف من كل شرائح المجتمع، في غفلة سُرقت أكبادهم وألقيت في حرب يصعب العودة منها. هناك أيضا صحافيون وسياسيون وباعة السجائر المهرّبة واللوز المقشّر وأعواد الكاكي وأيضا باعة الأعلام التونسية وأعلام النوادي الرياضيّة الشهيرة والمتحرّشون والمتسوّلون وأطفال الشوارع...

الآن وهي وسط الجموع المكلومة صدّقت أنّ غياب ابنها الوحيد لم يكن كالعادة غيابا مؤقّتا، تأخرت كثيرا في معرفة الحقيقة، فاتها أن تصده وهو يتحول مثل غريغور سامسا إلى حشرة عملاقة (1) بلباس أفغاني أبيض.

شعرت ثريّا أنّ الحاضرين يقاسمونها فاجعتها في ربيع، لكن لم يخفّف ذلك من لوعتها، لم تخمد النار التي تستعر داخلها. كالمجنونة وسط الحشود لا يتوقّف بصرها، تحوّله هنا وهناك كأنّها تبحث عن شيء محدّد حتّى وقع نظرها على أمّ أمل، كانت المسكينة تهتف بحرقة بالشعارات التي رفعتها الحشود، أرادت أن تذهب إليها وتلقي بنفسها في حضنها وخشيت من ردّة فعلها، عائلة أمل تحمّل ولدها ربيعا مسؤوليّة مصير اِبنتها أمل، يعتقدون أنّه هو الذي غرّر بها وأخذها معه إلى الموت. كانت ثريّا تحبّ أن تقاسمهم اللّوعة وتخبرهم

(1) في إشارة الى بطل رواية "التحول" لفرانز كافكا.

أنّ الجميع ضحيّة مجرم واحد هو المسؤول الكبير يعرفونه ولا يسمونه هو سبب هذا الطاعون الذي أصاب الشباب وأخذهم لحرب لا تعنيهم.
قنوات تلفزيونية تتخلل الحشود وتلتقط تصريحات لبعض العائلات المكلومة، اقتربت كاميرا إحداها من عائلة أمل مدّ أبوها يده للكاميرا وحوّلها عنه، لا كلام لديه عن هذا العار الذي ألحقته به ابنته، مدّت زوجته أيضا يدها تزيح عنها الكاميرا واضعة يدها الأخرى على وجهها وهي تخجل أن يراها أهلها وجيرانها في هذا الوضع المهين.
وسط الحشود تقدّمت من أمّ أمل امرأة بملامح هادئة وهي تقول:
- أنا كاتبة، أشتغل هذه الأيام على رواية تتحدث عما يفعله الإسلام السياسي بالمجتمع التونسي، لو سمحتِ أريد أن أتحدث إليك قليلا.
سلطت عليها أمّ أمل نظرة متفحصة وبسرعة حوّلت البصر عنها وهي تتلمّس النظّارة السوداء التي كانت تضعها على عينيها وتقول:
- إن كنت لم أسمح بتصريح تلفزي هل سأسمح أن تفضحي ابنتي في روايتك؟

اعتذرت الكاتبة بابتسامة هادئة وتقدّمت وسط الحشود الغاضبة تتأمل الملتاعين تلتقط ملامحهم وصرخاتهم واستغاثاتهم وتدونّها في كنش صغير، تكتب الشعارات التي يرفعونها وتسجل ملامحهم اليائسة، تتقدم من العائلات الموجوعة وتتجاذب معهم أطراف الحديث حول مصيبتهم، ثمة من يتجاوب معها ويحدثها ثم ينشغل عنها ويرفع صوته بالشعارات "يا حكومة العار، رجّعولنا أولادنا".

اقتربت المرأة الكاتبة من ثريا وهي ملقاة على الأرض فبدت كومة من الأحزان. بعد كلمات قليلة أبدت فيها المرأة اهتمامها بالوقفة الاحتجاجية وتجاوبها مع مأساة العائلات قالت لثريا:

- أنا كاتبة، أريد أن أكتب رواية عن كل ما يحدث، لا أحب لهذا الحدث أن يكون عابرا لذلك جئت أستلهم أحداثا وشخوصا لروايتي، لو سمحتِ هل يمكن أن أتحدث إليك قليلا.

قالت ثريا وهي تكفكف دموعها:

- نعم، يجب أن يكتب أحدهم كل هذه الجرائم التي تحدث في بلادنا باسم الدين.

ابتسمت ثريّا واعتبرت الكاتبة ذلك إشارة ايجابيّة فردت:

- إن سمحتِ أحب أن نلتقي في موعد لاحق فتحدّثيني قليلا عن هذه التجربة القاسية، ما الذي حدث لولدك حتى يجرفه هذا التيار؟ كيف تغيّر وترك حياته خلفه؟ كيف تعيشين غياب ابنك؟ هذه مرحلة صعبة تمر بها بلادنا لذلك أسئلتي كثيرة..

ردت ثريا:

- نعم، نلتقي ولتكتبيها، يجب أن نرفع أصواتنا بكل الطرق حتى يعيدوا إلينا أكبادنا، أكتبيها حتى لا ننسى.

الهرج حولهما شديد وأصوات الاحتجاجات مرتفعة، سجّلت الكاتبة رقم هاتف ثريا على عجل وأضافت بابتسامة هادئة:

- أنا فاطمة بن محمود، نعم أحب أن أكتب حتى لا ننسى.

وابتلعها الزحام.

لا تدري ثريا كم من الوقت استطاعت أنّ تصمد في هذا اليوم العصيب لأنّها لم تعد تقوى على حمل نفسها وبدا لها أن الأرض تدور بها، البناءات

من حولها تدور، الوجوه التي تحيط بها تدور، الهتافات الممزوجة بالصراخ والعويل تدور.. ثم تراخت وسقطت.

رائحة عطر رخيص اِنســـابت في تجاويف أنفها، عندما فتحت عينيها وجالت ببصـــرها بين الوجوه التي تحيط بها تذكرت فجيعتها ووجدت نفسها تدخل في نوبة بكاء هستيرية.

عَلِمت ثريا أنّ وقفة احتجاجية أخرى ستكون أمام المجلس التأسيسي، منظمات عديدة من المجتمع المدني تبنّت النار التي تشـــتعل في أفئدة العائلات المكلومة.

تساءلت هل سيعود ربيع حيّا؟

24

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري

الساعة الوحدة و15 دقيقة، بعد الظهر (بتوقيت سوريا)
في المستشفى الميداني بمدينة الرقة

- لا يمكن لأخوتي أن يتركوني، لا يعقل أن ينساني أبو شدّاد؟
يبتلع ريقه بصعوبة ويشعر بجرح في كبريائه.
كان لا يحب أن يخذل شيخه ويسعى في كل مناسبة أن يثبت له أنه أفضل من الجميع يذكر ذلك في مدينة الرقة بعد أن خطب أبو شدّاد فيهم فقال:
- لا تسامح على من يعترض على دولة الخلافة، شيخنا ابن باز واضح في قوله إنّ الإسلام يأمر بالعقيدة الصالحة ويفرضها على الناس ولا يجعل الإنسان حرّا يختار ما يشاء من الأديان، هذا يعني أنّ حريّة المعتقد فكرة خاطئة، الإسلام يوجب توحيد الله والإخلاص للرسول صلّى الله عليه وسلّم. لذلك يجب أن تنصاعوا للأوامر التي صدرت الآن.
استوى ربيع واقفا، بسرعة التقط رشّاشه مثل بقيّة أفراد المجموعة والتحقوا بسيّارة رباعيّة الدفع، لدى القائد العسكري كل المعلومات التي جمعتها منذ أيام هيئة الأمن في دولة الخلافة وحانت ساعة الهجوم المباغت على الهدف، شعر ربيع بحماس شديد وإثارة لذيذة، اقتربوا من الهدف وانتشروا حوله، بعضهم صعد أسطح المنازل المحاذية له ليتم تطويق البيت جيدا وبسرعة اندفعت أسلحة الكلاشينكوف في عملها تطلق الرصاص في آن واحد فكان يسمع لصوتها هديرا له وقع مثير على جنود الدولة ومرعب على غيرهم، اندفع ربيع إلى عتبة البيت، لمح سكانه في حالة فزع شديد يصرخون حينا ويتوسلون حينا آخر لكن لم يهتم لهم أحد. انصب رصاص الكلاشيكوف على أجسادهم التي كانت تسقط سريعا وتفور الدماء غزيرة من الثقوب التي يخلفها حتى هدأت الحركة في البيت تماما.

ظل جنود الدولة ملتصـــقين بجدران البيت، يتحركون بخطى قصـــيرة ويطلون بحذر شـديد على غرفه تسـبقهم رشـاشـاتهم حتى تأكدوا أن جميع سكانه قد قتلوا، عندها أطلق أحدهم قهقهة عالية وهو يقول:

- حمدا لله، العملية ناجحة، الله أكبر.

هتف الجميع من بعده مرات متتالية "تكبير، تكبير، تكبير".

كانت المرة الأولى التي يشـارك فيها ربيع في عملية مداهمة عسـكرية في مدينة الرقة ضمن مجموعة "الشوكة"، سعادته بالمشاركة طغت على مشـــاعر الخوف المشـــوب بالرهبة وهو يرى عن قرب جثثا مضـــرّجة بدمائها. كانت صيحات التكبير التي يطلقها الجنود تجعلهم سعداء.

في مساء ذلك اليوم أثناء اجتماعهم لتقييم عملية المداهمة العسكرية عَلم أن ســكان البيت الذي اســتهدفته الجماعة يشــاع انهم يعارضــون دولة الخلافة، تذكر ربيع أنه لمح جثة طفلين في بركة من الدماء وبســـرعة أشاح ذاكرته عنهما وهمس لنفسه "الطفل يفكر مثل والديه أيضا"، صاح قائد العملية العســكرية وهو نفســه الذي ألقى الدرس الديني بعد الاجتماع مشيرا بالكلاشينكوف الذي كان في يده:

- كلّ اعتراض على دولة الخلافة هو اعتراض على الإســـلام. يقول تعالى في كتابه الكريم "وَاعْبدُوا اللهَ وَلاَ تُشْـرِكُوا بِهِ شَـيْئا" مَنْ يعارضـنا فهو مرتدّ.

هتف أبو شدّاد بصوت مرتفع:

- كلّ من يعترض على الإسلام مكانه النار.

رد ربيع بأحد الشعارات التي حفظها:

- الدم الدم والهدم الهدم والعدوّ يدفع الثمن.

ردّد الجميع بصـــوت واحد "تكبير" عالية ومدويّة واســـتفاق ربيع من نومه ليجد نفســه مُلقى في القبو الرطب وشــعر برغبة شــديدة في البكاء لحالة الوهن التي هو عليها واشتعل شوقه لأرض المعركة، تمنّى لو أمكنه فعلا أن ينهض اللّحظة فيتقلّد رشّــاشــه ويوجه فوهته على كلّ من يرفض دولة الخلافة وأن يثقب برصــاصــه كلّ من يخطر بباله الاعتراض على الإسلام دين الرحمة والمحبّة والسّلام.

تذكّر ربيع بعض الحصص التي حضرها بشكل متقطّع في مادّة الفلسفة قبل أن ينقطع عن الدراسة نهائيّا كانت الأستاذة تتحدّث عن حريّة الإنسان والدولة الديمقراطيّة ونسـبيّة الأخلاق وتتجاهل في كلّ أطروحاتها مواقف الدين بل تردّ على كلّ سؤال يخصّ الدين بأنّه خارج الموضـوع، كأنّ كلّ أســـئلة الدين ومواقفه بلا قيمة. لو كانت أمامه الآن لأطلق عليها كلّ الرصاص المحشوّ في خزنة الكلاشينكوف حتّى تعلم أنّ الإسلام لا يمكن أن يكون خارج أيّ موضوع.

25

بعد صـــلاة الفجر عادت أمل للنوم، فجأة ارتفع صـــراخ شـــديد فاستيقظت مذعورة، كان الصـراخ يشـتد في البيت، اندفعت بسـرعة إلى الصـالون فوجدت كلّ الأخوات قد سبقنها إلى هناك والأخت الكبرى تهدئ من روع الجميع بابتسامة صفراء وهي تقول:

- لا شـــيء، الوضـــع تحت الســـيطرة يا بناتي، الحارس يعاقب أختنا المغربية أم حنيفة فقد تخلفت عن صـلاة الفجر هذا الصـباح، وهذا أمر لا يُغتفر.

أشارت بيدها لتعود كل أخت إلى غرفتها وهي تقول:

- درس السيرة النبوية ستقدمه اليوم أختنا أم عُبيدة.

ثم نادت على أمل وقالت لها:

- أريدك في أمر هامّ هذا الصـباح، عودي إلى غرفتك الآن بعد الفطور تجهّزي وتعالي نغادر.

ارتدت أمل اللباس الشـرعي الأسـود وسـوّت لها الأخت الكبرى النقاب على وجهها حتّى لا يظهر منه شيء وغادرتا البيت.

كانت أمل تمشـــي بجانب الأخت الكبرى وقلبها يخفق بشـــدّة، يسـبقهما بخطوات قليلة أحد الحراس مدجّجا بســـلاحه. كانت متلهفة رغم خوفها لتشم نسائم الصباح، بدت لها الحركة عادية في الشارع الطويل، الرايات السوداء ترفرف أعلى البنايات الرسمية، الدكاكين مكدّسة بالسلع المختلفة والناس في بيع وشـراء، حرّاس الدولة ينتقلون بين الناس بلباسـهم الأسـود ورشـــاشـــاتهم معلقة على أكتافهم، الأطفال يتســللون بين الحشـود لمآرب مختلفة، عربات الحمّالين محملة بالبضـــائع يزودون الدكاكين بما تحتاجه، كل المحلات ألصـــقت عليها معلقات كُتب عليها باللغة العربية فقط "بقالة مكة المكرمة"، "أقمشـة الحرمين"، "عطورات الأنصـار"...وجدت نفسـها أمام جمهرة من الناس تجمّعوا حول إحداهن وقد علا صـــراخها، تحدث الحارس قليلا مع أحد الأمنيين بالمكان ثم همس للأخت الكبرى التي شدت أمل من رسغها بقوّة وقالت لها:

- إنها أختنا من ديوان الحِسبة، تؤدب فتاة ظهر من تحت الحجاب قليل من شعرها.

ثم أضافت بصوت مرتفع:

- أعان الله إخوتنا وأخواتنا في ديوان الحِسبة.

عاد الحارس يقود المرأتين واشتد الخوف بأمل، إلى أين يأخذانها؟

بعد شوارع قليلة أشارت الأخت الكبرى إلى حديقة صغيرة تعج بأطفال يتلاعبون بقمصان أفغانية ذات ألوان ترابية قالت الأخت الكبرى:

- انظري كل هؤلاء الأطفال هم أشبال دولة الخلافة استشهد أباءهم في المعارك لذلك نرعاهم في هذه الدُور المخصصة لهم.

لفت اِنتباه أمل صخب الأطفال، همست لنفسها بمرارة "أيّ مصير ينتظر هذه العصافير؟" وتذكّرت أختها، شعرت برغبة شديدة أن تحضن أحدهم وتبكي.

انعطف بهما الحارس إلى اليمين ثمّ صعد عمارة بدت جديدة وفخمة وتوقف أمام إحدى الشقق أدار المفتاح في قفل الباب وفتحه، دخلت الأخت الكبرى وأمل ليبقى هو أمام الشقة يحرسها، في الشقة رفعت الأخت الكبرى النِقاب عن وجهها وتقدمت في اتجاه الصالون كذلك فعلت أمل، كانت الشقة فخمة بأثاث أنيق وتحف جميلة تدل على ذوق رفيع. جلست الأخت الكبرى على أريكة فاخرة وقالت:

- هذه الشقة الفخمة من غنائمنا، كانت لعائلة جنرال في جيش الطاغية بشار فرت من المدينة قبل فتحها وستنتقل إليها ابنتي، أتينا بخادم عليها اللعنة، لم تفدنا بشيء، لذلك أريدك أن تعيدي ترتيب الشقة، أن تزيلي كل ما يشير إلى ساكنيه مثل الصور العائلية المعلقة على الجدران، وشهائد النجاح الدراسي في غرفة الأطفال والميداليات الرياضية والتذكارات الخاصة، أيضا أفرغي الخزائن من كل الملابس. لديك أكياس فارغة في المطبخ املئيها كلها وسيلقي بها الحارس في محاضن الأيتام.

نادت بصوت مرتفع:

- غادة، غادة...

أطلّت فتاة بوجه ذابل وردّت بصوت ضعيف:

- نعم

عندها أشارت الأخت الكبرى إلى أمل وهي تقول:

- هذه التي أتينا بها لهذه المهمة لكنها غير صـالحة لشـيء، ولا أرغب أن آتي بالسـبية الملعونة التي تخدمنا في البيت. لا أحب أن تدخل كافرة إلى بيت ابنتي الجديد، (أضـافت من خلال ابتسـامة واسـعة) أعلم أن التونسـيات لهن لمسـة جمال خاصـة ولأني أؤثرك على الجميع أحب أن يكون لك شرف ترتيب هذا البيت حتى يكون جاهزا. سأدعو أن يكتب لك أجر ذلك في ميزان حسـناتك. حين تسـكنه ابنتي لاحقا سـنأتي لها بسـبية مسلمة أو اثنتين من سوق السبايا، سأنتظرك هنا في الصالون حتى تنتهي من عملك وسـأشـغل نفسـي بقراءة القرآن الكريم فيه فضـائل كثيرة يقول تعالى "الذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ" صدق الله مولانا العظيم.

جالت أمل ببصـرها في أرجاء الصـالون، شـعرت أنّها تقتحم عالم عائلة أخرى وتذكرت بيت عـائلتها في تونس فـانقبض قلبهـا، اختـارت أن تبدأ بأصغر غرفة، وجدت غادة قد سبقتها واندست بين السرير والخزانة فبدت وهي متكوّمـة في مكـانهـا كـأنهـا قطعـة أثـاث بلا معنى، نظرت الفتـاتـان لبعضـهما وبدا أن كلتيهما تقاوم رغبة شـديدة في البكاء لم يكن صـعبا أن تدرك كل واحدة أن الأخرى ضحية مثلها.

لم يطل الصمت بينهما قالت أمل بصوت منخفض:

- هل تساعدينني؟

أجابت الفتاة بحركة من رأسها "لا".

لفت انتباه أمل أنّ هناك شـيء غير عادي في غادة فسـألتها بصـوت منخفض:

- ما بكِ، هل هناك ما يزعجكِ؟

لم تجب الفتاة، نهضـت من مكانها وتقدمت في اتجاه الباب دفعته بهدوء بمرفقها فأغلقته، ومثل فتاة في مثل سـنها ثقل عليها سـرها كانت ترغب بشدة أن تخفف عن نفسها فقالت بكلمات سريعة وصوت خافت:

- أعتذر لا أستطيع مساعدتك، لا يمكنني أبدا.

- لماذا؟

قالت بصوت منخفض أقرب إلى الهمس:

- كنت في بيتنا أشتغل سرا حَلاّقة نساء، في يوم اكتشف أعوان الحِسبة أنّي زَيّنتُ امرأة وصَـــبغتُ شـــعرها فحلقوا رأس المرأة بالكامل أمّا أنا قطعوا كلّ أصابعي.
ومدّت كفّيها...صوّبت أمل بصرها لكفيّ الفتاة وصُعقت.

تلك الليلة قضتها أمل في المستشفى حتى تتخلّص من حالة الإغماء المتكرر، كانت ليلة صعبة جدا لعل أفضل ما فيها أنها استطاعت أن تبكي كثيرا دون خوف من أن تنتبه الأخت الكبرى إلى بكائها، تلك الليلة لم تستطع أمل أن تنسى كفا بلا أصابع.

26

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري

الساعة الواحدة و20 دقيقة، بعد الظهر (بتوقيت تونس)
في مصحة الهناء، غرفة 216

فتحت ثريا عينيها حتى اتســـعتا كأنها تريد أن تتأكد أنها فعلا مازالت على قيد الحياة ثم أغمضــت عينيها ثانية وهمســت لنفســها "لقد أردت أن أعلم رئيس الدولة بما يحدث فقط، هل أستحق كل هذا؟" بقي سؤالها معلقا في سقف الغرفة.

بصـــعوبة مدت يدها إلى جهاز التحكّم في التلفزيون ربما في نشـــرة الأخبار ثمة ما يخفف من قلقها. الكثير من التونســيين زمن حكم بن علي يتتبعون أخبـار الوطن عبر القنوات الأجنبيـة وازداد ذلـك أثنـاء الحراك الثوري أما الآن فإنّ القنوات التلفزيونية الأجنبية أصـــبحت لها مصـــالح سـياسـية لا تخفى على أحد لذلك يختار كلّ فرد القناة التي تقدّم له الأخبار التي يريد سماعها، لكنها الآن تحتاج قناة تونسية ربما تظفر بمعلومة عن ولدها. ضـــغطت على أزرار عديدة كلها تقدم برامج عن الصـــحة وفنون الطبخ وأشرطة وثائقية عن توالد الحلزون في آسيا الصغرى وأقدم بركان في العالم. اختارت القناة الوطنية، فاتتها نشـــرة الظهر للأخبار، خفّضـــت صـوت التلفزيون وجالت ببصـرها في أرجاء الغرفة الصـغيرة البيضـاء ستتلهى بشريط وثائقي عن الصين تعرضه القناة الوطنية إلى حين النشرة المسائية للأخبار قد تجد فيها ما يطمئنها عن مصير ولدها.

يتحدث الشريط الوثائقي عن طريق الحرير الذي يأخذ الصين إلى أوربا فيزداد توسعها والوقت يضغط على أعصاب ثريا فتشعر أن الغرفة تزداد ضيقا ولا ملجأ لها غير ذاكرتها التي تهيج أحزانها.

تذكر أنها عندما عادت من الوقفة الاحتجاجية الضـــخمة أمام ســفارتي ليبيا وتركيا وقد بدا عليها الإرهاق والإحباط جلســت تنتظر نشــرة أخبار التاسـعة لتتابعها صـدى تلك الوقفة الاحتجاجية. كانت نشـرة الأخبار مثقلة بـأحداث ولقـاءات وحوارات بلا جدوى وبمنـأى عن مشـــاغل النـاس وهواجســهم وآمالهم. لا حديث عن اســتثمارات ولا عن تشــغيل ولا عن مقاومـة الاحتكار وتخفيض في الأســـعار، جميعهم متحلقون حول كعكة يسمونها الوطن ولا أحد يهتمّ بالشعب المسكين. انتهت نشرة الأخبار ولا أثر للوقفة الاحتجاجيّة وهالها الأمر.

لا إشارة للحدث كأنه لم يكن.

هل لهذه الدرجة يرمون أكبادنا في المحرقة ويتجاهلوننا؟

لم يهتم الإعلام بتاتا بالوقفة الاحتجاجية أمام سفارتي تركيا وليبيا غير أنها نجحت في لفت انتباه المجتمع المدني لذلك ارتفعت أصـوات جمعيات عديدة منها لتنظيم وقفة احتجاجية أخرى أضـــخم ســتكون هذه المرة أمام المجلس التأســيســـي، العديد من المحامين أعلنوا اســتعدادهم لمقاضـــاة الحكومة التونســية الإخوانية على تهاونها، أحزاب عديدة من المعارضـــة أبدت مســـاندتها واســـتعدادها لحضـــور كل الوقفات الاحتجاجية ضـــد الحكومـة، وكـان يجب على العـائلات المكلومـة أن تتوحّد لمواجهـة هذه المأســـاة ويكون صـــوتها أعلى لذلك طرقت ثريّا باب عائلة أمل، لم يكن هناك متســع من الوقت لتبادل التهم لأن ســباقهم الآن ضــد الوقت، ربما يكون تحركهم في الوقت المناســب فينجحون في إعادة كل الشــباب إلى عائلاتهم سالمين.

في اليوم الموعود تجمّعت الحشـود في سـاحة باردو أمام مقر المجلس، اشتد لغط بين المتظاهرين هناك من يؤيد مسـاندة الأحزاب لهم وهناك من يعلن بأنهم ليسـوا في حاجة إلى مسـاندة أي حزب لأنه سـيوظف قضـية أبنائهم في خصوماته السياسية وربما يناله شيء من الكعكة، تذكر صيحة أم مكلومة:

- لا نريد مســـاندة أيّ حزب (أضـــافت وهي تلوح بيدها) لتذهب كل الأحزاب إلى الجحيم، لم نر منهم خيرا، جميعها تسـرق الشـعب وجميعها لا تهتم بحرقتنا على أكبادنا.

صاح بها كهل:

-الأحزاب المعارضـــة هي التي ســترفع أصــواتنا عاليا وتفرض على الحكومة أن تأتي بأبنائنا

صاح شيخ بصوت مرتفع:

- حتّى حزب ربي لم ينفعنا، كلّ الأحزاب منافقة.

هتفت ثريا:

- المجتمع المدني له نفوذ حقيقي في البلاد، سـيصــل بنا إلى حل ويعيد كل الشباب المغرّر بهم إلى تونس.

قال رشاد:

- المشـــكلة أن الجميع يتحدث عن ظاهرة تجنيد أبنائنا من طرف من يدعون الإسـلام وتسـفيرهم للقتال في حرب لا تعنينا، لكن لا أحد يريد أن يتحمّل مسؤوليته تجاه هذه القضية. الجميع يعرفهم والجميع يخشاهم.

ردّت ثريا بحنق:

- نعم، نعرف جميعا الحزب الذي فرّخ الجمعيات الموبوءة فأتى بالدعاة إلينا لغســـل أدمغة أبنائنا وحشـــوها بالتبن والغباء، نعرف جميعا الحزب الذي ســـمح بنشـــر الخيمات الدعوية في الســـاحات العامة ودفع بأئمة متشـــدّدين إلى المنابر يكفّرون الناس ويتوعدونهم بالســـحل، نعرف جميعا مَن يسفّر شبابنا ويرمي بهم في جحيم حرب لا تعنينا.

رد رشاد:

- إنهم يجرّون البلاد إلى نفق مظلم، الجميع يعرفهم والجميع يخشـــاهم أيضا.

هتفت ثريا:

- عندما يوظَف الدين في السياسة لا نجني إلا الكوارث.

انقبض قلبها وتململت في ســـريرها وهي تتذكر ما قاله رشـــاد "الجميع يعرفهم والجميع يخشاهم" قالت لنفسها بصوت مرتفع كأنها ترد عليه:

- سيعود أبناؤنا وسيحاسب كل من تورّط في هذه الجريمة.

ردت عليها أمها:

- نعم، سيعود ولدنا قريبا إن شاء الله.

التفتت ثريا إلى ناحية الصـــوت فاذا بأمها تجلس بجوارها واندهشـــت، تساءلت في نفسها بحيرة:

- منذ متى تجلس إلى جوار سريري؟ هل كنت أتحدث إليها؟

ظلت أمها شاخصة تنظر إليها بحزن وتمتمت هي بصوت ذابل:
- لا حول ولا قوة إلاّ بالله، يا ربي احفظ ولدي.
أغمضـــت ثريا عينيها فانحدرت دمعتان حارتان، عادت ففتحت عينيها وحملقت في السقف المرتفع ثمّ همست:
- ماذا لو ينشقّ السقف وأطير؟
لم تكن تقدر على الحركة وزاد ذلك من إحباطها، تمنّت لو تهشم رأسها حتى تسيل ذاكرتها وتنسى كل شيء.
لكنها الآن ملقاة على سرير في مصحة رهينة الذاكرة المتفجرة.

كانت قد اتفقت مع الكاتبة فاطمة بن محمود للقاء ثانية في الوقفة الاحتجاجية أمام المجلس التأسيسي وأصبحت لاحقا تتردد على بيتها من حين إلى آخر وتكوّنت ألفة بين المرأتين.
تعتبر الكاتبة أن ثريا عبارة على منجم من المعلومات تغرف منه لروايتها الجديدة، كانت تسأل ثريا عن كل شيء يتعلق بربيع كأنها محقق يبحث في جريمة وتدوّن في كنّش لا يفارقها كيف كان ربيع يعيش ويفكر وما الذي أوصله إلى هذه الحال، حتى أنها دَخلتْ غرفته كأنها تبحث عنه، نَظرتْ في مرآته وفَتحتْ خزانة ملابسه وتَلمّستْ سطح الخزانة حيث رمى قيتارته بإهمال فتلوثت أناملها بالغبار، فَتحتْ كتبه الصفراء وبحثت بين أوراقها وقرأت بدقة الصـــفحات التي كان ربيع قد ثنى طرفها ربما لأهميتها عنده. تسجّل كل ملاحظاتها في كنشها وأحيانا لا تكتب بل تتمعن ملامح ثريا وهي تبكي ابنها أو تتحدث عنه كأنها تخزّن لوعة الأم في كنّش يسكن رأسها.
استأذنت مرة من ثريا والتقطت صورا لغرفة ربيع كما قامت بتسجيل ثريا على هاتفها الجوال وهي تحكي بمرارة للمرة الألف عن فقدها لولدها، كانت حجة الكاتبة من تلك الصور ومن التسجيلات أنها تريد أن تستمع إليها وحدها مرات بتركيز، فتلتقط الغصة في صوتها وهي تتحدث عن ربيع، وتلمس الشجن في كلماتها وتنقل القهر الذي يسكن أعماقها إلى قراءها.
لم تنزعج ثريا من الكاتبة، قَبِلتها في حياتها ببســـاطة ربما لأنها تتذكر رأي يقول "إن الحبكة تقوم على ملاحظة أفعال الشـــخصـــيات والأحداث

التي تجري لها"، تميل أن هذه الرأي لأرسطو وتتذكره جيدا يقول "الواقع هو الذي يلهمنا التراجيديا"، كانت شـغوفة بقراءة الروايات ولم تكن تعتقد أن حياتها ستتحول إلى تراجيديا تعيشها بلوعة وشعرت برغبة في البكاء. تبا إنها لا تريد أن تفكر في غير ما يحدث لها الآن ويجب أن تعود للبحث عن ولدها.

بالنسـبة إلى الكاتبة لم تطلب أكثر من أن تَقْبلها ثريّا في حياتها واعترفت لاحقا في لقاءات صحفية أنها استفادت كثيرا من علاقتها بثريا وساعدتها على إثراء روايتها بتجربة حيّة ومثيرة، كما لا تنكر أن تلك العلاقة الطريفة لم تكن صداقة أو قرابة أو جيرة ولكن علاقة من نوع آخر توفرها لها الكتابة وتضيفها إلى رصيد تجاربها في الحياة، كانت الكاتبة قريبة جدا من ثريا وتجهد نفسها حتى لا يبدو عليها التأثر الشديد من الحالة الموجعة التي كانت تجد عليها ثريا، كانت تشعر بالشفقة عليها وتحمد الله أنها لم تعش تجربتها المريرة فتخسر طفلها الوحيد أيضا من أجل أوهام.

عادت ثريا تستسلم لسكون الغرفة البيضاء، تذكرت جيدا أن السكون كان يعمّ البيت أيضا عندما عادت مع أمها من الوقفة الاحتجاجية الأولى أمام المجلس التأسيسي، بعد أن أدتا صلاة العشاء جلستا تتابعان الأخبار على القناة الوطنية الأولى التي هيمن عليها تلك الليلة حدث رئيسي هو متابعة صحفية لوقفة احتجاجية أخرى كانت أمام مقر الولاية بمدينة سليانة طالب فيها المحتجون بفتح بحث تحقيقي يتعلّق بأحداث الرشّ بالمدينة[11]. كان الأهالي قد خرجوا للتظاهر، احتشد الشباب رافعين شعارات تطالب بحقهم في الكرامة مستعينين بحجارة يقتلعونها من الأرصفة ويقذفونها على البوليس المدجّج بالأسلحة ويصرخون "ديقاج"[12]. بأعصاب باردة تم إطلاق الرشّ عليهم، الدخان يتصاعد من ساحة المواجهة، البوليس بالخوذات الحديدية والبنادق في أيديهم يتقدمون بثبات والشباب المحتج على البطالة يقذف بالحجارة ويحتمي خلف

[11] أحداث الرشّ بولاية سليانة: حدثت بتاريخ 27 نوفمبر 2012 استهدفت أكثر من مائتي من شبان وأطفال المدينة وفقد العديد من الضحايا لبصرهم بشكل جزئي نتيجة لاستعمال قوات الأمن للرشّ وهو رصاص مخصص لمطاردة الحيوانات البريّة مثل الخنازير وغيرها.

[12] ديقاج: كلمة بالفرنسية تعني ارحلوا

السيارات المركونة على جوانب الطرقات، طلقات الرشّ كانت حاسمة في معركة غير متكافئة، سقط بعض الشباب من أثر الدماء المتفجّرة من عيونهم وهم يتلمّسون الأرض تحتهم. صرخت امرأة في وجه المراسل الصحفي "نحن لسنا حيوانات حتى يطلقوا الرشّ على أبنائنا"، رد مفوّض عن البوليس "المحتجون ينتهكون حرمة الدولة"، زعيم سياسي من الحزب الحاكم بعلامة سجود سوداء تبدو على جبهته العريضة قال بابتسامة مائلة وهو يمسح على كرافتته "شكري بلعيد هو الذي يقف وراء هذه الاحتجاجات"[13]. أراد الزعيم أن يصفّي حسابه مع خصومه السياسيين وأن يجعل الضحايا يحمدون الله على نعمة الأمن الجمهوري.

هذا الحدث كان الموضوع الرئيسي في الأخبار ليلتها، أتوا بالسياسيين من كل أحزاب المعارضة وممثلين عن حكومة الترويكا وصحافيين محققين ومحامين عن الضحايا تبادلوا التهم فيما بينهم، وثريا تنتظر مع أمها أن يتحدثوا عن الوقفة الاحتجاجية التي كانت لهم أمام المجلس التأسيسي ضد تجنيد وتسفير الشباب التونسي إلى ساحات القتال في سوريا من طرف جماعات دينية مشبوهة، قُبيل انتهاء الأخبار ورد خبر مقتضب أشار إليه المذيع بسرعة مع صورة صامتة من كاميرا التقطت من زاوية مائلة وقريبة لبعض أنفار من الحشود للإيحاء بأنّ المتظاهرين قلّة من الناس ولا قيمة لهذا الاحتجاج ولم يصل الصراخ الهادر للحشود الغاضبة "يا تجار الدين، رجعولنا أولادنا".

مرّ الخبر سريعا كأنه يعلن عن نهاية مباراة في كرة القدم لفريقين من الدوري الرابع لا تعليق على الخبر ولا تحليل ولا استجوابات للمتظاهرين ولا صور حقيقية تعكس الحشود الضخمة.

قامت ثريا متثاقلة من أمام التلفزيون تشعر بإحباط شديد تريد أن تصرخ بكلّ ما فيها من قوة، ما أمرّ هذا الشعور بالعجز، ما أصعب تحمّل الفشل، كل حياتها مرت وهي تصارع طواحين الهواء.

منذ أن كانت في الجامعة انضمت إلى اتحاد طلبة تونس من أجل الحرية للبلاد لكن انتهى كل ذلك بقبضة حديد من نظام بن علي وفشلت

[13] تم تداول هذا التصريح للقيادي الإسلامي في حزب حركة النهضة من طرف علي لعريض الذي كان وزير داخلية الترويكا، هذا التصريح نجده في الصحيفة الالكترونية "المصدر" بتاريخ 29 نوفمبر 2012.

أحلام جيلها في الديمقراطية، وخسـرت معركتها مع الحب أيضـا. تنهّدت ثريّا وبسـرعة أخذت ذاكرتها إلى حيث تحب، إلى ولدها ربيع الذي انتقت له هذا الاسم ليكون ربيع حياتها غير أن والده لم يتحمّل مسؤولية أن يكون زوجا وأبا فإختار الانسـحاب من حياتهما وتحولت كل فصـول حياتها إلى صـراع من أجل ولدها الذي ضـيعته وتسـرّب من بين يديها بسـهولة لا تصـدقها، عضـت على شـفتها السـفلى بحسـرة وهي ترى نفسـها تعود للصـراع ضـد طواحين الهواء غير أن هذه المرة خسـارتها عظيمة، انها تفقد حياة برمتها وهذا ما لن يقبله عقلها.

كانت الدموع تنسـاب على خديها بصـمت حين هتفت بها أمها وهي تمد لها هاتفها بيد مرتعشة:

- الكاتبة تتصـــل بك الآن من هاتفي تقول إن هاتفك مغلق، هل تردّين على مكالمتها؟

لم تجب، شـــعرت أنها ســـقطت من علو شـــاهق وأنها تهوي في فراغ رهيب، كان قلبها يبكي من شـدة اللوعة وهول الخسـارة ولم يزرها النوم تلك الليلة.

27

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري

الساعة الواحدة و25 دقيقة، ظهرا (بتوقيت سوريا)
في المستشفى الميدانيّ بمدينة الرقّة

حرارته مرتفعة جدّا وهو يئن وينظر في اتجاهات مختلفة علّه يعثر على من ينتبه إليه، ضوء النهار يطل في استحياء والرطوبة تثير تقزّزه، إشتهى أن يرى النهار خارج هذا القبو، كان يحب دائما أن تلفح أشعة الشمس وجهه، أن يلعب الكرة مع أترابه في ملعب الحيّ، أن يتحسّس كفّ حبيبته تحت الطاولة والأستاذ منشغل بدرسه، أن يدخل بيتهم فتجذبه إلى المطبخ رائحة طعام لذيذ.

الآلام المبرحة استنزفت كلّ قواه والحمّى ألهبت وجنتيه، كامل جسده ينزّ بعرق بارد، يبس ريقه وبدا أثر ذلك على شفتيه، أجهد نفسه ليجعل صوته مرتفعا ونادى "أريد ماء..." ولكن لم يخرج صوته من حلقه.

دخل المُسعف القاعة صحبة آخر واتّجه نحو مريض حذوه ملقى بإهمال ودون حراك، يبدو أنّه ميتّ منذ ساعات أمسك به أحدهما من كتفيه والآخر من رجليه فسقط رأسه إلى الخلف وتدلّت يداه كأنّهما قطعتا حبل وغادرا به المستشفى القبو، تمتم ربيع في سرّه "اللّهم احتسبه عندك من الشهداء". شعر بسعادة لشهادة أخيه السلفي الذي لم يعلم من أي بلاد هو ولا في أي كتيبة يقاتل تمتم ربيع ثانية "اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك". اِنتبه ربيع أن هذا الرجل لم يستشهد في ساحة المعركة، وصل هنا وبه رمق من الحياة ولم يجد العناية الطبية في هذا القبو، لذلك قد يكون موته بسبب الإهمال. بدا ذلك نذير شؤم لربيع لكنه سرعان ما تدارك أمره "التمس لأخيك سبعين عذرا، لا يمكن لهذا المشفى العسكري أن يوفر الشفاء للجميع، اللهم اِرحم شهداءنا وأسعدهم بالجنّة وحورياتها" ثم شغل نفسه بالدعاء سرّا حتى يستعيد سكينته وأضاف آية من الذكر الحكيم "هُوَ

الذِي أَنْزَلَ السَكِينَةَ فِي قُلُوبِ المُؤمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إيمَانًا مَعَ إيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودِ السَمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمَا".

عاد المسعف إلى مريض آخر يتفقده فأجهد ربيع نفسه ليطلع صوته متقطعا:

- هل.. أتى.. الطبيب؟

أجاب المسعف دون أن ينظر إليه:

- ليس بعد يا أخي.

بقي هامدا في سريره ولسانه يدعو "يا الله، اكتب لي الشهادة" وعادت ذكرياته تركض. كل شيء فيه يئن إلا الذاكرة، لم يفهم سر صمود الذاكرة وهو في هذه الحالة البائسة؟ هل تراها تَسْكُن العقل أم الروح؟

لم يكن في حالة تسمح له بالتفكير لكنه يعلم أن ذاكرته هي الخيط الذي يشده للحياة لذلك راقه أنّ يستسلم لها، هذه الذاكرة التي تضجّ بالصور والأحداث تلهيه عن وهن الجسد وتقيه الوقوع في الغيبوبة أو هكذا بدا له، تسير به إلى الوراء تدريجيّا كأنها كاميرا معدّلة فقط على الفلاش باك تعود به في كل مرّة حيث توقفت وتواصل عملها بهمة، تقتفي أثر الأحداث كأنها تبحث عن مكان تستريح فيه ولا تجده، لكن يذكر أنه هو وجد الراحة والاطمئنان عندما دخل سوريا وسكن مدينة الرقة.

يذكر جيدا وكأن الأمر حدث البارحة، وصلوا الحدود السورية في حافلات من تركيا وكانت غبطته كبيرة لأنه شعر انه اقترب من الأرض التي سيحاربون عليها أعداء الله واشتعل حماسه وهو يتحسّس ببصره الكلاشينكوف المعلق على صدر مرافقهم، في نقطة ما لم يعرف اسمها ولم تكن هناك لافتات تشير اليها ولا يجب ان يسأل عنها من أجل أمن الدولة نزلوا من الحافلات، سألهم القائد أسئلة كثيرة عن بياناتهم الشخصية وعن المهمات التي يمكن أن يخدموا بها دولة الخلافة وكانت أجوبة ربيع واضحة انه ترك الحياة خلفه و لا يعبأ بشيء وانه جاء ليكون مقاتلا من أجل أن تُرفع الراية السوداء عاليا، لم تطل استراحتهم وعاد مرافقهم إلى تنظيمهم ضمن مجموعات صغيرة وركبوا في سيارات جيب جديدة وكان آخر عهده بأمل.

سارت بهم السيارات الجيب طويلا ثم مالت بهم إلى مناطق جبلية وخفّفت سرعتها عند وصولها طرق وعرة. قال في سرّه من الأدعية التي

حفظها مع الجماعة منذ أن كان في مخيّم مع الإخوة في جبال الشـــعانبي بتونس "اللّهم أنت ربّي لا إله إلاّ أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت"

كان في ســيّارة الجيب رفقة بعض الإخوة، يقودها رجل أربعينيّ بلحية قصيرة وزي عسكري يبدو أنّه يعرف هذه الطرق الوعرة وخبر مسالكها جيدا، خيّم الليل على المكان والســيارة تتوغّل بهم في الســواد الحالك. الصـمت يعم الجميع وكان يشـعر بسـعادة غامرة واطمئنان غريب وتمتم "اللهم ارزقني الشـهادة في سـبيلك". وتسـاءل في سـره هل يشـعر بقية الاخوة صـابر وفيصـل مثله باطمئنان لماذا الجميع صـامتون وكأن على رؤوسهم طير؟

توغلت الســيارة طويلا في الليل ثمّ توقّفت عند ســفح جبل، هتف بهم الســائق "انزلوا"، قفز من الســيارة بخفّة قرد دون أن ينتظرهم، لحقوا به وكاد ربيع يسـقط وهو يسـرع في الظلام فلا يدري أين تقع قدمه، تناهى إليه صـوت تغلب عليه اللّهجة المشـرقية بتحية الإسـلام، يكاد يغيب عنهم السـائق الدليل في الظلام وهم يقتفون أثر نقر خطواته القوية على الأرض فإذا بهم يقتربون من ضـــوء خافت لمجموعة من الشـــبان هم إخوة في الإسلام نصبوا حواجز حراسة في طريق يؤدّي إلى بناء جانبي لم يتبينوا ضـــخامته إلا عندما اقتربوا منه، علموا لاحقا أنهم في منطقة تل أبيض وأن تلك كانت مدرسة لطلبة الفنون الجميلة تحولت إلى "مضافة السلام" لاستقبال الوافدين الجدد على دولة الخلافة جنة الله على الأرض.

لم يعكر صـفو ربيع شـيئا غير انه فقد أمل وكانت به رغبة شـديدة أن يسأل عنها ولم يفعل.

اســتقبلهم رجل ضـــخم وقدّم نفســه إنّه "أبو عبد الله" علم فيما بعد أنّه ســوري، قادهم إلى أقســام أخرى من المضــيف أعدّت لهم، ثم قال بلهجة بدت حازمة "ارتاحوا قليلا، بعد صــلاة العشــاء ســنلتقي في درس دينيّ وغدا صباحا يكون لنا معكم لقاء نبسط فيه برنامج العمل معكم ونعدّ نظام التدريب الملائم - ثمّ أضـــاف بصـــوت مرتفع - جميعا صـــفّا واحدا في مواجهة أعداء الإســـلام" هتف أحدهم "تكبير" ردّ الجميع بصـــوت واحد "الله أكبر".

تذكّر صديقه وقائده رامي، انه مثله الأعلى ولا يريد أن يخيّب آماله.

إقامته في مضـافة السـلام بتل أبيض جعلته لا يهتم بشـيء، كان يشـعر بالزهو فهو على مشـارف دولة الخلافة ولم يكن قد لحق به صـاحب الجثّة الضخمة بعد.

برقت في ذهنه أمل فهمس في نفســـه "ربّي اكتب لي أجر هدايتها في ميزان حسناتي" ولم يكن يعلم ما سيحدث لها من أهوال.

28

أعلنت الأخت الكبرى أمّ سَـلمان عن درس خاصّ تلك الليلة، نزلت مع الفتيات عبر سـلّم داخلي لم تنتبه أمل لوجوده سـابقا يبدو أنه ممرّ سـرّي يؤدي إلى بناء مجاور، وجدت نفسـها في قاعة كبيرة بسـطت فيها زرابي مزركشـة ووضـعت فيها أرائك وثيرة بوسـائد جميلة، تفاجأت أمل بما رأت، نحو عشـر فتيات أخريات متجمعات في الصـالة ويتحادثن، ما إن رأين أمّ سلمان حتى خيّم عليهن الصمت.

افتتحت أم سلمان الدرس، بعد التحية الإسلامية رحّبت بالقادمات الجدد من بلدان إسـلامية مختلفة وقدمتهن إلى الحاضـرات وفي الأثناء وصـلت الأخت المحاضـرة التي بدت سـيدة طويلة ونحيفة اسـتقبلتها أمّ سـلمان بترحيب شديد وهي تعدّد مآثرها للحاضرات، ثم رفعت الأخت المحاضرة النِقاب عن وجهها فبدت بملامح صـارمة وعينين دقيقتين وفم مستقيم كأنه لا يعرف الابتسـامة، بسـملت وحمدت الله ورحّبت بالحاضـرات ثم قالت مفاخرة:

- اليوم نسـتقبل من النمسـا أشـد المهاجرات إيمانا وبأسـا، كان اسـمها سـابينا وهي الآن أم ليث نرحب بها في بداية هذا اللقاء، لقد اهتدت إلى طريق الإسـلام واسـتطاعت أن تسـتقطب العديد من الفتيات إلى تنظيم الدولة عبر صفحتها في تويتر، هكذا يتعزّز اليوم لواء الخنساء الذي يضم أكثر من سـتين امرأة، أغلبهن جئن من إنكلترا وفرنسـا وبلجيكا، آمَنّ بمشروع دولة الخلافة وجئن طائعات لخدمة الإسلام. (1)

رفعت أمّ ليث النقاب عن وجهها فظهرت بوجه جميل وعينين زرقاوين، تكاد لا تتجاوز التسـعة عشـرة سـنة من عمرها، بسـملت وانطلقت في الحديث عن تجربتها في دولة الإسـلام بعربية فصـحي متعثرة كلما خانتها كلمة استعاضت عنها بكلمة إنكليزية، لم تطل مداخلتها فأخذت الكلمة عنها أخت أخرى هي أمّ عبد الله - لم تنزل النقاب عن وجهها - كأنّها كانت تكتفي بسـابينا تكشـف عن وجهها الجميل دعاية عن صـدق دولة الخلافة الإسلامية.

ذهبت أمل إلى المطبخ لتحضر كرسيا لها عندها وقع بصرها على سبيّة جديدة أتت بها الأخت الكبرى لتسـاعد الخادم في شـؤون البيت الكبير،

كانت السبية بصدد إعداد الشاي للحاضرات، لا تدري كيف انفلت من أمل سؤال لها:

- هل ستأتي معنا للمحاضرة؟

أجابت:

- لا - ثمّ أضافت فيما يشبه الهمس بلهجة مشرقية لم تتبيّنها جيّدا - هذه زوجة أحد قادة الدولة الإسلاميّة وهي من أكثر النساء تشدّدا في تطبيق تعاليم الإسلام، وتدخل حتّى البيوت لتراقب انضباط النساء في الدولة، كانت تأتي إلينا في البيت الذي أخذوني منه.

(1) تشير التقارير الى وصول مشاركين الى داعش من أكثر من 80 دولة في العالم نسبة كبيرة منهم من البلدان العربية بالرغم من عدم وجود إحصائية حاسمة لعددهم إلا أن أقل التقديرات الأمنية والبحثية تتحدث عن 15 ألف وأعلاها تتحدث عن 40 ألف شخص، وهو رقم غير مسبوق لا في الحرب الأفغانية (في الثمانينات) ولا بعد الاحتلال الأمريكي للعراق 2003 فهو رقم فلكي مقارنة بالأرقام السابقة والجماعات الإسلامية الراديكالية الأخرى وحتى بالجماعات غير الإسلامية. (المصدر: أوراق ونقاشات مؤتمر بعنوان "سر الجاذبية: داعش الدعاية والتجنيد" ورقة بحثية بقلم د.محمد أبو رمان ص 10 ، صدر الكتاب عن مؤسسة فريديريش ايبرت مكتب الأردن والعراق سنة 2014).

التفتت أمل للسبية الجديدة بدت ملامحها جميلة رغم الحزن الذي يسكن نظراتها، ابتسمت لها أمل دون أن ترد عليها وعادت للاجتماع.

قالت أمّ عبد الله:

- لقد تمّ إعداد برنامج عمل للفتيات، هناك من ستعمل في شبكات التواصل الاجتماعي نختار لهذه المهمّة من تميزت بصوت مؤثر وقدرة على الإقناع إلى جانب إتقانها للغات مختلفة ستكون مسؤولة عن الدعاية واستقطاب المزيد من الفتيات، وهناك من ستعمل في شبكة "التجنيد" تقوم بتزكية المهاجرات الجدد من أجل التدريب على الأسلحة الخفيفة وهناك

من ستعمل في "المَضافات" تهتم بنقل الفتيات والنساء المهاجرات إلى داخل الدولة الاسلامية والإشراف على دورات شرعية يتعلمن فيها القرآن والفقه، ومن لها خبرة في الإغاثة الإنسانية ستوجه إلى مناطق القتال.

قطعت أم سلمان كلامها بالصلاة والسلام على خير المرسلين ثم عادت تقول:

- في مناطق القتال، هناك مهمّة حيويّة جدّا حيث تتمّ مؤازرة الإخوان من خلال القيام بوظيفة أخوات الفراش وهي التي سننخص بها بناتنا في هذا البيت وليحسبه الله في ميزان حسناتنا.

أضافت أم عبد الله:

- سبق أن تحَدَثْتُ لَكُن أختنا الكبرى أم سَلمان عن هذه المهمة التي ستكون درسنا في هذا اللقاء، جئنا اليوم بفتوى مهمة قدمها لنا أحد شيوخنا الميامين تدعّم مسارنا الجهادي هي "فتوى المناكحة" التي تشدّ من عزم المجاهدين وتُعدّ من موجبات الجنة لمن تقوم بها. تعلمن أن من محاربي الإسلام من لم يجتمعوا بالنساء منذ فترة طويلة، لذلك زواج المناكحة هذا يدوم لساعات معدودة شرط أن تفوق الفتاة أربعة عشرة سنة أو تكون أرملة أو مطلقة - أضافت بحماس وهي تشير بيدها - هذا يعتبر أشد مؤازرة للإخوان ويعتبر من الأعمال العظيمة التي تثاب عليها الأخوات المجاهدات ولذلك يُعدّ جهادا ويثاب عليه.

أم عبد الله تعدّد مناقب المناكحة وأمل تبدو لمن يراها أنّها تتابعها بتركيز في حين أنّها كانت شاردة الذهن ولا تريد أن تفهم ما تقول أمّ عبد الله حتى لا تزيد من معاناتها. لم يطل ذلك الدرس يومها كأنّه تمهيد لدروس ستتكرّر لاحقا في نفس الموضوع وتهيئة نفسيّة لجهاد عظيم تقوم به الفتيات على فراش الإرهابيين، كانت أمل مغرقة في الشرود وخيالها يطوف بها في غرفتها في تونس تلاعب أختها الصغيرة وتتحدّث لأمّها عن أحلامها في الحياة وتتأمل جسدها الجميل في المرآة وتستمع لأغاني الهيب هوب عندما انتبهت إلى أمّ عبد الله تختم مداخلتها فحمدت الله في سرّها أنهنّ لا تعلمن ما كان يدور في ذهنها.

قالت الأخت الكبرى أم سَلمان أثناء العشاء "هذه المهمّة الشريفة ستوكل لكن يا بناتي" وأنهت كلامها بابتسامة عريضة وهي تقول "ليكتب الله لي ولكنّ الأجر العظيم وحسن الثواب".

كانت أمل تختلس النظر إلى الحاضـــرات كأنها تريد أن تتأكد أن هناك حزنا عميقا مثلها يسكن كل فتاة ربما يخفف ذلك من فجيعتها.

غادرت أم ســلمان ولم يكن من عادتها أن تترك الفتيات دون حراســة، كان خليط من الحنين والشـوق والندم قد فاض على أمل فلم تتمالك نفسـها واندفعت إلى الحمام أأمن مكان للتنفيس عن حرقتها ولم تســتطع أن ترد دموعها فأجهشت بالبكاء وهي تغالب نفسـها لتكبت صـوتها حتى لا يصـل إلى أم ســلمان، اقتربت منها الســبية الجديدة لتهدئتها ولاحظت أمل عن قرب ملامحها الجميلة وحزنها العميق وانتبهت للكنتها المشــرقية الغريبة فسألتها وهي تمسح دموعها:

- من أين أنتِ؟

ردت بتنهيدة عميقة:

- أنا نادية، من سنجار بشمال العراق.

- أرجوكِ لا تخبري أحد أني بكيتُ – وأضـــافت - هل أتيتِ بمفردكِ هنا؟ هل هناك من ساعدك على الوصول إلى هذا البيت؟

اكفهر وجهها وقالت بصوت منخفض:

- قصتي مروّعة لا أستطيع أن أخبرك بها الآن.

بسـرعة عاد صـوت الأخت الكبرى أم سلمان يصـل هادئا من الصـالة، فالتحقت أمل بالاجتماع في حين ظلت الســبية الجديدة نادية في المطبخ، نقلت الأخت الكبرى بصـرها من فتاة إلى أخرى كأنها تحصـيهن بنظراتها فخيّم الصمت على المكان وواصلت الحديث عن مآثر جهاد النكاح ثم قمن لصلاة العشاء.

باتت أمل ليلتها تفكر في نادية، هل توجد قصص أخرى مروّعة في هذا البيت الكبير؟

29

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري

الساعة الواحدة و35 دقيقة، بعد الظهر (بتوقيت تونس)
في مصحة الهناء، الغرفة رقم 216

تفقدت الممرضـــة الجرح في رأس ثريا غيّرت الضـــمادة وغادرت، اقتربت أمّها من سريرها بهدوء وهي تقول بصوت تحاول أن تجعله ثابتا:
- لي خبر سيسعدك، غدا يصل زوجك سيبحث معك عن ربيع وسيجده إن شاء الله.
لم تجب ثريا، أدارت رأسها إلى الجهة الأخرى فارتطم بصرها بالنافذة المغلقة دائما، أغمضت عينيها لكن الضجيج الشديد في رأسها زاد من توترها.

الآن سيأتي زوجها متأخّرا كعادته، كان دائما يتأخّر عنها بخطوة. وصل متأخّرا عن حبها فأهملها ومتأخرا عن أحلامها فتركها تذوي ومتأخرا عن شهوتها فخلفها للحرمان ومتأخرا عن ربيع فضاع منها ومتأخرا عن كل حياتها فتركها تتخبط فيها وحدها. المرة الوحيدة التي توافقت فيها خطواتهما يوم الزفاف لكن كان متأخرا في فهمه للحياة الزوجية فلم يتحمّلها، تعلّل بعمل في بلد خليجي وتركها وحيدة.
بعد أن فشلت في الحب لم تشأ ثريا أن تفشل في الزواج، لذلك تجاهلت تلك الخطوة الفاصلة بينهما وتحملت وحدها أعباء البيت والحياة من أجل ولدها.
وحده الإحباط كان يرافق خطواتها، أينما تولّي وجهها يعترضها ويعمّق شعورها بالفشل، كانت دائما تقاوم شعورها بالإحباط وتقتلع كلّ منابت الفشل في حياتها فاجتهدت أن تكون اِمرأة قويّة لكنّها الآن تشعر أنها لم تكن أما صالحة وهذا ما تقوله لها ذاكرتها في كل مرة، كانت تعتبر ربيع أجمل فصول حياتها وتناديه "الربيع" تركها وحيدة وحزينة ومحطمة.

الحقيقة ســـاطعة أمامها وليس لها أن تنكرها، أخذه الغبار الذي زحف على البلاد، افتكه تجار الدين وذهبوا به إلى الحرب والحرب ليست نزهة بل محرقة وشعرت أنها كومة من رماد.
تحسـسـت الضـمادة على رأسـها كانت تريد أن تخبر رئيس الدولة بما يحدث فسقطت فجأة وارتطمت على الأرض ولا تدري هل انفلتت حقا من بين أيدي رجال الأمن وحرّاس الرئيس أم أن متراك أحدهم هوت على رأسـها فأسـقطتها أرضـا ثم ألقوا بها في هذه المصـحة لا تؤنسـها سـوى ذاكرتها الهائجة التي تلهث خلف ولدها الحبيب وتغرس في أعماقها سكاكين كل الأحداث التي مرت بها.

تركض ذاكرتها نحو وقفة احتجاجيّة ثانية أمام المجلس التأســـيس، تفاجأت بالحشود الكبيرة من المحتجين مثلها قد أتوا من جهات مختلفة من البلاد، سبقوها إلى هناك وفيهم من افترش الأرض وهدد بأنه لن يعود إلى بيته حتى يعيدوا إليه ابنه أو ابنته وهناك من ضـيّع ولدين وضـربت ثريا يدها على صدرها.
رؤية الحشـود من المحتجين الذين توافدوا على سـاحة باردو لم تخفّف عن ثريّا مصـابها بل أثخن جرحها الغائر، ككلّ اِحتجاج ازدحمت السـاحة بالناس ورُفعت شـعارات كثيرة وعلا صـراخ الغاضـبين...امرأة تمسـك بالقضـــبان الحديديّة لســـور المجلس وهي تنوح على ابنتها وأخرى تبكي ولديها وذلك عجوز امتقع وجهه وهو يضـرب كفّا بكفّ ويرفع بصـره إلى السـماء يدعو على من غرّر بالشـباب وألقى بهم في فوهة حرب لا ترحم، وغير بعيد رجل كالثور الهائج مغدور في ابنه البكر، ثمّة شـبّان وصـبايا امتقعت وجوهم من أجل إخوة لهم أو أصدقاء سرقوا منهم باكرا.
غرس رجال الأمن أسلاكا شائكة تمنع المحتجين من الإقتراب أكثر من ســـور المجلس وانتشـــر بعض الصـــحفيين بكاميراتهم بين الحشـــود. هنا ستلتقي ثريا بالكاتبة فاطمة بن محمود، يمكن للأزمات أن تصـنع ألفة بين الناس أيضـــا. كانت ثريّا وحيدة وسـط الحشـود كل البلاد ضـــاقت عليها، كانت تتحدث كأنّها تبكي وتصـــرخ كأنها تولول وتصـــمت كأنّها تنزف، عندها أطلّ رشاد من بين الحشود بجسده القوي ونظراته الحادة قائلا لها:
- كنت أبحث عنك، تعالي معي لنقترب من سور المجلس.

لم تنبس ببنت شـفة وتبعته كطفلة صـغيرة، كانت ثمّة محطة للحافلات انتشرت فيها بعض الكراسي المكسورة جلست على مقعد بلوح واحد، مدّ لها قارورة ماء لتروي ظمأها. نظرت أمامها إلى الحشـود المتراصّـة، عاودتها رغبة في البكاء ولم تقدر على ضبط نفسها، كان رشاد يهدئها:

- هوّني عليك يا طا، أمام تخاذل حكومة الترويكا عن ظاهرة تجنيد وتسفير الشباب التونسي للحرب في سوريا، ستتبنى المنظمات الحقوقية هذه القضية وستعيد كل الذين أخذوهم إلى عائلتهم...

- أصبحت أشك في كل شيء يا رشاد، فقدت ثقتي بالجميع.

- نعم ستقدر، ستعيد المنظمات الحقوقية كل الشباب الذين تم التغرير بهم.

- من يذهب إلى المحرقة لا يعود يا ولدي.

عادت تجهش بالبكاء وعاد الفتى يربّت على كتفها ويواسـيها بكلمات مبعثرة ثمّ إستأذنها حتى يستطلع الأخبار الجديدة ويعود إليها .

ندّت عنها التفاتة فلمحته على بعد خطوات قليلة وقفز قلبها من مكانه، هل حقّا هو؟

مسحت سيل الدموع عن خدّيها وفركت عينيها وعادت تتأمّله، إنّه فعلا هو.

تُرى ماذا جاء يفعل هنا؟

هل جاء يساند الاحتجاج أو قاده حَدسه ليلتقيها؟

هل آلمه هذا الشباب الذي يأخذه الغُبار إلى الموت أو أنّها لا تزال تسكن قلبه؟

هل تقوده قضيّة وطن أو يدفعه قدره إلى حبّ قديم؟

كان لايزال واقفا بنفس الملامح وإن انتشر الشيب في رأسه فزاده هيبة، هو نفسه ولا يمكن لقلبها أن يخطئه، بدا لها أنّه يبحث بنظراته عن شخص وسط الحشود وتحرّك شيء ما في قلبها؟

هل تذهب إليه الآن؟

هل تقول له إن الحنين أنهكها كلّ هذه السنوات الطويلة ولم تنسه رغم كلّ شـيء؟ هل تقول له إنّها كثيرا ما تحاول التخفيف من إحباطها في الحياة فتجعله بطل أحلام اليقظة التي تدمنها؟

مازال واقفا على بعد أمتار قليلة منها، اِقتربت خطوات صـغيرة وهتفت به:

- مراد!

التفت إليها وارتسم التعجّب فجأة على وجهه

- أنتِ؟ ثريّا؟ - وهتف - كم يبدو العالم صغيرا؟

بقي بصرها معلّقا وهي تنظر إليه لا تصدّق أنّه فعلا هو.

قالت وهي تبتسم:

أنتَ هو أنتَ، لم يغيّرك الزمن كثيرا.

قهقه عاليا:

وأنتِ هي أنتِ – ثمّ أضاف بصوت منخفض –لازلتِ جميلة.

ابتسمت وهي تقول:

- أنت تجاملني طبعا - ثمّ أضافت - ماذا تفعل هنا؟

وكأنّها تريد أن تتأكّد أنّه جاء يتوسّـل الصـدفة أن يلتقيها وهو يعلم منذ أيّام الجامعة أنّها لا تفوّت أيّ احتجاج طلاّبي ضـد النظام وأنها سـتكون الآن في أي احتجاج شعبي ضد كل سلطة حاكمة أيضا، ردّ بصوت واثق وقد استعاد تركيزه:

- ستنطلق بعد قليل وقفة مساندة للحكومة ضد المعارضة، وبما أنّني في عطلة هذه الأيام بتونس فقد جئتُ للمشاركة فيها.

شـعرت أن كلماته تعصـف بها وترمي بها بعيدا، (همسـت لنفسـها) "هل هذا هو الشـاب الذي عَشِقْته وكنتُ على وشك أن أرتبط به لولا الاختلاف بين العائلتين؟ كان متحرّرا، نتبادل السـجائر والهمسـات ونرفع أفكارنا الاشـتراكية الجريئة التي لم تسـعها بلادنا فرحل بها إلى فرنسـا، هل يأتي اليوم ليكون مساندا لحكومة لم نر منها سوى الوبال؟".

سألته بتردّد:

- هل أنت مع الترويكا؟

ردّ من خلال ضحكة صغيرة:

- في الحقيقة أنا مع حزب حركة النهضة، جئتُ لمساندتها.

شلّ عقلها ولم تعد تقوى على التفكير، هل هذا فتاها الذي اكتشفت متعة الحياة معه وتنفّسـت دخان سـجائره وأقنعها أنّ الاشـتراكية سـتسـود يوما العالم وتحقق العدالة والحرية للجميع؟

بقيت صامتة، ضاعت منها كلّ الكلمات، قطع شرودها عندما قال:
- وأنت ماذا تفعلين هنا؟
أجابت بصوت حزين:
- تزوّجت، زوجي اختار أن يهاجر إلى الخليج الناعم وأنا هنا أصارع الحياة، ولدي الوحيد ربيع افتكّه منّي التيّار السلفيّ فأصبح منهم - ثمّ أضافت من خلال زفرة طويلة – ويبدو أنّه أخذوه إلى الحرب في سوريا.
اتّسعت عيناه تعجبا وهتف:
- ما شاء الله، بارك الله له وليكتب له أجرا عند الله – ثم أضاف بصوت واثق – نِعم الإبن تستحقين أن نهنئك عليه، ولدك شابّ صالح ويعرف ماذا يفعل بحياته.

غصّت في ريقها من هول المفاجأة فقالت تريد أن تثنيه عن رأيه:
- لقد أخذوه إلى القتال في الحرب والحرب ليست نزهة – أضافت كأنّها تريد أن تفاجئه – ولدي قد يُقتل هناك يا مراد.
أجاب بصوت ثابت:
- أعلم، لا أتمنى له الموت لكن إن حدث ندعو أن يُكتب عند الله من الشهداء والشهداء أهل الجنّة.
بدا عليها الذهول وهي تردّ عليه:
- ماذا تقول يا مراد؟ أقول لك ذهب إلى القتال فتقول لي من أهل الجنّة؟ لو تزوجنا يا مراد، لكان ربيع ولدنا، هل كنت ستقول نفس الكلام لو كان ولدك هو الذي ذهب إلى القتال في بلاد أخرى؟
ردّ من خلال ابتسامة هادئة:
- ولدك ذهب لنصرة الدّين الإسلاميّ.
قالت وقد بدأت تستفيق من صدمتها:
- هل تعتقد أنّ الدّين الإسلاميّ في خطر حتّى ندافع عنه؟ هل الإله ضعيف وعاجز وفي حاجة إلى من ينصره؟
ردّ بسرعة وكأنّ إجابته جاهزة:
- نعم، الإسلام في خطر والبلدان الكافرة تكيد لنا في كلّ مكان وتريد أن تستفرد بشعوبنا وتستغلّ خيرات أوطاننا ولن يكون ذلك ممكنا بالنسبة إليهم إلاّ بمحاربة الإسلام.

قالت باستهزاء:
- أنت تعيش في فرنســـا، في بلاد كافرة حســـب تفكيرك، هل أفهم أنك ستغادرها وستذهب للعيش في بلاد تطبّق فيها الشريعة؟ هل ستعود إلى تونس لو طبقت الشريعة التي يهددنا بها حزب حركة النهضة؟
ارتبك ولم يرغب أن يأخذ الحديث وجهة أخرى، ظل صامتا فهتفت به:
- قل لي هل ستعود عندها إلى تونس نهائيا؟
تلعثم وقال بصوت مرتبك:
- في الحقيقة لا، حياتي كلها أصبحت هناك، عملي وزوجتي وأطفالي، لا يمكن أن أغامر فأترك كل شيء وأعود إلى هنا.
أصابت ثريّا الصدمة، كأنها تنظر إلى كائن غريب، كأن الفراغ ابتلعها فلم تعد تشعر بكل ما يدور حولها..
اقترب منهما أحدهم، كأن الحظ أرسله ليقطع صمتا مطبقا عليهما:
- أين أنت يا مراد؟ انظر هناك لقد بدأ الأنصـــار يتجمّعون في الجهة الأخرى من الرصيف هيا بنا نلتحق بهم – ثم أضاف وهو ينظر بطرف عينه إلى ثريّا التي تطاير شـــعرها في الهواء – ســـننتصـــر على هذه المعارضة الكافرة.
وجد مراد من ينقذه من هذا اللقاء فقال بصوت منخفض:
- أتمنى لك التوفيق في حياتك يا ثريا - وأضـــاف بابتســـامة صـــفراء- أرجو أن نلتقي مرة أخرى، السلام عليك ورحمة الله وبركاته.
اندس بين الجموع ليأخذ مكانه في الجهة المقابلة للســـاحة بين أنصـــار حزب حركة النهضة الإسلامي الحاكم وظلت ثريا في نفس المكان واجمة ولم تكن تدري ماذا يحدث لولدها في تلك اللحظة.

30

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري

الساعة الواحدة و40 دق بعد الظهر (بتوقيت سوريا)
في المستشفى الميداني، بإحدى المناطق السورية

لأول مرة في هذا اليوم حدثت جلبة في القبو، فتح عينيه بصـــعوبة لابدّ أن الطبيب قد وصـــل. خاب ظنّه كالعادة، أتوا بمجموعة أخرى من الجرحى، غمغم "يا ربّ قدرتك تفوق قدرة الأطبّاء اِنزل على كل مريض شـفاء من السـماء" وعاد إلى إغفاءة كأنّها غيبوبة، غير أنّ حرارته التي ارتفعت وأوجاع ذراعه التي اشـــتدت جعلته يفتح عينيه ثانية. ماذا لو يسعفه أحدهم بقليل من الماء، لم تكن لديه القوّة ليرفع صوته وهو لا يقدر على الحركة، لم يدر كيف يمكن أن يجلب انتباه أحدهم فيســـعفه بجرعة ماء. بمرور الوقت ازدادت حالته ســـوءا، العرق ينزّ من جبينه والرؤى غائمة في ذهنه، شعر بدوار في رأسه، هذا جيّد لايزال يشعر أن له رأسا، شعر بغفوة تُقربه من الغيبوبة ولا يقع فيها، تتلقفه ذاكرته كأنها هي الدواء وتشـــده إلى الحياة، تلهيه الذكريات عن أوجاعه وتركض به إلى الخلف، تمر بكل الطرق التي عبرها، بكل الوجوه التي صـافحها تركض عائدة به إلى بداياته البيضاء...

لا يريد أن يعترف بأنّه الآن مُلقى مثل كيس من الخردة، يجد الأعذار لجميع إخوته عن انشـغالهم عنه ويدعو لهم بالنصـر، يتفهّم جيدا الظروف البائســـة التي هو عليها، ســـرير خشـــن في قبو رطب غير انه لا ينكر المعاملة الجيدة التي وجدوها عندما وصلوا إلى إسطنبول في طريقهم إلى سوريا.

المطار فسيحا والحركة فيه على أشدّها، كانت المجموعة التونسيّة فريقا واحدا منضبطا، لم يكونوا تائهين عن بعضـهم انقسموا إلى مجموعتين كلّ واحدة تضـمّ حوالي عشـرة رجال ومجموعة ثالثة لا تتجاوز ثمانية أفراد تضـم النسـاء والفتيات من ضـمنهم أمل تشـرف عليهن نفس المرأة المنقبة

صاحبة العينين الحادتين، جميعهم تركوا الحياة خلفهم واتبعوا نهج السلف الصالح والجهاد في سبيل الله، كان مطمئنا لمساره سعيدا باختياره ينتظر وصوله إلى الأرض الموعودة ليحوّل بساتينها إلى جحيم، ومثل كل مرة يشعر أنه قد يميل إلى اللين وقد تضعف إرادته ينتشل نفسه بالاقتراب من أخوته في الله أو الصلاة أو الدعاء، همس حينها لنفسه "الحمد لله الذي بعزّته وجلاله تتمّ الصالحات". خطر بباله للحظة أن يكلم أمه عبر الهاتف، لا يدري لماذا تملّكته رغبة في سماع صوتها؟ هل يكلمها الآن؟

من المؤكد أنها مكلومة لفقده، يعلم جيدا أنه كلّ حياتها وأن رحيله يقتلها، وهو ممسك بجواز سفره في يده كان يمكن أن ينشغل عن المجموعة ويغيب في زحام المطار ثم يعود إلى بيته، همّ بذلك ارتعش قلبه ولم يفعل.

الآن اختار أن يعدو خلف أمنيته، أن يعيش في دولة الخلافة الإسلامية جنة الله على الأرض وأن يكون جنديا يدافع عن الله وحسم قراره، لن يكلم أمه.

انشغل بالحديث مع إخوته في الله وهو يقول لنفسه حتى يثبت "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق".

في مطار إسطنبول استقبلهم ثلاثة من الإخوة بلباس عصري ولحية مشذّبة بعناية، يتحرّكون بهدوء شديد ويتكلّمون لهجة مشرقية لطيفة ذات لكنة سيعتادها في الأيام اللاحقة.

خارج المطار، كانت حافلتان في انتظارهم واحدة للنساء وأخرى للرجال أوصلتهم إلى فندق على أطراف المدينة، باتوا ليلتهم فيه. من الغد، مباشرة بعد صلاة الفجر استقلّوا نفس الحافلتين فانطلقتا بهم إلى الحدود السوريّة، كانت الطريق جميلة وقد تبعثرت على حافتيها أزهار برّية، امتدّت على جانبي الطريق سهول خضراء، مرّوا بمدن عديدة وقرى كثيرة كانوا يتوقفون عند بعضها للصلاة والاستراحة، عندما مروا بديار بكر علم أنّه في إحدى أكبر المدن الكرديّة، بسرعة تذكّر أستاذة التاريخ التي كانت تحدّثهم عن الكُرد الذين ذاقوا الكثير من الظلم في تاريخهم وتعرضوا إلى أشكال مختلفة من الإبادة. الآن يطمئن أكثر لاختياره ستحقق الدولة الإسلامية العدل وتنشره في الأرض، سيجاهد في سبيل إعلاء كلمة الإسلام ويقضي على الظلم والاستبداد. الكُرد ظلموا

كثيرا وهو الآن في مهمة من أجلهم أيضـــا، يجب أن يعلم الجميع أن الإسـلام دين سـلام ومحبة بين الجميع وإلا ثقبناهم بالرصـاص، وها هي دولة الخلافة آتية وســتتمدد لتنقذ كل العالم وإن كره الكافرون. هكذا كان يفكر وهو يتأمل السـهول الخضـراء تنعش قلبه وذاكرته فعادت به لوهلة إلى ســهول بلاده كم تشـبهها وهو يعبر ســهول مجاز الباب ويتوغل في منبسطات باجة ويعرّج على يساره في اِتّجاه سليانة.

رفّ قلبه قليلا، ماذا لو لم يكن الآن في طريقه إلى المجهول ماذا لو كان الآن في طريقه في رحلة عائليّة نحو البيت الكبير لأمّه والذي يسكنه خاله الوحيد، توقّف عن التفكير وقال لنفسه بصوت مسموع حتى يسيطر على ارتباكه "أعوذ بالله من الشـيطان الرجيم". نظر إلى صـديقه صـابر بقربه وقد بدا مطمئنا هل هو مثله ســعيد بهجرته إلى أرض الخلافة؟ وغمغم "وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين، رضيت بالله ربّا وبالإسلام دينا وبمحمّد صلّى الله عليه وسلم نبيا ورسولا". ليس له من وسيلة لينسى هذا الطريق الذي يذكّره بعائلته وبلاده غير أن يشغل نفسه بقراءة ما تيسّر من القرآن الكريم، سحب من حقيبته الرياضية مصحفا صغيرا، واعتدل في جلسته في تلك اللّحظة التفت إليه صابر مبتسما وقال له بصوت منخفض "نحن نقترب"، تفاجأ ربيع فسأله "ممّ نقترب؟" ردّ صابر بثقة وهو يبحلق في وجه صاحبه "مِن الحوريات، هل تراك نسيت؟ فَضْلُ الله على كلّ من يجاهد في سـبيله الجنّة وحوريّاتها يا أخي" أضـاف وهو يلكز ربيعا وقد حوّل بصره إلى المناظر الطبيعيّة الخلاّبة:

- هل ترى هذا الجمال، الجنّة أروع من كلّ هذا أضف إليها الحوريات.

ضحك صابر وظل ربيع صامتا، لم يردّ عليه، يتابع المشاهد الطبيعيّة المتعاقبة والجميلة حتى تذكرها شعر برغبة أن يراها غير أنّها في الحافلة المخصّصة للنساء، قال في نفسه "إنّها حتما مثلي سعيدة ومطمئنة، الجهاد في سبيل الله أفضل خيار للمسلم الصالح وللإنسان العاقل".

قطع عليه التفكير صـــوت الجماعة وقد ارتفع بأنشـــودة "حيّ على الجهاد"..

الحافلة تنهب الطريق بســـرعة، تطوي مناظر جميلة وتبســـط أمام أنظارهم أخرى، كثيرا ما يشعر بالإثارة حين يكتشف تعرّجات طريق لا يعرفها. فيما مضـى عندما كان يذهب في رحلات مدرسية كان يلذّ له أن

يجلس قريبا من السائق وكالعادة يكون الطريق الذي يجهله أمامه مباشرة فيستمتع باكتشاف تعرّجاته، يلتوي مرّة يمينا وأخرى يسارا ويستقيم أحيانا، يعبر جسورا ويمرّ بمدن وقرى، ويرتفع صوت إخوته يقطع حبل ذكرياته:

دعوة للجهاد
في الرُبى والوِهاد...
بالسيوف الحِداد
تستردّ البلاد
رغم حقد اليهود"[14]

هذه المرّة، لا يأخذه الطريق في رحلة مدرسيّة بل يأخذه الآن إلى سوريا لمحاربة الطواغيت والكفار وطغى شعوره بالزهو على ارتباكه الخاطف الذي لم ينتبه له سواه، رفع بصره إلى إخوته في الله، جميعهم مثله اختاروا الطريق الصواب فبدوا له هادئين فاطمأنّ أكثر إلى مصيره وغمغم ليثبت على مبدئه "إنّه منهج السلف الصالح" وارتفع صوته ينشد معهم "صليل الصوارم" والحافلة تدخل بهم نفقا طويلا.

[14] من الأناشيد الحماسية للجماعات السلفية.

31

بعد صـلاة الفجر تتجمّع الأخوات في الصـالون الكبير لقراءة القرآن، هناك تلتقي أمل بالسبيّة الجديدة نادية التي يبدو عليها دائما الإرهاق الشديد فتذكّرها بأمها ويُعتصر قلبها. الآن فقط تقدّر كل ما كانت تقوم به أمها من أجل العائلة ها هي تخذلها وتترك كل شيء من أجل لا شيء. تسأل نفسها باســتمرار هل كان يجب أن تقطع آلاف الكيلومترات وتدخل هذا النفق حتى تكتشـف أن ما عدته حقيقة لم يكن سـوى وهما. تهمّ أمل في كل مرة بأن ترتمي في حضــن الفتاة علها تعتذر من أمها، شــي ء ما في الســبية الجديدة جعل أمل تنتبه إليها أكثر، لعله حزنها العميق ودمعتها التي تبدو مترقرقة دائما وكان يكفي أن تتلقى نظرة قاســية من الأخت الكبرى حتى تطل دمعة من مخبئها وتنسـاب على خدها بسـرعة، لا تدري لماذا تقسـو عليها الأخت الكبرى وتعاملها باحتقار شـديد، تناديها فكأنها تلعنها وتلعنها فكأنها تصــفعها. تذكر أمل مرة أن أحلام الســودانية طلبت من الســبية الجديدة في أيامها الأولى أن تجلس معهن على طاولة الغداء فكان أن ارتفع صوت الأخت الكبرى حادا في وجه أحلام:

- كيف تطلبين من سبيّة أن تجلس معنا على الطاولة؟

كان الرذاذ يتطاير من فمها وهي تصرخ:

- لا يعقل لمثل هذه الكافرة من عبدة الشــيطان أن تتســاوى معنا؟ - أضـافت وهي تحاول أن تستعيد هدوءها - يكفيها شرفا خدمتنا حتى نقرر ما نراه مناسبا في شأنها.

أمام ذهول الجميع، اضـطرت الأخت الكبرى أن تسـيطر على الموقف تماما فاختارت أن يكون الدرس الديني لذلك المسـاء بعنوان "في فضـائل المسلمين على الكفرة والمشركين".

في تلك الليلة كانت الأسـئلة معلقة في سـقف الغرفة تنتظر أمل لتحملق فيها:

- هل هذا هو الإسـلام الذي يؤمن بالإنسـان ولا فرق فيه بين عربي أو أعجمي؟

- هل يقبل الله التمييز بين بشر خلقهم مختلفين؟

استبد فضول شديد بأمل لتعرف قصة نادية السبية الجديدة التي لم تمنحها الأخت الكبرى اِسما وهذا ما جعلها نكرة بالنسبة إلى ساكنات البيت الكبير، تنعتها بالسبيّة ولا توجّه لها غير الأوامر.

شعرت السبية الجديدة باهتمام أمل، التي كانت تتابعها بنظرات الشفقة وهو ما كان يوجعها لكنها كانت تشعر على الأقل أنها شيء يُرى في هذا البيت. يبدو أيضا أن رغبة الفتاة الغريبة في أن تتعلق بأي قشة في هذا البيت الكبير والموحش جعلتها تبادل أمل الاهتمام.

في غفلة من الأخت الكبرى أم سلمان التي غادرت البيت باكرا على غير عادتها صحبة إحدى الفتيات إلى وجهة لا يعلمها أحد سواها كانت السبيّة الجديدة في غرفة أمل، ترتعش وهي تتحدث:

- أنا نادية، كردية من اليزيدين، كنت أسكن قرية كوجو في قضاء سنجار عندما هاجم داعش مناطقنا، فشلنا في الهروب إلى جبل سنجار (تبكي) حاصرت داعش قريتنا وأمهلونا سويعات لإعلان إسلامنا، لما كان من الصعب أن نتنازل عن ديننا ومعتقداتنا فقد جمّعونا في مدرسة قريبة، (تمسح دموعها الغزيرة) فجأة سمعنا إطلاق نار كثيف (تتلعثم) علمنا فيما بعد أنهم كانوا يقتلون الرجال وقد قتلوا الكثير (تتوقف عن الكلام وتنخرط في نوبة بكاء شديد)..

كانت أمل في حالة صدمة لا تعرف ماذا تفعل، تنظر إلى نادية مندهشة لما تحكيه، عادت نادية تمسح الدموع الغزيرة تتلعثم وهي تتحدث.(1)

- طلبوا منا وضع الهواتف والحلي والذهب وما نحمله من نقود أمامهم ومن تتجرأ وتخبئ شيئا من ذلك يطلق عليها الرصاص، ثم أخذونا إلى معهد تلعفر وفصلوا الفتيات عن النساء المتزوجات، رفضت أمي أن أنفصل عنها قام أحدهم بالتحرش بي ونزع غطاء رأسي فقاومتُه، ارتمت عليه أمي لتخلّصني منه (هنا انتابتها حالة غريبة فصمتت عن الكلام وبدت كأنها تجهد نفسها حتى لا تنهار ثم انفجرت بالبكاء وانطلقت الكلمات متقطعة) ذبحوا...أمي...أمام...أعيننا...جميعا...

---

(1) تمت الإشارة إلى هذه الإبادة من طرف الدواعش لقرية ايزيدية في وسائل اعلام عربية وأجنبية وكُتبت عنها الكثير من المقالات من بينها مقال بعنوان "كوجو إبادة قرية ايزيدية عن بكرة أبيها" بقلم أمين دنايي في "الحوار المتمدن" عدد 7341 بتاريخ 15 / 8 / 2022 كما قدمت برامج كثيرة على اليوتيوب منها بينها برنامج بعنوان "كنتُ هناك، مذبحة سنجار / العراق من طرف قناة "العربي / أخبار".

توقفت نادية عن الحديث ثانية، انخرطت في نوبة بكاء شديدة وأمل في حالة صـــدمة لا تعرف كيف تخفي ذهولها ولا تدري كيف تواســـي هذه الغريبة المحطمة.

- هل حقا يحدث في الإسـلام هذا؟ دَرسـتُ في تونس عن الإسـلام هو دين يحترم اختلاف عقائد الناس ويقبل بهم، إســـلام متســـامح ومنفتح، وعندما قيل لي في دروس الجامع مع الأخوات أن الإسلام في خطر جئت لأدافع عنه فإذا بي أجد إسلاما آخر يقوم بهذه الجرائم في حقّ الأبرياء؟

يا ربي يكاد عقلي يطير، هل يوجد إسـلام واحد للجميع أم إسـلام متعدد لكل الفئات؟

أي إسلام هو الحقيقي؟

كيف يذبحون النساء باسم الله وكيف يتفرج الله صامتا ولا يفعل شيئا؟

كانت نادية ترتعش وهي تحكي:

- أخذونا بســـيارات بيك آب إلى بيت في الموصـــل قالوا بأننا غنائم حرب، كنا نحو خمس مائة فتاة يزيدية، كل ليلة تؤخذ دفعة منا إلى وجهة لا نعلمها لكن حين أتى دوري علمتُ أنهم يأخذوننا في مجموعات إلى سـوق النخاسـة المخصـص لبيع النسـاء (2) حيت تباع الفتاة منا حسـب عمرها بعشـرة أو خمسـة عشـرة دولارا أو يوزعوننا غنائم حرب على قياديهم وجنودهم ويجبروننا على القَبول بالإسـلام دينا، من ترفض تعذّب بالضـــرب الشـــديد (تعود نادية إلى نوبة بكاء شـــديد)، بالنســـبة إليّ فقد عرضـوني في سـوق النخاسـة لبيع النسـاء ثانية، اشـتراني أحدهم وأخذني إلى بيته لخدمة زوجته لكنّه اسـتغلني جنسـيا، كانت زوجته تعلم ما يفعله بي فتهينني كثيرا. (تمســـح دموعها) تقول من حق زوجها أن يفعل بي ما يشـــاء لأني من غنائم الحرب وإنهما اشـــتریاني أَمَة لخدمتهما في البيت، تقسـو عليّ كثيرا، تضـربني لأتفه الأسـباب وتفرط في إذلالي، تقول دائما بزهو إنّ لها ولزوجها أجرا كبيرا في كل ما يفعلانه.

---

(2) المؤلفة (فاطمة بن محمود) التقت أثناء مشاركتها الأدبية في مهرجان كلاويز الثقافي بكردستان /إقليم العراق (الدورة 19 ســـنة 2015) بمجموعة من الفتيات اليزيديات المحررات من قبضـــة داعش، تبنتهن منظمة حقوقية وجئن لمتابعة فعاليات المهرجان بصفتهن مصورات صحفيات. التقت المؤلفة بهن في حديث مطول ومؤثر وكتبت مقالة عنهن بعنوان "الإيزيديات في قبضة الدواعش رحلة الاختطاف والاغتصاب والبيع باسم المقدس" نشر في مجلة "الموجة" المغربية وموجود على قوقل.

بي من تعذيب، وحتى تضـــمن أجرا أكبر كانت تمعن في اســـتعبادي منعت عني الطعام مرّة فاشـــتدّ بي الجوع حتى أنّي أكلت من طعام فاســـد رمته للقطط، ثم أخذتني للتداوي حتى لا تفقد خادمة في البيت وبت ليلتها في مستشـفى المدينة. مات الزوج في عملية تفجيرية فأخذتني زوجته إلى سوق النسـاء ثانية واشـترتني الأخت الكبرى وأتت بي إلى هنا حتى تنظر في أمري، إذا أسلمتُ على يديها وحَسُن إسلامي ستكسب أجرا كبيرا.
(تتوقف عن الكلام وتنطلق في نوبة بكاء شديد)

كانت صـدمة أمل شـديدة وهي تصـغي إلى ما عاشـته نادية، أيّ دين هذا الذي يسـمح بفعل كل هذه الجرائم؟ الإسـلام دين تسـامح ورحمة فأي دين عند هؤلاء؟ لا يعقل أننا نؤمن ونتبع ونتحدث عن نفس الدين؟
واصلت نادية:
- أختي الكبرى اشـتراها عم الداعشـي الذي كنتُ في بيته رفقة طفليها، بعد الإنتهاء من أعمال البيت علّمهم صنع القنابل والمتفجّرات ثم انتقل بهم إلى مدينة طبقة وانقطعت أخبارهم عني، لا أعرف ماذا حدث لهم.
زُلزلت الأرض التي تقف عليها أمل واكتشـفت أنها تعجز عن اسـتيعاب ما يحدث، ما هو الإسـلام؟ هل الإسـلام الذي قرأت عن رحمته وتسـامحه أم الذي ترى المظالم تقترف باســمه؟ وأين هو الله كيف يصــمت عن كل هذه الفظائع؟
فجأة تساءلت: ماذا أفعل هنا؟
كيف وَصـــلتُ إلى هذا البيت وتركتُ حياتي ودراســـتي وأحلامي وضحكاتي؟
زميلاتي منشغلات بالتحضير لمناظرة الباكالوريا وأنا ماذا أفعل هنا؟
كيف أعمت بصـيرتي تلك الغمامة التي سـلبت عقلي وانتزعت روحي ورمتني في هذا القاع؟
أين أنت يا ربيع؟ كيف جئت بي إلى هذا الجحيم وتركتني؟
كيف طاوعتك نفسك ورميت بي في هذه المحرقة؟ كيف نسيتني؟
حدثت في بلادي ثورة يســمونها "الربيع العربي" إذن لماذا يحدث كل هذا ونحن شباب البلاد ومستقبلها لماذا يُرمى بنا إلى حرب تأكل الأخضر واليابس باسم إله يسكن عقولهم المنغلقة؟

وانفجرت بالبكاء، تَذَكرتْ أمها تشـــتغل في أحد معامل النســـيج في المنطقة الصناعية ببن عروس، تعلم أنها تكدّ من أجل أن ترى ابنتها طالبة في الجامعة وتحلم بها أسـتاذة أو مهندسـة أو موظفة بنك، المهم ألا تنتهي حياتها مثلها في أحد المعامل. كان حلمها الكبير أن تعيش ابنتها حياة أفضل من التي عاشتها.

عندما تعلقت بربيع لم تكن تعلم أن القلب يؤدي إلى المهالك؟

لم تكن تدري أن الحب نزوة شـــباب ســـترميها في هذه المحرقة ولم تعرف كيف حوّلها ربيع إلى يوســف وألقى بها في الجب؟ ومن ســينقذها من هذا الجحيم؟ يقول لها ربيع دائما إنه سيؤجر على ما فعله، هل تتحوّل الجرائم إلى حسنات في الإسلام؟

تذكرت أمل ذلك الصباح الذي تسلل فيه لص إليها لينشل حقيبتها فطلع ربيع أمامها وأنقذها فلعنت ذلك الصـــباح، كانت تعتقد أنه بطلها لكنها تحولت إلى ضحيته وعادت للبكاء.

لم تكن تملك إجابة عن أسئلة تتناسل مثل الورم، لعل الصدمة جعلتها لا تعرف كيف تجيب ولم يعد لها من حلّ ســوى أن ترضــخ للجلاّد أو تقتل نفســـها. كان يؤلمها كثيرا أنها لا تســـتطيع حتى أن تختار بين هاتين الفرضيتين لأن المراقبة مستمرة عليهن في البيت الكبير فلا تملك فرصة لا للهروب ولا للإنتحار...

لا تعرف أيّ شخص آخر في هذه المدينة سوى الأخت الكبرى ولم تكن تملك الجرأة لتثير شـــكوكا حولها وقد علمت منها مرارا أن من تتمرد تُعتبر مُرتدة، والمرتدة لا تُسجن ولا تُعذّب بل تقتل رميا بالرصاص أمام بقية الأخوات المجاهدات حتى تكون عِبرة لغيرها، وأمّ سلمان في دروسها تتحدث بنعومة ولطف كبيرين، لكن في بعض المرات تبطن تهديدا تنتبه إليه أمل فيرتعش قلبها الصغير وتشعر به يكاد يسقط في جوفها.

لم يكن لأمل من ملجأ ســوى نادية اليزيدية يتبادلان الآلام وتواســي كل واحدة الأخرى، إذا اشتد بها الضيم يغلبهما البكاء، لكن ما سيحصل لاحقا لنادية وأمل لن يخطر ببال أحد.

32

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري

الساعة الثانية ظهرا، (بتوقيت تونس)
في مصحة الهناء، غرفة رقم 216

قبل أن تخبرها بما جاءت من أجله كان يجب أن تمهد لها بأخبار أخرى، لذلك سحبت أمها الكرسي وجلست قريبا من سرير ثريا وقالت لها:

- الكاتبة فاطمة بن محمود تريد زيارتك في المصحة وقد تأتي هذا المساء، تقول إنها تحمل خبرا يهمك. (أضافت بابتسامة مصطنعة كل الجيران متأثرون لحالك يا ابنتي ويبلغونك السلام، (تنهدت) الحكومة رفّعت اليوم من سعر المحروقات مرة أخرى والفوضى كبيرة في محطات البنزين، الأعصاب كلها مشدودة، طوابير السيارات طويلة فيشتد العراك بين السواق ويتبادلون الشتائم لأتفه الأسباب. فعلا، الحياة في تونس لم تعد تطاق.

ثم سكتت، ولم تبح الأم بعد بما جاءت لأجله. ظلت ثريا صامتة مثل هذه الأخبار وغيرها لم تعد تعنيها، وهذا ما جعل الأم مترددة، لكن لا فائدة في التلكؤ يجب أن تتحدث..

تململت الأم ثم قالت وهي تسوّي بحنو الغطاء على ثريا:

- لقد اتصل بي هذا الصباح أيضا، وبدا غاضبا يجب أن تكلميه.

وجهت ثريا لأمها نظرة فاترة وظلت صامتة، مما شجع الأم لتواصل حديثها:

- لا معنى لما تفعلينه به، يجب أن تخبريه بكل ما حصل. هو أيضا فَقَدَ كل اتصال بربيع وهو منزعج كثيرا وأنت لا تردين عليه..

ظلت ثريا واجمة وواصلت الأم:

- عندما اختار أن يهاجر لم ترفضي حينها، لكن أجدك الآن تعاقبينه، يجب أن تخبريه بكل ما حصل لابنه.

بصـــر ثريا معلق بالباب المغلق، ماذا لو يُفتح الآن ويدخل ولدها. فاتها أن تغلق عليه الباب بإحكام عندما كان يرتّب ثيابه ويضـــعها في حقيبة ظهر ويجهد نفســه لتذكر كل ما سـيحتاجه في المخيم الجبلي، بالقرب منه جلست ثريا تتوسل إليه:

- أرجوك يا ربيع، لا تذهب، قلبي ينبئني بســـوء هذه المرة، أحتاجك كثيرا في بيتنا، أحب أن تعود إلى دراســتك التي انقطعت عنها بســببهم - أضــافت وهي توشــك على البكاء - كانت ســعادتي كبيرة بوصــولك إلى المرحلة الثانوية و أمنّي نفســي بحصــولك على شــهادة الباكالوريا وتدخل الجامعة لكن ها أنت تحرم نفسك من الدراسة وتحرمني من سعادة كبيرة، لقد ســـمّما أفكارك يا ولدي، أرجوك عُد إلى حياتك التي تركتها منذ أن خالطتهم، عُد إلى دراستك سأتدبّر أمري مع إدارة المعهد وأسوّي مسألة غياباتك، أنا زميلة لهم أيضــا وسـآتي لك بأسـاتذة يسـاعدونك بدروس دعم أدفع ثمنها، ستعوض كل ما فاتك يا ولدي.

لم يرد، كانت مسألة الدراسة بالنسبة إليه هو الموضوع المتكرر الذي ملّه، ردد في سره "هي لا تعلم أن هناك أشياء أهم في هذه الحياة"، بنبرة موجعة لامرأة تفقد أحلامها الواحد تلو الآخر قالت:

- لا تخسر دراستك يا ولدي، ستندم ندما شديدا ولن ينفعك أحد.

ظلّ صامتا فأضافت:

- ليس لي غيرك ولا يمكن أن تكون في أمان مع إخوان السوء.

عندها انتبه ربيع، لا يتحمّل أية شتيمة لإخوته في الله لذلك قال لها بنبرة حادة دون أن ينظر إليها:

- الذين تصـفينهم في كل مرة بإخوان السـوء هم من خِيرة الشـباب في هذه البلاد، إنهم رجال صدقوا الله ما عاهدوا عليه - رفع بصره إليها وهو يضـــيف بنفس النبرة الحادّة - إيّاك أن تســـيئي الظنّ بهم مرّة أخرى أو تشتميهم أمامي.

عاد ربيع يدسّ ما يحتاجه في حقيبته فلم تتمالك نفســـها وقالت وهي تتأفّف:

لولا ثورة البرويطة[15] لما ظهر كلّ هؤلاء الدعاة والسلفيّين، هبّوا على البلاد كالجراد نشروا الفوضى وأشاعوا الإرهاب، كانت تونس أفضل بدونهم.

ردّ بكلام يبدو جاهزا على لسانه لمثل هذه المواقف:

- تلك الثورة هي مشيئة الله، وقد قَدّرها لتكون خلافة على منهاج النبوة.

فقدت ثريا هدوءها ولم تعد تتحمّل فأجابت باستهزاء:

- كنا نريد من الثورة أن تحقق لنا الديمقراطية والحرية والعدالة وأنت تقول تطبيق الخلافة؟

أجاب بسرعة وكأنه يلقي درسا حفظه:

- لا معنى للديمقراطية بل إنها كذبوقراطية [16] يُراد منها تضليل الناس عن حكم الإسلام. نحن كمسلمين ينبغي أن نُحكّم شرع الله "وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمْ الكَافِرُونْ"، يجب على الدولة أن تعمل بكتاب الله.

قالت وقد امتقع وجهها ولم تستطع أن تكبح نفسها:

- يا إلاهي، كأنّي لا أعرفك يا ولدي، يبدو أن تيوس الشؤم قد عبثوا بعقلك وخرّبوا أفكارك كثيرا. الديمقراطية ليست كتابا منزّلا وليست لها صورة واحدة، إنما هي مبادئ للحكم تحترم إرادة الشعب وتختار الحاكم لخدمتها والقرآن الكريم يقول "وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ" أي إنّ الله لا يعارض الديمقراطيّة كفكرة مبنية على التشاور وتفترض تعدد الأراء وتحقّق العدل والمساواة. لكنّ المسلمين لم يعرفوا العدل والمساواة إلا نادرا خاصة من الحكام الذين استولوا على السلطة بالقوة وحكموا باستبداد وقتلوا كل من طالب بالعدل وفكر بالعقل.

- لن تغيّري رأيي الخلافة هي الحل، وسيتم الله نوره ولو كره الكافرون.

- كيف تكون الخلافة هي الحل وتاريخ الخلفاء نفسه بُنِيَ على القتل، كل خليفة يقتل آخر ليستولي على الحكم ويطغى في سلطانه ولا يحقق العدل بين الناس. أنت تردد أفكارا خاطئة ملأ بها عقلك مجموعة من الأميين لا يفهمون من الدين شيئا ولا يقرؤون التاريخ.

كان قد أنهى جمع ثيابه، قال لها وهو يرفع الحقيبة عن الأرض:

---

[15] البرويطة: عربة تجر باليد إشارة إلى محمد البوعزيزي الذي حرق نفسه فاندلعت ثورة الربيع العربي في تونس.

[16] الكذبوقراطية: وصف استعمله خميس الماجري أحد شيوخ التيار السلفي في تونس في حديثه عن الديمقراطية التي يرفضها معتبرا أن الحل في سنّة الله ورسوله. (في حوار له بقناة الميادين سنة 2013)

- أنبّهك للمرة الألف لا تشـــتمي إخوتي في الله وإلاّ لن أعود إلى هذا البيت.

يرتعش قلبها، في كل مرة تواجه فيها أفكاره ثم تخشـــى أن ينفذ وعيده فعلا، تلهّت بتعديل صـــوت التلفزيون حتى لا تكشـــف عن ارتباكها وهي تقول:

- قلبي يخبرني أن صـــحبتك لهم ســـتؤدي بك إلى كارثة، أخشـــى عليك منهم يا ولدي.

نظر إليها:

- قلتُ لكِ ستكون خلافة راشدة على منهاج النبوة.

لكنها لم تسمع صوته فقد ردّ عليها في سرّه، أصبح يرى النقاش معها بلا جدوى، ثم إنه لن يغيّر من قناعاته شيئا. استوى واقفا، رفع حقيبته قال وهو يتجه إلى الباب الخارجي:

- ســأغيب أياما في مخيم دعوي هذه المرة، أرجو أن تكون لك فرصـــة لمراجعة أفكارك يقول تعالى "وَمَنْ أَحْسَـــنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ".

أغلق الباب خلفه، لحقت به حتى تمنعه ولو بالقوة من الذهاب مع وجوه الشـــؤم، صـــرخت في وجهه وأفتكت من يده حقيبته ودفعته إلى غرفته وأغلقت الباب. لكنها لم تفعل كل ذلك، لم تقم بما تمنته، اكتفت بأن انتقلت بسرعة إلى النافذة تتبعه ببصرها، تراه يحثّ الخطى في اتجاه المجهول، شعرت بقلبها يغوص في جوفها..

شيء ما في أعماقها يقول لها إنّ مصيبة ستحلّ به.

33

استفاقت الأخوات على صراخ حادّ فقفزن من أسرّتهن، متسائلات عن الخبر، كانت الأخت الكبرى واقفة وسط الصالون مثل عمود إنارة معطب بوجه غاضب وصرخت بحدة أن تلزم كل أخت غرفتها، كان الصراخ يتعالى كلما انهال عليها الحراس بالعصا وهي تستغيث بين الضربات، بدا لأمل الصوت الذي يتلوى ويصرخ مألوفا لديها، كأنه صوتها يصرخ ويستغيث من شدة الألم، كانت مرتبكة وخائفة. عرفت أمل أن التي تتعرض إلى الضرب هي حنان المغربية. في المساء عندما اجتمعت بهن الأخت الكبرى في درس السيرة النبوية حدثتهن بهدوء متصنّع وابتسامة صفراء عن تهور حنان أو أمّ قصي كما تحب أن تناديها التي حاولت أن تستغلّ انشغال الحراس بالصلاة وتهرب وأنّها ترفّقت بها ولم تسمح لهم بقتلها لأنّها تشفق عليها مثل ابنتها وتثق أنّها لن تتهوّر مرة أخرى وتفعلها وإلا ستذبح أمام الجميع. منذ ذلك اليوم شددوا الحراسة على جميع من في البيت، ولم تتجرأ أي أخت لتسأل أين ذهبوا بأم قصي بعد ذلك.

بعد صلاة العشاء، نادت الأخت الكبرى أملا وقالت لها بصوت ناعم:

- غدا صباحا اغتسلي يا أمّ براء، سنذهب في مُهمّة انتظرناها طويلا يا ابنتي.

انقبض قلب أمل وسألت:

- أين سأذهب؟

أجابت أم سَلْمَان من خلال ابتسامة عريضة:

- يكن خيرا بإذن الله يا عزيزتي، الحياة الجميلة تنتظرك ولك أجرها من ربّ كريم.

عادت أمل إلى غرفتها شاردة وقد انقبض صدرها، يُنبئها حَدْسها بسوء ينتظرها وقضت ليلتها تلك في أرق.

قبيل الفجر طرقت الأخت الكبرى باب غرفة أمل، بسرعة انتصبت واقفة وقلبها يخفق،

بعد صلاة الفجر وحصة قراءة القرآن أومأت الأخت الكبرى لأمل أن تستعد للخروج. بخطى مرتبكة كانت جاهزة وغادرت صحبة الأخت الكبرى مع حارس بلحية كثة وركبوا جميعا سيارة جيب، من فتحة النقاب

كانت أمل تتلهّى بالنظر إلى الشـوارع حتى تخفف عنها شـعور التوجس والضـيق، لفت انتباهها أن أغلب من كانوا في الشـارع والسـاحات التي مروا بها رجال وكأنّ هذه المدينة أعدّت لهم بالأسـاس، نسـاء قليلات ملتفات بالسواد وكنّ بصحبة محرم وإن بدا طفلا صغيرا.

دخلوا فيلا فخمة يبدو أنها كانت لأحد أثرياء مدينة الرقّة وأصـبحت لأحد أثرياء دولة الخلافة، في الصـالون الأنيق همسـت الأخت الكبرى لأمل:

- هذا بيت قائد المعسكر في مدينة الرقة، إنّه شيشاني وبعيد عن عائلته، سـتكونين زوجته لسـاعات، هذا واجب الجهاد من أجل تحفيز هِمم المجاهدين ويثيبك الله عليه أجرا كبيرا.

صُـعقت أمل وخيم عليها الصـمت، لم يكن لديها ما تواجه به غير وجه ممتقع وملامح جامدة وقلب يكاد يقفز من شدة الخوف..

برهة من الزمن، دخل رجلان رحبت بهما الأخت الكبرى وأشارت إلى أمل:

- هذا القائد أبو عبد الله وهذا الشـيخ أبو إيّاد، (ثمّ أضـافت) أبو إيّاد سـيكون وليّك وهو سـيعقد قرانك المؤقت على أبي عبد الله، يكن خيرا إن شاء الله وليحسبه الله في ميزان حسناتنا.

من خلال النقاب رأت أمل أبو إياد يضع كفه في كفّ أبي عبد الله، رمى قطعة قماش على كفيهما ثم قال:

- يا أبا عبد الله زَوَجْتُكَ أم براء.

ردّ أبو عبد الله:

- لقد قَبِلْتُ.

قرأ الرجلان الفاتحة بصـوت مرتفع. ثم تلا أبو إياد ورقة العَقد المؤقت وفيه أن الطرف الأول بعد إيجاب وقَبول صريحين قد قَبِل النكاح بالطرف الثاني نكاحا شـرعيا، وإقرار الطرف الثاني بعد إيجاب وقبول صـريحين بأنّها قد قبلت النكاح من الطرف الأوّل بعد موافقة وليّها، وأنّ قدر المهر المعجّل "قراءة سورة الكوثر" وقدر المؤجّل "قراءة سورة النصر".

وضـع أبو عبد الله كفّه اليُمْنَى على رأس أمل قرأ سـورة الكوثر وكَبَّرَ عليها ثلاثا ثم قال من خلال ابتسامة صغيرة:

- أنتِ الآن زوجتي.

دخل بها غرفة جانبيّة وقال لها:
- ارفعي النِقَاب عنك، أريد أن أراكِ.
بيد مرتبكة امتدّت يد أمل إلى وجهها فرأى الرجل فتاة في عمر الزهور بملامح جميلة وإن بدت ذابلة، مدّ كفه يلامس خدها فارتعشت وتراجعت خطوة إلى الوراء في حين كان يقول:
- هل أنت التونسية التي أتيت مع المجموعة منذ فترة؟
ردّت بإيماءة من رأسها فأضاف:
- ما شاء الله، ليكتب لنا الله في كل هذا أجرا وليحسبنا عنده من الصادقين.
صلّى أبو عبد الله ركعتين، ثمّ التفت إلى أمل التي كانت لاتزال جالسة على طرف السرير كتمثال من رخام.
- هيّا، أنا مستعجل، لي مشاغل عديدة..
بدأ ينزع ثيابه ويستحثّها:
- بسرعة يا أم براء، بسرعة حتى لا يداهمنا الوقت.
وهو عارٍ بدا كأنّه وحش بجسد ممتلئ ينتشر الشعر في كلّ مكان ويشتدّ عند الأطراف تقززت أمل وكانت بها رغبة للتقيؤ، لكنها عاجزة أن تصدّ الرجل ولم يكن لها سوى الاستسلام لقدرها اللعين وهي تمني النفس قائلة "يا الله افعل معجزة الآن وأنقذني".
تمدّدت على الفراش واقترب منها حتّى التصق بها ومدّ ذراعين مشعّرتين كأنّه يقبض عليها وألصق على خدها شفتين غليظتين وطبع قبلات باردة...برق في ذهنها ربيع كانت تشهق من أنفاسه الحارّة والآن تلتصق بها أنفاس رجل غريب من بلاد أخرى، كانت تهرع إلى ربيع مبتهجة والآن تُدفع إلى مجزرة وتفرم بين يديّ هذا الغريب، يستبد بها الخوف وتشعر بانقباض في معدتها وتكاد تتقيأ أمعاءها والغريب يتحسّس جسدها بكف غليظة متلهّفة وينزل إلى الأسفل وتهمس بينها وبين نفسها "أين أنت يا الله؟ لا تتأخر عني يا الله"...تتململ تحته، تريد أن تتملّص منه وهي مأخوذة بما يحدث، عيناها تتّسعان مع كل ضغط منه تشعر به على جسدها البارد الذي تحوّل إلى كتلة يابسة، لكن الغريب لا يحفل بها ولاتزال أنفاسه مشدودة إليها ولهاثه يشتدّ وهو يتحسّسها حتى وصل إلى حيث يريد، أدخل أصابعه الخشنة يتحسّس ذلك الشيء النائم بين فخذيها

فانكمشت بحركة لاإرادية وضمّت فخذيها، صرخ بها بكل قوة حتى تطاير البصـــاق من فمه "افتحي..." ثم أولج فيها شـــيأه الممدّد كقطعة حديد، شعرت بألم صاعق يصل بسرعة إلى أطراف أذنيها وبوجع حار يسري في كامل جســـمها، أرادت أن تدفعه عنها فوجدته ثقيلا كأنه جبل يجثم عليها، ندّت عنها صـــرخة موجعة وخرج صـــوتها واهنا "أرجوك ارفق بي..." وكأن صوتها لم يصله، لم ينتبه إليها أصلا وكان يواصل ضغطه عليها باهتزازات شديدة مولجا مدية الحديد التي بين فخذيه ولم تعد تشعر بشيء، أغمي عليها.

انتبهت بصـــفعات تنهال على وجهها الذابل، فتحت عينيها، وجدت أبا عبد الله أمامها وهو يصرخ بها:

- هيا افتحي عينيك أنا مستعجل وليس لي الوقت لكل هذا، هل تسمعينني الآن، هل تسمعينني؟

ثمّ يعود إلى صفعها على خدّيها:

- هيا بسرعة، لديّ ما يشغلني...

ما إن انتبه إلى عينيها تنفتّح حتّى هتف بها:

- انتهى الأمر الآن، أنتِ طالق...

ســمعت صــوت الماء من الدش القريب من غرفة النوم يتصــبّب عليه وخرج مســرعا، لبس ثيابه عن عجل ثمّ فتح كفّيه وقرأ ســورة النصــر بصوت مرتفع ثمّ غادر الغرفة.

كانت تنظر حولها بذعر تريد أن تستعيد ما حدث لها ولم تكن تدري أنّ ما سيحدث بعد ذلك لا يخطر ببال أحد.

أخذتها الأخت الكبرى للدشّ للاغتســـال من أثر الجريمة، عندما عادت للصـــالون وجدت في انتظارها الشـــيخ أبو إيّاد الذي لم يغادر البيت برفقة رجل آخر لعله قائد عســكري أيضــا، كانت في حالة صــدمة لا تصــدق عينيها ما ترى ولا قدرة لها على صد الوباء الذي يحيط بها. وضع الرجل كفّه في كفّ الشيخ ورمى بقطعة قماش صغيرة على كفيهما وهتف الشيخ:

- زوجّتك أم براء يا أبا الحكيم.

ردّ الرجل "قَبِلْتُ"، بدآ يقرآن الفاتحة معا، ثمّ تلا عَقد النكاح بســـرعة. كانت أمل تنظر لما يحدث وكأنّها ترى حياة فتاة غيرها تتهشّـــم، تقدّم الرجل في اتجاهها ووضع يده على رأسها ولم ينتبه أنها ترتعش من شدة

الخوف قرأ سـورة الكوثر وكبّر ثلاثا وهو يبتسـم، وكانت أمل تحت وقع الصدمة لا تصدّق ما يحدث.

كان خطأ قاتلا أن يجامعها رجل آخر في أقلّ من سـاعة بعد مضـاجعة وحشية أولى، لكن هذه المرة كانت وهي في الغرفة تصرخ وتدفعه بيديها وأصابها الذهول عندما ردّ عليها بصفعات موجعة وارتفع صراخها، فزاد أبو الحكيم في دفعها وقرصـها من فخذيها حتى تفتحهما على الآخر، مدية الحديد التي بين فخذيه تتوغل فيها بعنف باهتزازات شـديدة كأنها تريد أن تصل بلعومها، وبدأ يعالجها بشيئه، كانت تندّ عنها صرخات قوية موجعة وهي تتملّص منه تريد أن تسـحب نفسـها بسـرعة، هوى عليها الغريب بصـفعات أخرى على وجهها وضـغط أكثر على حوضـها وتمادى في اهتزازاته العنيفة، اشـتعلت النار في داخلها وتصـاعد الألم بما يفوق تحمّلها، كانت تجهد نفسـها لتدفعه بعيدا عنها فيزيد في لطمها بعنف، ثم لم تعد تشعر بشيء...

أغمي عليها مرة أخرى.

34

في مونبليزير، المنطقة الراقية التي تعجّ بالإدارات المهمة والمطاعم الشهيرة والمقاهي الأنيقة وتكثر فيها الحركة دون فوضى، اقترب عم الطاهر والد أمل مسرعا من إحدى المباني الفخمة وبسرعة قدّم بطاقته لعون الاستقبال وهو ينظر في كل الاتّجاهات بقلق، لا يحبّ أن يراه أحد.

صعد الدرج المرمريّ الفاخر فلفتت انتباهه كاميرات صغيرة في كلّ الزوايا ترصد الحركة خارج المبنى وداخله وارتعش قلبه "لا بأس هذا عادي" همس لنفسه لا يمكن لحزب كبير يحكم البلاد إلاّ أن يكون فخما ومراقبا. تقدم منه رجل أمن للتفتيش، "هذا عادي" همس مرة أخرى يجب أن يتحققوا من كل زائر، في مكتب استقبال ثان مدّ بطاقته الشخصية مرة أخرى ونطق باسم المسؤول السياسي الكبير في حزب حركة النهضة الذي جاء ليلتقيه وقد استعان بأكثر من واسطة ليظفر بهذا الموعد.

لم يطل انتظاره، من قاعة الاستقبال رافقه عون أمن آخر أوصله إلى المكتب الأنيق، دخل وألقى تحيّة الإسلام:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ردّ المسؤول الكبير من خلف مكتبه التحيّة وهو يسوّي النظّارات على عينيه:

- عليك السلام ورحمة الله وبركاته.

كان يتفرّس في ملامح الرجل الذي ألف حضوره في البرامج التلفزيونية السياسيّة بدا أنيقا بلحية صغيرة مشذبة بعناية، أشار إليه بالجلوس، اطمأن أبو أمل لهذه التحية اللطيفة، نعم يبدو أنّ لديه الشجاعة التي لم تكن لغيره ليطرق الباب المناسب ويقابل المسؤول المناسب الذي يبرّر دائما على شاشة التلفزيون أعمال حزبه السياسيّة وينكر التعويضات المالية الضخمة التي دُفعت لمناضليهم ويدافع عن حق ميليشياتهم في استعمال العنف للدفاع عن الإسلام.

قال أبو أمل:

- في الحقيقة، كان يجب أن آتي قبل اليوم لأبارك لكم عهدكم الجديد في البلاد. في العهد السابق كنا في فوضى وفساد والشعب بعيدا عن دينه، وبما أنني أعمل في قطاع البناء فأنا أعلم أنّ في المقاولات الكثير من

المحسوبيّة والفساد لأنّه مجال تتحكّم به بعض العائلات المقرّبة من النظام السابق، كنتُ دائما ضحية ذلك الفساد.

أضاف:

- نالكم نصيب كبير من الظلم زمن بن علي.

تنحنح المسؤول في مكتبه وهو يقول:

- اختارنا الشعب، لقد وصلنا بانتخابات نزيهة وشفافة.

- نعم، نعم، (وأطلق الجملة التي جاء من أجلها) نحن نساندكم ونشدّ على أياديكم، (وتذكّر ابنته) أنت لا تعرف أنّ ابنتي قد شقت لنفسها طريقا جديدا واختارت أن تذهب للجهاد والدفاع عن الإسلام في سوريا، نحن عائلة لا ترهبنا الحرب ونفعل كل شيء من أجل أن تسود الشريعة الإسلاميّة في بلادنا، نعم ابنتي ذهبت للجهاد في سوريا وأنا أعتزّ بهذا وأساند كل شاب يذهب للجهاد من أجل نصرة الإسلام.

ردّ المسؤول السياسي مبتسما:

- مرحبا بك في كل وقت.

ارتبك أبو أمل كأنّه لم يعرف كيف يوصل فكرته أو أنّ هذا الرجل لم يفهمه، نظر المسؤول إلى ساعته، الوقت يمضي ويجب أن يستغلّ هذا اللقاء، بسرعة التقط من جيبه نسخة من بطاقته الشخصية التي أعدها من أجل هذا الموعد، ومدّها للمسؤول قائلا:

- لا أريد أن أشغلكم عن أعمالكم، أنتم حزب كبير ولكم السلطة الآن وهذا حقكم طبعا، ثم أنا ابنكم (وتذكر معطى آخر فأردف بسرعة) وصوّتُ لصالحكم في الانتخابات أيضا وهذا واجب طبعا، يسعدني أن أوفّق باسم الله تعالى في المناقصات القادمة التي تهم المقاولات، لقد قدمت ملفي من أجل بناء جامع عمر ابن الخطاب في حيّ التضامن وأيضا بناء مدرسة قرآنيّة في حيّ السلام وأحب أن أخدم هذا الحزب كما تخدم ابنتي الإسلام في سوريا – وأضاف بابتسامة واسعة – أنا وكل أفراد عائلتي نساندكم بلا حد.

خارج المبنى الفخم للحزب الحاكم كان عمّ الطاهر يشعر بالسعادة ويهمس لنفسه "بهذه الأشغال الصغيرة سأصنع لي اسما في عالم المقاولات وتصبح لي شركة كبرى وسيارة سوداء فخمة".

كانت خطواته واســعة يريد أن يبتعد بســرعة عن مقر حزب النهضــة بمونبليزير، لا يحب أن تلتقطه عين تعرفه.

35

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري

الساعة الثانية و5 دقائق، بعد الظهر (بتوقيت سورية)
في المستشفى الميداني لمعسكر الزرقاوي بمدينة الرقة
قسم الرجال

الضـــوء شـــحيح في المكان والأنين المنبعث من حوله يشـــعره أنه في مستشفى بينما هو في قبو رطب، لا يزال ممدّدا. لا يستطيع الحراك، ألام كبيرة تشـتد في يده اليسـرى وتتسـرّب إلى كامل جسـمه، حرارة شـديدة تعتريه وعرق بارد ينزّ من جبينه،

اِنتبه إلى خطوات قريبة منه، فتح عينيه رأى المســعف بمئزره الأبيض ولحيته الخفيفة، سأله بهدوء:

- كيف حالك يا أخي؟

فتح ربيع بصعوبة شفتيه الجافتين:

- نحمد الله ونشكره على كلّ شيء، لماذا لا يزورني طبيب؟

أجاب المسعف بابتسامة خفيفة:

- قيل لي أن الطبيب سيصل هذا المساء، نظرا إلى حالتك السيّئة ستكون من الأوائل الذين سيهتم بهم. لا تخش شيئا – أضاف وهو يشير بيديه إلى قاعة القبو المعتّمة - أنت كما ترى في مكان آمن نسـتقبل فيه الجرحى من جنودنا البواسل.

- جازاك الله كل خير، هل جاء أبو شدّاد؟

رد المسعف باقتضاب وقد زالت ابتسامته:

- لا أعرفه.

أراد أن يسأله عنها ولكن إن لم يكن يعرف أبا شدّاد التونسي قائد كتيبة فلن يعرف أملا وقد يكون لها اسـم آخر لا يعرفه الآن. انتبه أنّ المســعف

وضـع له صـحنا به ما يشـبه الحسـاء وخشـي أن يبتعد عنه فهتف به في استجداء:

- ماء، أرجوك...

التفت إليه المسـعف وقد عادت إليه اِبتسـامته الصـغيرة، مدّ قارورة ماء كانت في يده وأسـند رأس ربيع إلى ذراعه وهو يسـاعده على الشـرب، لا يدري لماذا في تلك اللّحظة تذكّر القائد الكبير صـاحب الجسم الضـخم الذي لحق به ليلا في نقطة الحراسـة وكان وحيدا وبسـرعة حوّل الذاكرة عنه، جرعات الماء تنساب بصعوبة تعترضها كرات من الألم جعلت ربيع يبتلع الماء على مهل حتّى اِرتوى...

- جازاك الله عنّي كلّ خير، نحمده ونشـكره على كلّ شـيء، أريد أن تدلّني على اتجاه القِبلة يا أخي.

أشـار المسـعف مبتسـما إلى جهة في الجدار تتّسـع فيها بقع من الرطوبة تنتشر فيها حُبيبات من العفن وغادر المكان.

عاد ربيع فألقى برأسـه على الرزمة التي تشـبه الوسـادة، الآلام لاتزال مبرحة ولكن لا بأس سيزوره الطبيب اليوم وستتحسّن حالته وسيعود إلى المعارك لكن ماذا لو كانت أمل هنا في هذا المستشفى الميدانيّ، إنّهم حتما يحتاجون إلى نسـاء وفتيات لرعاية المرضـى وهذا جهاد يؤجرن عليه، لا يدري أين أخذوها، ولكن من الممكن أن تكون هنا تقدّم المسـاعدة لجرحى أبطال يتقرّبون من الله بأرواحهم. قرّر أن يسـأل عنها، لكن من الممكن أن تكون في خدمـة جرحى الحرب في مكـان آخر وربّمـا في مدينـة أخرى، لكن أيضـا لا شـيء يدل على أنّها ليسـت في هذه المدينة التي حارب على مشارفها وفي هذا المكان الذي ألقي فيه ككيس مثقل بالآلام...

تمتم: "ربي اجعل هدايتها في ميزان حسناتي يا أرحم الراحمين".

لن تتوقّف حيرته إلّا إذا اطمأن عليها.

خمد شـعوره بالألم أو هكذا خيّل إليه كأنّ ذاكرته تسـعفه دائما فتخفّف عنه الأوجاع. يذكر جيدا أنه لم يفارقها في مطار إسـطنبول بعد أن حطت بهم الطائرة القادمة من ليبيا.

كانوا في عهدة الشـيخ أبي شـدّاد عندما تجمّعوا في جامع الفتح بلافيات في تونس العاصمة ثم انطلقوا إلى الحدود الليبية عبر سيارات صغيرة لا تثير الشـبهة، يعلم ربيع أن الآن لديهم حلفاء مهمين في مختلف أجهزة

الدولة تجمعهم بهم نفس الروابط العقائدية ينشطون في السياسة وغيرها بعقول أعدت للمناورات والتكتيك ويعلم انه هو وإخوته ذراعهم العسكري في ساحة المعركة، جميعا لهم هدف واحد هو إقامة الخلافة على منهاج النبوة.

نظر إلى سقف القبو الرطب وراقه النشاط الغريب لذاكرته ووجد فيها دواء يسكّن أوجاعه، تذكر جيدا أنه بعد صلاة العشاء فكر بمهاتفة أمه، يعلم أنها ستلتاع لغيابه وسيقتلها قراره، لكن في الحياة هناك اختيارات وأفضلها طريق السلف الصالح وعليه أن يكون فخورا باختياره، يرغب في مهاتفتها لكنه يشعر أن أمه خذلته تصلي ولا تضع الحجاب، لا تقلع عن التدخين، لا تعرض عن متابعة الأفلام الأمريكية ولا يرتاح إطلاقا لآرائها في إخوته في الله فتعتبرهم أصحاب سوء وتظن أنهم أخذوه إلى جهة في الحياة لا تليق به. يغضب منها كثيرا عندما تقول له ذلك. كان في البداية يضطرّ لخلق أكاذيب صغيرة ليتفادى انتقاداتها اللاّذعة، يقول لها إنه يراجع دروسه مع صديق له في حين أنه في درس ديني في أحد الجوامع التي تتبعهم، يقول لها بأنّه سيذهب مع أصدقائه إلى بيت أحدهم لأيّام قليلة من أجل مراجعة مركّزة استعدادا لامتحانات التأليفي ويذهب إلى مخيم للتدريب العسكري في جبال بو قرنين.

قال لهم أبو شدّاد إنّ الكذب جائز في المصلحة ثمّ "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؟

فتح هاتفه المغلق الذي أصبح لاعتبارات أمنيّة يغيّر رقمه باستمرار ونقر رقمها الذي يحفظه عن ظهر قلب، فجاءه صوتها واهنا:

- ألووو

- السلام عليك.

أشرق صوتها متلهفا:

- أين أنت يا ربيع؟

- لا بأس يا أمي، اطمئني، أنا بخير.

- لقد تأخرتَ عني يا ولدي، قلقت عليك كثيرا...

- لا بأس، قد يطول غيابي هذه المرة، المهم أنا بخير وفي أمان.

انتابت أمه حالة من التوتر الشديد، لا تدري لماذا شعرت أنها مكالمته الأخيرة هتفت متضرعة له:

- ما معنى هذا الكلام يا ربيع؟ كأنك تخفي عني شـــيئا يا ولدي؟ ماذا ستفعل بأمك يا عزيزي؟

كانت تتوسل إليه بصوت مبحوحا فيه غصة من شدة حرقتها عليه وهو يرد ببرود شديد:

- أنا بخير.

تسـتجديه والدموع تنهمر غزيرة وهو في مكانه البعيد لا يكف عن لوك نفس الجملة وقد بدا عليه الضيق:

- قلتُ لك سأكون بخير.

عندما لم تشعر بتجاوبه نفد صبرها فصرخت بصوتها المبحوح:

- أين أخذوك أصحاب الشؤم؟ لقد أفسد أبناء الحرام حياتك.

أغلق الخط بعنف.

لا يطيق ربيع أبدا من يذكر إخوانه بســـوء، عرف طريق الحقّ معهم واختبر القوّة والشجاعة فيهم، لا تعلم أمه أنه اختار طريق الله ولن يتراجع عنه لكن لا يخفي أنه شـــعر بقلبه ينقبض وهو يغلق الهاتف في وجهها وظل صـوتها المكلوم معلقا في الفضـاء وفي ذاكرته. كان رتل السيارات يســير من تونس العاصـــمة إلى الحدود الليبية هو في ســيارة تجمعه مع صابر وفيصل وشاب اخر لا يتذكره وأمل في سيارة أخرى رفقة أختين. تمر السـاعات والمسـافة تمتد بينه وبين عائلته لا يجب أن يشـعر بالخوف وهو يبتعد عنها، اخوته في الله هم العائلة الحقيقية التي ينتمي إليها الآن. برق في ذهنه أبوه بملامحه الغامضة منذ أن أصبح شابا لم يشعر يوما أن والده قريبا منه، كان يحب أن يقول له أنه الآن وجد المثال في حياته وهم مجموعة من الرجال هم اخوته في الله، وارتسمت ابتسامة رضـى وغمغم في سرّه "كم أنا على حظ كبير بصـحبتهم"، تذكر أمّه ثانية وشـعر بغصّـة في حلقه هل يغفر لها موقفها من إخوته فهي تنعتهم دائما بالجرذان والتيوس؟

يعتبر أمّه مرتدّة تعترض كثيرا على صــحبته لإخوانه الأخيار ولا تريد أن تفهم أنـه اكتشـــف معهم طريق الحق، ثم إنها عَلمانية وتخرج في مظاهرات ضـــد حكومة النهضـــة المُســـلمة، يذكر أنها كانت تشـــتم هذه الحكومة عندما ســـلّمت البغدادي المحمودي إلى الســـلطات الليبية، تلعنهم

بـأفظع النعوت وتســبّهم وتقول إنهم اختطفوه وســجنوه ثم بـاعوه إلى ميليشيات ليبية، ما الذي يعنيها من أمر المحمودي؟ ألم يكن رئيس وزراء في حكومة طاغية لا تحكم باسم الإسلام؟ ألا يعتبر مرتدا ويحلّ دمه؟ لكل ذلك يحق لجماعة إســلامية أن تســتفيد منه وما العيب في أن تربح بعض المليارات مقابل تسليمه؟

تلك شطارة كما يقول أبو شداد وليست خيانة كما تقول هي.

وجد فيما تذكره من أمه حجة قوية ليبعدها عن ذاكرته وهو يتمتم كعادته "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"..

مازال رتل السيارات يسير في اتجاه الحدود الليبية لا يجب أن يرتبك وهو يبتعد عن تونس، لا يعتقد أنها مغامرة حتى يخشـــى عواقبها بل إنه واجب يقوم به من أجل دولة الخلافة وطنه الحقيقي الآن، يذكر جيدا ما يقوله أبو شـــداد في كل مرة "الوطن ليس الذي نولد ونعيش فيه ونحمل هويته بل الوطن الحقيقي هو الذي يكون الإسلام فيه دينا ودولة".

عند الحدود التونسية الليبية سلموهم جوازات سفر، وتفاجأ ربيع، فهو لم يسلمهم سوى صورة له ومضمون ولادة ولا يعرف كيف استطاعوا أن يستخرجوا جوازات سفر حقيقية، اِزدادت ثقته برجال الدولة الإسلامية ولا يجوز له أن يسأل كيف فعلوا ذلك فقد تعلم أن يحتفظ بأسئلته لنفسه ويسّـــلم أمره مطمئنا لرجال الخلافة. في البوابة الحدودية كان يســـترق النظر إلى أمل وهو سعيد يراها تترك حياتها من اجل دولة الخلافة وكانت أمل تفكر في ربيع وهي ســعيدة بمرافقته. غادروا جميعا البوابة الحدودية ودخلوا التراب الليبي بسهولة ودون تعقيدات تذكر.

لا ينكر أن مزاجه تعكر قليلا بسـبب مكالمة أمه لكنه تعكّر تماما عندما اجتازوا الحدود الليبية وأخذوا أمل.

أزعجه أنّهم فصـــلوه عن أمل أخذوه هو إلى التدريب وهي إلى جهة أخرى لا يعلمها ولم يسـأل عنها، طمأن نفسـه سـتكون بين أياد أمينة ولم يكن يدري أنه ألقى بها في الجحيم.

ســـلمهم أبو شـــدّاد عند الحدود إلى قائد آخر. كان القائد الجديد فارع الطول، صـارم الملامح بلحية كثة على أطرافها بقية احمرار من أثر حناء على سُـنة النبي الكريم وشـعره الطويل المجعّد لم ينسـدل على كتفيه فبقي منفوشا، كان مظهره سيثير لديه شعور الحذر وربما الخوف منه لكنه الآن

راه فشعر بالسعادة، هذا واحد من جند الله ومقاتلي الدولة الاسلامية ودعا الله في ســـره أن يثّبته على طريق الحق ليكون يوما مثله، تأمّل بإعجاب ســلاح الكلاشــنكوف الذي يتدلّى على صــدر القائد الجديد، قريبا سـيملك واحدا مثله وشعر بالزهو، القائد الجديد يتكلم لهجة هي خليط بين التونسية والمشرقية لذلك لا يستطيع أن يتبيّن بوضوح جنسيته ولم يكن ذلك مهما، لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى.

فهم ربيع أن اقامتهم على التراب الليبي محددة زمنيا وملزمة بتكوين عسكري قبل ان يتقدموا من اجل المهمة الأساسية التي يسافرون لأجلها لذلك لم يطل مقامهم بمدينة درنة. كان التدريب صـــارما يأخذونهم بعد صـلاة الفجر من معسـكر عَلِم أنه كان مبيتا مدرسـيا مخصـصـا لطلاّب المدارس في مدينة درنة، ثم يتوغلون بهم شـــرقا في غابة بو مســـافر بالمدينة يتدرّبون على أســـلحة مختلفة يتعلّمون أســـماءها وكيفية تنظيفها وطرق اســـتعمالها، يعدّون أهدافا لهم يســـمّونها أعداء الله من الكفّار مثل أوباما وطواغيت مثل بشـــار الأســـد ويتدربون على إطلاق النار عليها. يجمّعونهم لـدروس دينيـة مرتين في اليوم، الأولى عنـدمـا يعودون من التدريب العسـكري بعد صـلاة الضـحى فتخصـص لهم دروسـا في قيمة الجهاد في الإســـلام مدعمة بالأحاديث والآيات القرآنية التي تحفّزهم حتى أن الواحد منهم يصبح متحمسا لملاقاة الطواغيت وسحقهم.

أما بعد صـلاة المغرب فكانت تخصّـص للسـيرة النبوية العطرة وهناك من ترق نفسه فتخضّب الدموع لحيته من خشية الله ومحبة رسوله متشوقا للقاء الحوريات ثم يذهبون للنوم.

أبدى ربيع مهارة في التعامل مع الأسلحة وقنص الأهداف ولفت الإنتباه إليه بشـدّته، هو أيضـا لا يدري من أين أتت هذه الشـدّة ربما تلك طريقته ليؤكد صـــدق ولائه لدولة الخلافة ويســـتحق أن يكون من جند الله، تذكر فجأة والده تمنى لو أمكنه أن يرسـل له صـوره وهو في سـاحة التدريب، يعلم أن والديه يعتقدان أن النجاح في الدراســـة هو الهدف من الحياة لكنه الآن يفهم الحياة أفضـل منهما، النجاح هو المشـاركة في إرسـاء الخلافة على منهج النبوة.

مرات كثيرة أثناء التدريب تمنى لو أن أملا كانت معهم لترى صـــبره على قســـوة التدريب ومهارته في القنص، تمنى أن يراه أبوه الآن وهو أمهر من يطلق الرصاص من رشاش الكلاشينكوف. كان يقف بثبات وهو يوجه فوهة الرشّـــاش بدقة في اتجاه الهدف ويضـــغط على الزناد فينطلق الرصاص بلا شفقة وتنهمر المظاريف على الأرض.

غمرت ربيع ســـعادة كبيرة عندما كانوا في مطار معيتيقة الدولي بطرابلس متجهين إلى تركيا فقد كانت أمل معه ضـــمن مجموعة النســـاء، لمحها وهي تقترب من مســـؤولة الجوازات، بســـرعة تعلّل بســـبب ما لا يذكره وانســـحب من مجموعة الرجال الذين كان معهم، اقترب منها، شهقت عندما رأته فابتسم لها:

- السلام عليكِ إلى أين أخذوكِ؟ هل أنتِ بخير؟

لاحظ أنّ نظراتها زائغة وبدت له شـــاحبة قليلا ولكنها كانت جميلة كعادتها بسرعة غضّ بصره ونظر إلى مربعات الرخام اللامع في أرض المطار.

قالت وهي تلتفت حولها: - كأنها تخشى أن يراها أحد -

- أنا بخير، أنا بخير كنت أحسب أننا سنكون في نفس المخيم...

ردّ بسرعة وكأنه كان يخشى أن ينتهي الحديث معها بسرعة:

- عندما فصلوكِ عني في الحدود علمتُ أنك ستكونين بأمان.

رفعت بصـــرها إليه وتلعثم لســـانها بدأت مرتبكة كأن الكلام يغصّ في حلقها، في تلك اللحظة اقتربت منهما أخت بالنقاب لا تظهر منها ســـوى عينين حادتين وهي تسحبها من يدها وتقول لربيع بصوت صارم:

- يمنع الاختلاط أيها الأخ...

بسرعة أخذتها منه، شعر للمرة الثانية ورغما عنه أنه أصبح بلا قلب.

في الطائرة، كانت ضـــمن مجموعة الأخوات، لمحها تلتفت إليه وهو صـــحبة مجموعة الرجال وتمنى لو أمكنه أن يتحدث معها، أن يطمئن عليها لا أكثر..

كان على يقين أنها ســعيدة وهي تهب حياتها لدولة الإســلام وتكون من جند الله، وردد بصوت مرتفع قوله تعالى "كُتِبَ عَلَيْكُمْ القِتَالُ وَهْوَ لَكُمْ كُرْهٌ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهْوَ خَيْرٌ لَكُمْ".

كانا معا في نفس الطائرة لكنهما شعرا أنهما بعيدان جدا عن بعضهما.
تذكر أمه، شعر أنه الآن يُسحب بعيدا عنها، ولينفض عنه حالة الوجوم وحتى لا يدقه مسمار الندم مثل أمه قال لنفسه مثل كل مرة بصوت مسموع "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق".
يجب أن تكون أمه سعيدة به ويكون والده فخورا لأنه الآن جندي في الدولة الاسلامية مستعد لساعة النفير وقطع الرؤوس وستكون خلافة على منهاج النبوة.
ولم يكن يدري ما تخبّئه له الأيّام.

36

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري

الساعة الثانية و30 دقيقة بعد الظهر (بتوقيت تونس)
في مصحة الهناء، الغرفة رقم 216

دخلت الممرضة غرفتها مبتسمة:

- حمدا لله على سلامتك سيدتي، يبدو أنّ الارتطام كان شديدا ولكن الله حماك.

ردّت ثريّا:

- هل يعني أنّ ما تعرّضت له كان بسبب تهاون البوليس.

صمتت الممرّضة قليلا ثمّ أضافت كأنّها لم تسمع سؤال ثريّا:

- رائع أنّك هنا، ولم تري الفوضـــى الشـــديدة التي عمّت البلاد هذا الصباح.

قالت ثريا بصوت واهن:

- هل ســـأغادر اليوم، أحبّ أن أعود إلى بيتي، يجب أن أعرف ماذا حصـــل لي عند الحاجز الأمني عندما عزمت أن أخبر رئيس الدولة بكل شيء، هل فعلا ضربوني فشجوا رأسي أو أني سقطت من بين أيديهم. في الحالتين سأشكو البوليس لرئيس الدولة.

تريد أن تســـتيقظ من هذا الكابوس وتغادر المصـــحة وتعود إلى بيتها وعائلتها ومكتبتها وعوالمها الجميلة تريد أن يعود إليها ولدها. تشـــعر أن المصـــحة قد تحولت إلى ســـجن رغم أنها تقيم بها منذ مســـاء أمس فقط. رفعت كفها تتحسس أثر الجرح في رأسها، لا تستطيع أن تتبيّن إلى الآن ما الذي حدث لها بالضبط وعليها أن تطالب بالتقرير الطبي لتفهم ما الذي حدث. تشعر بأنّها تحوّلت إلى كومة من الأحزان والخيبة. ذاكرتها سوطا يهوي عليها فيخلف جروحا، ذكرياتها تدمي قلبها بما تخلف لها من صور عن حياة أحبطتها وعن ولد فقدته ولا تعرف الآن كيف تسترده.

سحبت الممرضة الملف الطبي من اللوح الجانبي لسرير ثريا نظرت فيه، ثم قالت وهي تخرج آلة لقيس ضغط الدم:

- سيزورك الدكتور ثانية هذا المساء، هو الذي يقرّر بقاءك أو مغادرتك المصحة - أضافت - يقولون إنّه تمّ قطع الطريق عند المدخل الشماليّ للعاصمة من طرف التلاميذ احتجاجا على نظام الامتحانات...

ألقت ثريا رأسها على المخدة وأغمضت عينيها في استسلام وتذكرت التلاميذ الذين كانوا يتوافدون عليها في "مكتبة الحياة" التي تمتلكها ولم تعد تواظب على الذهاب إليها، تركتها للعاملة ولا تدري ما الذي حصل في غيابها، لم تكن المكتبة بالنسبة إليها محلا تجاريا ورثته عن أبيها وتعِينها على مصاريف الحياة فقط بل كانت تشعر أنها وطنها الصغير، اختارت لها رفوفا جميلة وأثثتها بكتب متنوعة في الفلسفة والأدب والعلوم والفنون والدين والمجتمع وقصص أطفال وكتب مدرسية كثيرة مع هدايا مختلفة وأدوات مدرسية مما يجعل زبائنها من كل الفئات.

ناقوس الخطر دُقّ في المكتبة نفسها ولم تنتبه، عندما جلست خلف مكتبها الصغير وتركت بصرها يجول في أرجاء الرفوف آلمها أن بعضها خالية من الكتب وبدت لها المكتبة حزينة تشبه حياتها، كان يجب أن تتفطن لربيع يعيد ترتيب المكتبة فيجعل من كتب محمد الطالبي ويوسف الصديق وألفة يوسف في الرفوف الأخيرة ويحجبها بكتب الأطفال، كان يأتي بكتب ابن تيمية وابن باز وسيد قطب التي بدأت تغزو المكتبات وأرصفة بعض الشوارع في العاصمة وتتكدس أمام الجوامع فيضعها في واجهة المكتبة.

ترسل تنهيدة طويلة كيف فاتتها كل تلك الإشارات، وتكبح جماح نفسها حتى لا تنفجر بالبكاء.

وضعت أمامها قهوة الصباح وأوراقا تخص ديونا أصبحت متخلدة بذمة المكتبة منذ أن أهملتها وبينما كانت تنظر فيها رنّ الهاتف، إنه رشاد صديق ابنها، رفّ قلبها وهي تمنّي النفس بخبر يخص ربيعا، هتف رشاد بصوت ملتاع:

- هل سمعتِ بالخبر الكارثي يا طا لقد اغتالوا شكري بلعيد، قتلوه أولاد الكلب؟

ظلت واجمة، نزل الخبر كالصـــاعقة عليها ولم تدري ماذا تجيب في حين واصل رشاد:

- اغتيل أمام منزله هذا الصـــباح أقصـــد منذ ســـاعة تقريبا، يبدو أن الإرهابيين قد دخلوا بنا مرحلة الإغتيالات باكرا، كلّ شيء متوقّع منهم.

لم تسمع ما قاله بعد ذلك لا تدري كيف رمت الهاتف من يدها وأسرعت تفتح جهاز الراديو الصـــغير فإذا بالمذيع يؤكّد الخبر وتتداخل أصـــوات المحللين السياسيين الذين هبّوا بسرعة إلى المنابر الإعلاميّة.

- ما الذي يحدث في البلاد، أيّ نفق دخلنا فيه؟ هل يؤدّي الربيع العربي إلى كلّ هذه المهالك؟

كانت وكأنّها تحدّث نفسـها وهي تدير رقم هاتف صـديقها عماد الذي ما إن هتفت "ألو" حتّى صرخت به:

- هل صـحيح ما حدث يا عماد، لا أصـدّق، سـمعتُ الأخبار الآن ولكن عقلي لا يصدق.

- كلّنا في حالة صدمة يا ثريا.

- منـذ أن أطلّوا علينـا لم نر منهم غير الخراب، تغوّل المحتكرون وارتفعت الأسـعار في كل شـيء وانتشـر الفسـاد والنشـل والرشـاوي والبيروقراطية وأتوا بقضـــايا غريبة لم نكن نســـمع بها من ختان البنات وتعدد الزوجات إلى تجنيد الشـباب وتسـفيرهم إلى جهاد النكاح الخ... ولا نفهم هذه الفوضـــى الرهيبة التي تغذّيها ميليشـــيّاتهم على الفايســبوك وفي الواقع.. وها هو الأمر يصـــل بهم إلى زمن القتل هل يعقل أن يحدث كلّ هذا في الربيع العربيّ...

شعرت بتيبّس في يدها فألقت بالهاتف على الطاولة وتناهى إليها صوت عماد ينبعث من سمّاعة الهاتف:

- إنّه زمن الغبار يا صديقتي..

لم تعد ترغب في سماع المزيد، كانت متفائلة منذ هروب بن علي تخرج في المسـيرات تطالب مع الجموع الغفيرة بالحرية والشـغل والكرامة ولم تكن تدري أن ثورة الربيع سـتتحول إلى ريح صـرصـر من الغبار تعمي العيون والقلوب، لا شيء واضح ولا شيء يبعث على التفاؤل، كأن الغبار تحول إلى شعار المرحلة.

أن يطمس الإختلاف بفوهة مســـدّس وأن يتحوّل الحوار إلى دم يتخثّر على الرصيف فهذا يعني أنّ الكارثة التي حلّت بالبلاد عظيمة. ما أصعب أن يتحوّل زمن الثورة الهادر بقيم الحرية والاختلاف والتسـامح إلى زمن الغبار يحمل التراب والقشّ ورائحة الدم يزحف على البلاد ويحطّ على العقول فتعمى...

مساء ذلك اليوم كانت تتابع بقلب منقبض التحليلات السياسية وتنتقل من قناة تلفزيونية إلى أخرى، جميعها تتحدث عن الجريمة الإرهابية البشـــعة التي تنذر بخراب يداهم البلاد فيغمرها حزن عميق. مدت ثريا يدها مرة أخرى إلى رأســها تتحسّــس الجرح الغائر كأنها لا تصــدق ما حدث لها وانفجرت بالبكاء، خرج صوتها واهنا ومتقطعا تسأل نفسها:

- هل سيعود ربيع؟

كانت البلاد تغلي مثل قدر على نار حامية، بعد العملية الإرهابية التي اغتيل فيها الزعيم اليساري شكري بلعيد لم تتوقف الاحتجاجات في البلاد، يقوم بها الغاضـــبون من حكومة الترويكا في شـــارع الحبيب بورقيبة للمطالبة بـــ"شكون قتل شكري[17]؟"، غير ان شيء في ثريا تبدّل كليا وإلى الأبد.

كانت منشغلة عن كل تلك الاحتجاجات والمظاهرات بولدها الذي أشعل النار في أحشـــائها واختفى تماما، تشـــعر أنها بلا ربيع مثل البلاد غريبة، مثل البلاد منهوبة ومسـتنزفة ومحبطة ومثلها تمشـي على رمال متحركة، ولم تكن تدري أن ما ينتظرها أشد هولا.

[17] "شكون قتل شكري؟: باللهجة التونسية تعني "من قتل شكري؟"، حركة احتجاجية أسبوعية (بلغت 250 وقفة احتجاجية) في شارع الحبيب بورقيبة (قريبا من وزارة الداخلية) رفعت هذا الشعار من أجل تحسيس الرأي العام بفظاعة الاغتيال السياسي والمطالبة بتحقيق قضائي في مثل هذه الجرائم.

37

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري

الساعة الرابعة بعد الظهر بتوقيت سوريا
المستشفى الميداني بالرقة
قسم الرجال

تغوص قدماه الواهنتان في الرمل الحارق فتثقل خطاه ويتملّكه الخوف الشديد، قروش ضخمة تسبح في الفضاء وهو يمشي وحيدا ومنهكا في صحراء قاحلة، تملّكه رعب شديد وهو يحسب أنها ستبتلعه وأيقظه صراخه المروّع فغادر منهكا هذا الكابوس الذي ما انفك يتكرر وزاد من سوء حاله.

لم يأت الطبيب منذ الصباح وذاكرته تنزّ، كانت حبّه الأوّل الذي نشأ بين مقاعد الدراسة ونما في قلبيهما واشتعل تحت سور المعهد الفني برادس الذي كان يدرسان به، يمدّ يده يتحسّس كفها ويبتسم لها..

أغمض عينيه وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وتمتم "ربّي اغفر لي ذنوبي واكتبني عندك من الصالحين". جاءت معه إلى الدولة الإسلاميّة وهي حجّته على صدق بيعته لأبي بكر البغداديّ واقتدائه بالسلف الصالح وتمتم "ربّي إجعلها في ميزان حسناتي في الآخرة".

يسكنه الآن حزن عميق أنّه سقط جريحا، لا هو من الموتى حتّى تكون الجنّة مآله والجواري من نصيبه ولا هو من الأحياء فيعود إلى ساحة المعركة ويدافع عن الله، إحباط شديد لا يخفّف عنه إلا دعاؤه بأن يكتب عند الله من الصادقين ولسبب لا يفهمه خطرت بباله أمّه وهذه المرّة ترك حنينه لها يتمدّد ودون أن يدري وجد أمنية تطوقه أن يغمض عينيه ويفتحهما فيجد نفسه في بيتهم ويرتمي في أحضانها، انتبه إلى مشاعره المنجرفة مثل ماء يجري في جدول وسط المروج، كان في حالة من الوهن إلى درجة أنه لا يستطيع رد حنينه.

لعن الشيطان واستنجد بالله ليستلّ هذا الحنين من جذوره، أمّه مرتدّة ولا يرضـــى الله عن المرتدّين، حتى وهو منهك الآن يذكر جيّدا حادثة تناقلها الإخوة بفخر وقعت قبل قدومه بأســابيع قليلة، أنّ أحد المقاتلين البررة من مدينة الرقّة أقام الحدّ على أمّه المرتدّة وكان ذلك إثباتا قاطعا عن صــلاح إيمانه وإخلاصه لدولة الخلافة الرشيدة، أمّ ربيع أيضا تعتبر في فقه دولته مرتدّة عن الإســلام، همس ربيع لنفســه بحديث للرســول صــلى الله عليه وســلم "لا يحل دم امرئ مســلم إلا بإحدى ثلاث، الثيّب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه" وأضـــاف "المرتد بإجماع العلماء مهما كان فهو كافر"، تمتم في سرّه "طوبى لمن أخلص إيمانه لله عز وجل".

تمنّى أن يمرّ به أحد فيطلب جرعة ماء أخرى، ليس أكثر من جرعة ماء صــغيرة وســتكون معجزة لو يزوره الطبيب اليوم فيخفّف عنه آلامه ويردّ إليه الحياة فيذهب إلى القتال.

همس "والذي نفسي بيده وددت أن أقتل في سبيل الله، ثمّ أحيا، ثمّ أقتل، ثمّ أحيا، ثمّ أقتل، ثمّ أحيا، ثمّ أقتل[18]."

ابتسم، يا لصوت الرصاص كم يشبه زغردة الفرح ومرة أخرى رغما عنه تذكر أنّ أمه كانت تقول له أنها تريد أن تتدرّب على الزغردة حتى تولول بها عند حصوله على شهادة الباكالوريا ولعن الدراسة، لعن الكتب والكراسات والأقلام والأوراق وناقوس المعهد، أصدقاؤه القدامى يجدّون من أجل اجتياز الامتحانات التي ستكون بعد أسابيع قليلة تبا لهم وإخوته في الله في ساحة المعركة يذودون عن الإسلام ويدافعون عن الله طوبى لهم. وهو هنا بعيد عن ساحة المعركة مُلقى كومة من الأوجاع واشتدّ أنينه يشعر أنّ كلّ سوائل جسده تتبخّر لذلك كانت أقصى أمنياته في تلك اللحظة أن يمنّ أحدهم عليه بجرعة ماء.

في القبو الذي تحول إلى مستشفى ميداني أعداد الجرحى تزداد والأنين يرتفع من حوله، مَن تأخذه غيبوبة شديدة مثل ربيع ولا يتعثّر بألم حادّ أو كابوس مرعب يوقظه قد يتحوّل إلى جثّة هامدة يدعون لصـــاحبها أن يُحسب عند الله من الشهداء، يمسكونه من رجليه وكتفيه مثل جذع شجرة أكلها الســوس إلى حفرة يُلقى فيها دون كفن ويُردّ عليه التراب ويتركونه وحيدا مع الحوريّات الجميلات.

---

[18] حديث للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم عن أبي هريرة رواه البخاري.

يتلمّظ ريقـه المرّ، هـذا اليوم لا يريـد أن ينتهي، والطبيـب لا يـأتي والمسعف لا يمرّ به وهو يدعو الله أن يقوّيه في محنته.
اسـتمتع بذاكرته دواء ينعشـه تشـدّه للحياة وتعود به إلى الوراء تدريجيّا تطرق أبواب المحطات التي مرّ بها، تفتحها فتندلق الصـــور عليه كأنّها دفقات ماء تنعشه وتهدّئ عطشه المتأجّج، تبدو ذاكرته حية وحرة لم تتأثر برطوبة المكان ولا بأنين المرضـى ولا بأوجاع ذراعه، هنا يرقد في القبو الرطب الذي جاءه من ساحة المعركة أين خاض أول مواجهة عسكرية له بعد أن قضـــى فترة في المعســـكر وكان قبلها في مدينة الرقة عبرها من خلال تل ابيض بعد ان اجتاز الحدود التركية السورية و يتذكر جيدا عندما كان في مطار إسـطنبول قادما من ليبيا اين قضـى فترة تدريب عسـكري وروحي في غابة بو مسافر قريبا من مدينة درنة ويتذكر جيدا انهم وصلوا الحدود الليبية بعد ان انطلقوا من جامع الفتح بالعاصمة تونس

تسـرع ذاكرته الخطى في اتجاه الماضـي تماما مثل أفكاره التي تتغذى على ماضي السلف الصالح. كأن الذاكرة تتأثر بطريقة تفكير الشخص ان زهد في الحاضـــر وانكمش على زمن قديم فإنها مثله لا تعرف ســـوى المشـــي إلى الخلف كأنها تريد أن تعود به إلى اللحظة البيضـــاء قبل ان تتحول نسائم ذلك المساء إلى ريح صرصر تأتي بالغبار تقتلع الورود التي تعترضها وترمي بها في دروب شتى..

كان فضـوله شـديدا عندما اقترب من شـبان بلحي خفيفة رآهم لأول مرة في خيمة دعوية أمام المعهد بلباســـهم الطائفي الذي يســـمونه القميص الأفغـاني الأبيض ويتكلمون بـأصـــوات هـادئـة. اِقترب ربيع منهم وهم متجمعون حول آلـة تســـجيل كبيرة تنبعث منهـا آيـات من الذِّكر الحكيم وأدعية مؤثّرة وبين الحين والآخر يتناول أحدهم المكروفون يدعو التلاميذ والتلميـذات إلى الإقتراب منهم لمـدّهم بمطويّـات فيهـا تعـاليم الإســـلام وأحاديث للرسول الكريم ويوزّعون عليهم هدايا صـغيرة هي كتيبات دينية معروفة وأساسية عندهم مثل "الأربعين نووية"...
كـان مترددا في الإقتراب منهم ولم يطـل بـه الأمر فقـد تلقفـه أحـدهم بابتسامة مشجعة وأخذه إلى حيث يريدون.

هناك التقى برامي طالب بكلية الطب ويسكن الجهة الشرقية الأكثر فخامة في حيّه، كانت علاقته به عابرة، لكنّ الإسلام جعلهما أخوين، فالصداقة إذا قويت صارت أخوّة. كان رامي يردّد دائما حديثا لحسن البصري يقول فيه "إنّ إخواننا أحبّ إلينا من أهلنا وأولادنا لأنّ أهلنا يذكروننا بالدنيا وإخواننا يذكروننا بالآخرة"[19].

يذكر جيّدا أوّل لقاء له برامي في احدى مساءات الأيام الدعويّة شغله بالحديث عن ميسي وفريقه المفضل فريق برشلونة إلى أن وجد نفسه قد وصل به أمام الجامع فقال له من خلال ابتسامة هادئة:

- تعال صلّي معي ونواصل حديثنا.

يعتزّ ربيع كثيرا أنّ أوّل صلاة له كانت مع رامي، في البداية كان يحدثه كثيرا عن فريق برشلونة ويعجب بقدرته على تحليل المباريات وفهمه لمختلف تكتيكات اللّعب وبنفس تلك المهارة كان يتحدّث عن قيمة الصلاة ويُعجب به كيف يجمع بين سحر الكرة وسحر الصلاة ويردّ ذلك إلى بلاغته الفصيحة وذكائه الحادّ فيزداد إعجابا به.

أصبح ربيع لا يفارق رامي يعجب بتدينه الشديد وتواضعه الكبير، وهو ما يجعله شخصيّة مُلهمة بالنسبة له خاصّة وأنّه باع الدنيا واشترى آخرته، علم ربيع ان رامي ترك خلفه كليّة الطبّ وثروة عائلته وحياة الرفاهة وأصبح يكنّى بأبي شدّاد وتحول إلى أحد أمراء الجماعة.

ليس من السهل أن يترك رامي إلى الأبد ويتحول إلى أبي شداد، لفت انتباه ربيع أن صاحبه "تحول" وبسرعة خاطفة ومضت في ذهنه شخصية قريقور سامسا الذي تحول بدوره إلى حشرة عملاقة، شعر بالصدمة كيف يقارن مثله الأعلى بالحشرة سامسا؟ تمتم يستعيذ بالشيطان الرجيم وشعر بخجل شديد من صاحبه، امتلكته رغبة شديدة أن يلحق به ويعتذر منه، لم يملك الجرأة ليفعل ذلك وظل فترة طويلة يشعر بالخجل منه ويحمّل المسؤولية للروايات والأفلام التي أفسدت ذوقه في التفكير.

[19] مقولة للحسن البصري وردت في كتابه "إحياء علوم الدين"وهو من أبرز الأئمة والمحدثين الذي يعتمد التيار السلفي على مقولاته وأرائه.

قاد أبو شـــداد ربيعا إلى حصـــص الدروس الدينية في جامع الرحمة برادس. هناك كان يصلي ويتعلم كيف ينصر الإسلام ويدافع عن الله، كان إخوته الجدد مستعدين دائما بأجوبتهم الجاهزة ليردوا على أسئلته الحائرة. اطمأن ربيع وهدأت روحه المتوثبة إلى كلامهم الناعم وابتساماتهم الهادئة وأصبح مقرّبا منهم وأصبح يتذكر وجه أبيه البعيد في مرات متباعدة.

وجد ربيع في الشـــبّان الجدد عائلة جديدة يهتمّون لكلّ وافد جديد، يعلمونه الصلاة ويقدمون في دروسهم أفكارا جديدة عليه وكانت مقارناتهم مســتمرة بين جاهلية العصـــر الذي يعيشـــونه وزمن الســـلف الصـــالح وينتصـرون دائما إلى السـلف الصـالح، علم لاحقا أنّهم سـاعدوا رضـا ولد حمّة العجّال على دفع تعاليم دراســـته في الســـنة الرابعة ثانوي وعندما تحصل على الباكالوريا تحول إلى دراسة علوم الدين في بلد شقيق وأيضا ســـاعدوا أنيس كعبورة ولد الهادي البرباش على العيش معهم، انتقلوا به إلى جامع الحرمين في المروج وأصـبح مسـاعد إمام الخُمس حتى يبتعدوا به عن أجواء عائلته المتوترة دائما ويجنبوه عربدة والده السـكير فأصـبح يقيم بالجامع ويشرف على نظافته وأمنه، وفروا له جراية محترمة إلى أن سافر معهم في إحدى رحلاتهم إلى سوريا للدفاع عن الإسلام.

بمرور الوقت حلّ اخوته في الله محل أصـــدقائه بل أصـــبحوا عائلته الكبيرة وتحول أبو شـــداد إلى مَثَلَه الأعلى في الحياة، عندما اطمئنوا الى ايمانه الشـــديد بكل أفكارهم أخذوه إلى جامع الفتح أين أعلن البيعة لأبي بكر البغدادي وهو أمر ســـري جدا لا يحب ان يتحدث فيه لكنه يذكر أن التهاني تغمره من كل جانب.

الآن هو مُلقى في قبو بارد، رائحة عفنة تنتشـــر في المكان، أوجاع ذراعه لا تهدأ وذاكرته تزحف ومقاومته تفتر ولم يتمالك نفســـه فانهار بالبكاء، شـعر أنّه بحاجة إلى لمسـة حانية، تذكر أمّه تقول دائما إنّ إخوانه الجدد كانوا يغســلون دماغه فيضـــعون السُـــمّ في أحاديثهم ثمّ يســـلبونه شـخصـيته بمسـاعداتهم وهداياهم. وكان يجب أن يطردها بسرعة من ذهنه حتّى لا تنغّص عليه ذكرياته الجميلة وهو يردّد في نفســـه أحد أحاديث الرســـول التي يؤثرها ولا يكرر غيرها "لا طاعة لمخلوق في معصـــية الخالق"، يســـتعيد تفســـير هذا الحديث حتّى يطمئنّ قلبه يقول ابن عثيمين

متحدثا عن الأم "لا حقّ لها عليّ ما دامت مرتدّة" ويؤكد ابن بازّ أنّ "لا طاعة لأحد حتّى في حلق لحية".

ندّت عنه تنهيدة وهو يقول لنفسه:

- أسألك ربّي أن تكتبني من الشهداء.

تلمّظ ريقه الذي شعر به لزجا وتمتم بحزن "ما أمرّ الشعور بالإحباط".

38

فتحت عينيها بصـــعوبة، وجدت نفســـها في مكان غريب تفوح منه رائحة رطوبة، أرادت أمل أن تتحرك فثارت آلام في جسـدها وأصـابتها الدهشة، جالت ببصرها في كل الجهات تحثّ ذاكرتها ما الذي أتى بها إلى هذا المكان، فجأة برق في ذهنها مشـــهد الصـــباح الدامي تذكرت جهاد النكاح وشـهقت، أغمضـت عينيها واندفعت في موجة بكاء مرير، اتجهت صوبها امرأة بمئزر أبيض:

- لا بأس يا أختاه، هوني عليك أنتِ بخير الآن.

أرادت أن تتحرك مرة أخرى فشعرت بآلام شديدة على مستوى حوضها وخرج صوتها ضعيفا:

- أين أنا؟

- أنتِ في قِسـم النِسـاء بمسـتشـفى ميداني تابع لمعسـكر الزرقاوي في مدينة الرقة.

جالت ببصـــرها في المكان ثانية فكان أقرب إلى قبو فســـيح بلا نوافذ تتبعثر فيه الأسرّة دون نظام

- ما الذي حدث لي؟

- نزيف شديد نتيجة تمزّق شديد في المهبل – ثم أضافت بهدوء شديد – يَحدث ذلك في أوّل زواج (صُـدِمت أمل حتى أنها توقفت عن نوبة البكاء، أضافت المرأة تطمئنها) ستكونين بخير.

الآن فقط تتأكّد ودون شـــكّ أنّ جهاد النكاح يعني أن تمنح جســـدها للغرباء، أن تتنازل عن نصفها السفلي لأزواج مؤقتين يعملون فيها مديات من حديد حتى يصـبحوا أكثر نشـاطا للحرب وأشـدّ اسـتعدادا للقتل والذبح. هالها الأمر، شـعرت بخواء كبير داخلها وتحسّـست جسدها كانت ترتعش من الفرح إذا لامس ربيع خدها بكف مرتبك، تذوب إذا تخلّلت أصـــابعه شـعرها المنسـدل على كتفيها وتدبّ في أطراف جسـدها حرارة لذيذة إذا اقتربت أنفاسه من أذنها...

الآن، تنظر إلى جسـدها كأنّه قطعة غريبة عنها، شـعرت أنّها تكره هذا الجســـد ولم يعد لها منذ الآن. هل كان ربيع يدري أن جهادها ليس للتمريض أو للتنظيف أو للطبخ بل لتكون وليمة فوق الفراش يفتتحها أمير

الفوج ثم توزّع على السوريين والباكستانيين والسعوديين والصوماليين والبوسنيين والتونسيين وغيرهم، هل يعلم ربيع الآن أنّها قطعت معه كلّ هذه المسافة حتى تغتصب بوحشية باسم الدين والاله يتفرج عليها ولا ينقذها؟

قالت الأخت الكبرى أم سلمان إن "أخوات الفراش جائز شرعا وأنّ الشيخ العريفي نفسه يرى "جهاد النكاح من موجبات دخول الجنّة".

شعرت أنّ هذا الجسد لم يعد لها وأنّ الأمل ضاع منها وتحوّلت إلى جثة. عادت تبكي بحرقة أشد، لا تعرف ماذا تفعل بنفسها، حطت الممرضة يدها على كتف أمل وقالت لها:

- اشربي هذا، إنه خليط من الحناء والحلبة المطحونة يصلح لمعالجة النزيف الشديد في جدار المهبل، ستشفين وستستعيدين قوّتك بإذن الله.

صُدمت، هل هذا دواء؟ ولم تكن تريد غير أن تبكي وتنتحب.

لا تدري ما الذي جعل حَدسها يخبرها أنّ ربيعا قريب منها، لا تدري كيف تفسّر هذا الحَدْس، مرّرت بصرها على جسدها الجريح، هل تسأل عنه؟ إن وجدته هل ستقول له إنّ حزنها شديد وإنّ خيبة أملها فيه وفي الجنّة التي قادها إليها كبيرة وإنّها الآن أصبحت مفرغة من كلّ شيء وممتلئة بالندم وخسارتها عظيمة، لكن هل يستحقّ أن تسأل عنه بعد كلّ الذي حدث لها بسببه وما الذي سيتغيّر إن هي التقت به؟ ربما مازال يحبها؟ لكنه تخلى عنها؟

روميو ضحى بحياته من أجل أن يموت بين يديّ جوليات، قيس بن الملوح ضحى بحياته من أجل ليلى وانتهى مجنونا يقذفه الصبية بالحجارة ويمدون ألسنتهم نحوه في سخرية. أمير سندريلا أيضا ترك كل شيء خلفه في سبيل أن يعثر عليها ويعيدها إلى حياته.

تذكرت فيلم تيتانيك، جاك لم يتخلى عن حبيبته رغم كل الظروف، لم يكن للفيلم أن يحقق ذلك النجاح الباهر لو أن جاك لم يضحي بنفسه من أجل إنقاذ حبيبته؟

يا إلاهي التضحية في كلّ قصص الحبّ دليل دامغ على صدق المشاعر، أين ذهب كلّ ذلك الحب الذي كان يكنّه لها؟

هل الحبّ وهم جميل لا يؤدّي إلا إلى المهالك والمنافي والمحارق.

الآن هي لا تريد منه غير أن يجد لها حلا، مثلما أتى بها إلى هنا عليه أن يساعدها على العودة إلى عائلتها.
فهل يصعب عليه هذا؟
هل حقا يمكن أن تجده في هذه الأرض الغريبة؟
قلّبت الأمر على وجوه عدة وفي النهاية قررت ألا تسأل عنه وعادت للبكاء.

مضت ساعات وهي ملقاة بإهمال على السرير، آلام أسفل بطنها لا تتوقّف، مدّت يدها تتحسّس بين فخذيها فتلمّست أثر دماء يابسة سحبت يدها بسرعة واختنقت بعبرات سدّت حلقها وشعرت بالعطش الشديد..
ما الذي فعلته بنفسها وكيف يرضى الله أن يحصل لها ذلك ولماذا بقي يتفرّج على هلاكها؟
كلّ الأسئلة بلا معنى الآن، لم يعد مصيرها بيدها ولم يعد لها الحق في أن تقرّر لنفسها ما تشاء.
تلتجئ إلى الدعاء تستغيث بالله أن يساعدها ومثل كلّ عاجز لا تقدر سوى على البكاء.
في المساء أيقظتها الممرّضة من غفوتها تسألها عن حالها ومدّت لها صرّة دافئة وهي تقول:
- خذي هذه يا أمّ براء، هذه صرّة أخرى بها بعض الحشائش المفيدة جدّا، غَلَيتُها الآن في قِدر من أجلك فهي دافئة، ضعيها أسفلك ستمتص كل الدماء المتجمّدة داخلك وتخفف آلامك بتكميد جروح المهبل.. خذيها إنّها أشياء مجرّبة استعمليها إلى أن تصل الطبيبة.
حدّقت فيها أمل فقالت الممرّضة بإصرار:
- قلتُ لك إنّها أشياء مجرّبة.
سألتها أمل بصوت ذابل:
- هل يأتي الطبيب؟
أجابت الممرّضة ويدها ممدودة بصرّة الحشائش:
- نعم، ستأتي الطبيبة يا أم براء، لكن في انتظار قدومها لا بأس ببعض الحشائش حتى تمتص الدماء المتجمدة التي خلفها التمزق الشديد في المهبل.

ظلت أمل تنظر إليها ببلاهة فتقدمّت منها الممرّضة تبسمل وتدسّ صرّة الحشائش الدافئة أسفل أمل وتدعو لها بالشفاء، تأوّهت أمل من الكِمادة وهي تضغط على جروحها الجديدة استلذّت الحرارة التي تنبعث من تلك الصرّة...

- قليل من الصبر وستشفين، هل تريدين شيئا قبل أن أغادر؟

برق في ذهن أمل سؤال يسكنها، هل تسألها عنه؟

لن تخسر شيئا، بعد قليل من التردّد قالت أمل:

- جئتُ من تونس مع خطيبي ولا أعلم عنه شيئا، أقصد كان سيكون خطيبي ربّما يكون هنا في المستشفى ماذا لو تسألين عنه؟ أريد فقط أن أطمئنّ عليه اسمه ربيع. جئنا مع الشباب المسلم من تونس للدفاع عن الإسلام ونصرة الله (أضافت بحزن عميق) قيل لي إن دولة الخلافة هي الجنة.

وأضافت باستعطاف:

- أرجو أن تساعديني، جازاك الله عنّي كلّ خير

ردّت الممرّضة:

- هناك جرحى من جنسيات مختلفة واسمه لن يقودني إليه لأن للجميع كنيات مختلفة، ثمّ لا يمكنني الدخول هناك، لكن سأسأل عنه الأخ أبا عبيدة المسؤول عن قسم الرجال في هذا المستشفى قد يدلنا عليه إن كان هنا.

غادرت الممرضة وتركت أمل تحملق في السقف الرطب واغرورقت عيناها بالدموع ولم تستطع كبح جماح نفسها فانخرطت في نشيج خافت.

39

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري

الساعة الثالثة و45 دقيقة بعد الظهر (بتوقيت سوريا)
في المستشفى الميداني لمعسكر الزرقاوي بمدينة الرقة
قِسم الرجال

ارتفعت الحمّى أكثر فجعلت وجهه محتقنا وحبّات العرق تسيل غليظة كان يغمغم بكلمات غير واضحة عندما اقتربت منه أمل صحبة الممرضة، ما إن وقع بصرها عليه حتى شهقت، كانت قد تحاملت على نفسها لتنهض من سريرها وفي كل خطوة تكتم ألمها حتى تراه ولم تكن تدري أن إصابته عميقة وحالته خطيرة. ارتبكت خطاها أكثر وهي تقترب منه ونادته:

- ربيع، ربيع...أنا أمل كيف حالك، هل أنت بخير؟

دنت منه أكثر فهالها وجهه شديد الصفرة وشفتاه الجافتان وأنفاسه اللاهثة ولحيته الخفيفة الشعثاء، نقلت بصرها إلى ذراعه أين تسكن رصاصة كافرة فأفزعها الدّم المتيبّس على ثيابه وعلى ضمّادة بدت متسخة وبالية، بصوت أعلى أجهدت نفسها ليبدو عاديّا متحاملة على ألمها:

- ربيع، ربيع...هل تسمعني؟

لم ينتبه ربيع إلى وجودها وظلّ يغمغم بكلمات غير واضحة ويرمي برأسه إلى اليمين مرّة وإلى اليسار أخرى، بدا عليها الفزع فمدت يدها إلى كتفه وهزّته، تتوسّل إليه أن يفتح عينيه ويراها:

- ربيع، ربيع...أرجوك افتح عينيك وأجبني، أنا أمل؟

بسرعة مدّت الممرّضة قارورة صغيرة ومرّرتها أسفل أنفه فشهق ربيع من أثر رائحة العطر اللاذعة وفتح عينيه فبدا بؤبؤهما أشد اتساعا وهو يحملق في وجه أمل وكأنّه يراها لأول مرة، فهتفت به:

- ربيع، أنا أمل كيف حالك؟

خيّل إليه أنه مازال يهذي فأغلق جفنيه، عادت يدها تهزّ كتفه وتهتف به بإلحاح، مرّرت الممرضة مرة أخرى قارورة العطر أسفل أنفه يستنشقها..

- ربيع، كلّمني أرجوك أنا أمل، هل أنت بخير؟

فتح ربيع عينيه ثانية وحاول هذه المرّة أن يثبّت بصـــره على وجه أمل وكمن تذكّرها زمّ شفتيه وكأنّه لا يصدّق أنها هي، بدا عليه الارتباك ولعلّه شـــعر بالخجل منها، لا يحبّ أن تراه ضـــعيفا، لا يتحمّل أن تهتزّ لديها صـــورة المقاتل الشـــرس لذلك لم يســـتطع أن ينبس بكلمة فعاد وارتخت شفتاه:

- ما الذي حدث لكَ، أخبرني؟

خرجت الكلمات بصعوبة:

- لا بأس، يهون كلّ شـــيء من أجل نصـــرة دولة الخلافة، في أوّل مواجهة عسكريّة مع أعداء الله رصاصة سكنت ذراعي، سيأتي الطبيب اليوم إن شاء الله، سأكون بخير وسأعود للقتال.

لم تسـتطع أن تتمالك نفسـها ولم تكن تدري هل تبكي حالته الخطيرة أو تبكي حالتها الرثة قالت:

- كنتُ قلقة، منذ أن افترقنا لم أعرف كيف أصل إليك؟

تذكرت جرحها النازف ويد الغريب الخشـنة تتلمّس جسـدها، أرادت أن تسـأله هل كان يعلم عندما أقنعها أن تذهب معه لنصـرة دولة الخلافة أنها ستجاهد بجسدها؟ هل كان حقا يعلم أنه أتى بها إلى هنا ليفرغ فيها الغرباء شحنة الكبت حتى يستعيدون قوتهم ويقتلون المزيد من الأبرياء؟

خرج صوت ربيع واهنا:

- أمل، قلقتُ عليكِ كثيرا هل أنتِ بخير؟

ابتســـمت من خلال دموعها وهي تراه يتكلّم، ثمّ عاد الحزن يســـكن نظراتها وخرج صوتها ضعيفا مرتعشا:

- أصبتُ بنزيف شديد يا ربيع...

أضـافت وهي تمسح الدموع المتقاطرة بنبرة اختلطت بالحزن مع شـيء يشبه السخرية:

- كلفّوني بجهاد النكاح، هو زواج مؤقّت لبضـــع ســـاعات مع المقاتلين للترويح عنهم وتخفيف الكبت عنهم..

صـمت ربيع، في لحظة نسـي جرحه الغائر والرصـاصـة التي تسـكن ذراعه والآلام المبرحة التي تدفعه للهذيان وتذكّر القائد الضـخم بشـعره المتهدّل والكلاشينكوف المعلّق على كتفه الذي لحق به في نقطة الحراسة، يدنو منه ويتحسّسه بيد مرتعشة..

شـعر أنّه يسـتفيق من غيبوبته ويواجه حقيقة قاسـية، في الظاهر بدا مرتبكا وفي الحقيقة كان مقهورا غير أنّه استعاد رشده في اللّحظة المناسبة وردّ بهدوء:

- لا يفعل رجال الدولة إلاّ الصواب.

ظلّت تنظر إليه وقد شـلّت أطرافها، أضـاف ربيع بهدوء شـديد وهو يغالب نفسه:

- جازاك الله خيرا، يجب مؤازرة الإخوة، إنهم في حاجة إلى ذلك، شعر أن دموعه تنسكب من عينيه إلى داخله، لا يراها غيره ولا يشعر أحد أنه يتهاوى الآن في حفرة سحيقة لكن لا يجب أن يبدو ضعيفا.

أجهشـت أمل بالبكاء، كانت تنظر إليه ولا تصـدق ما يقول، تبخرت الكلمات وشعرت بقبضة في حلقها تسد أنفاسها لا تدري ماذا تفعل بربيع هل تخدش وجهه؟ هل تسـتل بؤبؤ عينيه؟ هل تجثم فوقه وتخنقه بيديها حتى تطلع روحه؟ هل تبصق عليه؟ هل تفتك الكلاشينكوف من أبي عبيدة حارس قسم الرجال في المستشفى الميداني وتطلق الرصاص عليه؟

في لحظة شعرت أنها فعلت كل ذلك ولم تهدأ، صرخت في وجهه بكل قوة:

- أيها الوغد، عد بي إلى بلادي.

تحمد الله أنّ صـرختها تلك بقيت معلّقة في حلقها، لا تدري ما الذي يمكن أن يحدث لها لو وصلت صرختها إلى أبي عبيدة أو الممرّضة أو الأخت الكبرى ظلّت تنظر إلى ربيع واجمة وهي لا تصدّق.

في تلك اللّحظة عادت الممرّضـة تقول وهي ترفع أملا الجاثية عند سرير ربيع:

- أرجوك يا أمّ براء، لنعد إلى قِسم النسـاء، إن أطلنا المكوث هنا أكثر سينزعج الأخ أبوعبيدة..

قالت أمل وهي تتملّص من يديّ الممرّضة:

- ماذا سنفعل الآن يا ربيع؟

ردّ بصوت منكسر:
- لا بأس يا أمل، اطمئنّي أنتِ في دولة الإســـلام. - أضـــاف بهدوء غريب - نحن بين أيدي آمنة يا أمل، ندعو الله أن نســـتعيد عافيتنا وندافع عن الله إلى آخر رمق.
لاحظ ذبولها وانكسارها وشعر بإحباطها الشديد، أحسّ أنّ من واجبه أن يرفع معنويّاتها فقال لها بصوت حاول أن يرفعه:
- ما فعلناه هو الصواب، كوني قويّة.
عادت الممرّضة ترفعها بإصرار أشدّ وهي تقول:
- أرجوك يا أمّ براء، لا أريد أن تسبّبي لي مشاكل مع الشيخ أبي عبيدة، هيّا عودي إلى قسم النساء.
لا يذكر ربيع ســـوى خطى متعثّرة لأمل وهي تغادر رفقة الممرّضـــة وآخر ما كان منها وهي توشك أن تخرج من الباب الصغير نظرة غامضة لم يفهم هل كانت لوما أو ندما؟
حاول أن يعيد تفاصيل هذه الزيارة حتّى يثبّتها كحقيقة ولا تدفعه الحمّى الشديدة إلى الاعتقاد أنّها وهم من صنع هذيانه.
ما لبث أن عاد إلى غيبوبته ليســـقط في صـــحراء قاحلة وهو يلهث والقروش تسبح في الفضـاء تلاحقه، في كل خطوة يخطوها يحسـب أنها ستفتح فمها الممتلئ بالأسنان الحادة وتبتلعه.

40

في البيت الكبير كانت الأخت الكبرى تلزم الجميع ببرنامج يومي مكثّف تشغل به الأخوات، يجمع بين دروس دينية في الفقه والسيرة النبوية وأخرى تهتم بواجبات المرأة المسلمة في دولة الخلافة، في زحمة تلك الانشغالات التي تحيطها بهن عادت أمل إلى البيت الكبير ولم يهتم بها أحد كأنها قطعة من أثاث البيت وردّت لمكانها، تشعر بوحدتها وانكسارها ويتعمّق لديها الشعور باليأس من كلّ شيء ربما لذلك كانت تحب ان تنعزل عن بقية الأخوات، لم يفت الأخت الكبرى أن تلاحظ ميل أمل للصمت والوحدة فغضت الطرف عن العلاقة التي بدأت تنمو بينها وبين السبية الجديدة وفي ذهنها ان السبيّة قد تسلي أمل قليلا وأمل قد تؤثر فيها فتدفعها للإسلام وهكذا ستكسب من الجهتين .

دخلت أمل على نادية فوجدتها جالسة على الأرض في مواجهة الحائط. طلبت نادية من أمل أن تقترب منها وأن تتحسس بأناملها الجدار الذي كانت تجلس في مواجهته. تلمّست أمل خربشات في شكل خطوط مختلفة لم تفهمها.

قالت نادية:

- أرسم بأظافري قريتي الكرديّة في جبل سنجار، تحسّسي هنا يا أمل هذه المربّعات الصغيرة هي بيوتنا التي لا نملكها، النظام السياسيّ لصدّام اقتلعنا من مناطقنا الأصليّة وألقى بنا في تجمّعات قسريّة لذلك نحن لا نملك الأرض التي نقيم عليها فنبني بيوتنا من الطّين وهذا يجعلنا ملتصقين بالتراب، نحن نتنفّس التراب ونحبّ لون التراب ونشتاق لرائحة التراب لذلك نحن اليزيديون يا أمل أقرب الشعوب إلى الله وأكثر الشعوب مسالمة ورغم ذلك تعرّضنا إلى حملات إبادة رهيبة عبر التاريخ زمن العثمانيين وزمن صدّام والآن زمن داعش وفي كلّ مرّة يقتل منّا الآلاف. اقتربي من هنا يا أمل تحسّسي هذا الخطّ المتعرّج إنّه الطريق إلى بيت خالي، لي ذكريات جميلة هنا، كنّا نجتمع مع بنات خالي في عيد النيروز نلبس ثيابا بألوان بديعة، نتبادل الزيارات ونغني.

تتنهد نادية وهي تضيف:

- ابنة خالي الكبيرة اسـمها كولي تعنّي الوردة بالكرديّة هي جميلة فعلا ومثل الوردة يا أمل، وقع اختطافها من طرف داعش أيضـا، علمت أنّه تمّ عرضها في سوق لبيع النساء وبعد ذلك غابت أخبارها تماما...

توقّفت نادية عن الحديث، كانت تبتلع غصّتها وتحاول التحكّم في نفسها حتّى لا تنفجر بالبكاء.

عادت تتحسّس أحد الخطوط التي خربشتها في الجدار وهي تقول:

- هل رأيت هذا الخطّ المستقيم يا أمل؟ إنّه الطريق الذي يؤدّي إلى معبد لالش، كانت أمّي تمنّي نفسـها بالحج هناك، لكن ذبحها الدواعش أمام أعيننا وقتلوا منّا الكثير.

لم تعد تسـتطيع أن تتمالك نفسـها فانفجرت بالبكاء، لم تعرف أمل ماذا تقول لنادية، هي نفسـها في حيرة من أمرها تشـعر أن كلّ عوالمها تنهار دفعة واحدة وهاجت الأسـئلة في ذهنها، أليس الإسـلام دين محبّة وسـلام؟ هل الإسـلام هنا إسـلام آخر غير الذي تعرفه؟ هل هذا يعني أنّ هناك أكثر من دين باسم الإسلام؟

قال الله تعالى في القرآن "ادْعُ إِلَى سَـبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالتِي هِيَ أَحَسَنُ" فلماذا يختارون القتل ويقومون بالسبي واسـترقاق غيرهم وتلك قولة عمر بن الخطاب الشـهيرة واضـحة متى اسـتعبدتم الناس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارا" كيف يبرّرون العنف والقتل والإبادة باسم الله وكيف يرضى الله أن يحدث كل ذلك؟

لكن لماذا تذهب بعيدا، هي نفسـها الآن رهينة في البيت الكبير ولا تعلم ما ينتظرها.

كان عقلها يغلي ويفور أسئلة، شعرت أنّها مع كلّ سؤال جديد تهوي في بئر سحيقة:

كيف زيّنوا لي أنّ دولة الخلافة جنّة وصدّقتهم؟

كيف يستبيحون جسدي باسم الله؟

هالها ما انتهت إليه "أيّ إله يرضى بكلّ هذا الظلم ولا يفعل شيئا؟"

انتبهت وهي تقول "أكرهك يا ربيع" تُرددها بشـكل متواتر وتضـغط على الحروف فتخرج الكلمات متقطعة "أكرهك يا ربيع، أكرهك يا ربيع، أكرهك يا ربيع..." غير أنّ ما تقوله لا يسـمعه غيرها، كانت قد تحوّلت إلى فتاة منهوبة من الداخل وتشعر أن لا قيمة لها.

لاتزال نادية تبكي وأمل تنظر إليها صامتة والأفكار تتشابك في رأسها وتسحبها إلى هوّة سحيقة وعادت تسأل نفسها "ما الذي أتى بي إلى هذا الجحيم؟".

كانت الأسئلة تتلاطم في رأس أمل وكعادة جميع من في البيت الكبير مجبرة أن تقرأ القرآن فمرت على آيات عديدة تقرّ بالاختلاف بين الناس، في سورة هود قرأت "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَاسَ أُمَة وَاحِدَة وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ" لماذا في دولة الخلافة لا يقرؤون القرآن، خلقنا الله مختلفين في الأفكار واللّغات والأعراق والألوان والأديان والثقافات فلماذا يرفضون نِعمة التنوّع التي حبانا بها الله؟ ألا يرون الطبيعة مختلفة بهضابها وسهولها وبحارها وجبالها؟ ألا ينتبهون إلى الأزهار تنتشر بكلّ الألوان والأشكال؟

أغلقت أمل كتاب القرآن، إسلام في بلادها يجعلها تحبّ الله وإسلامهم هنا في دولة الخلافة وما يفعلونه بها وباليزيديين يجعلها تكره الله وانخرطت في البكاء.

وجود نادية اليزيديّة في حياة أمل زاد من أسئلتها وعمّق حيرتها وأثخن جروح في روحها وجسدها، غير أنّ شعور كلّ فتاة منهما أنّها غريبة في وضع غريب صنع نوع من الألفة بينهما تحوّلت تدريجيّا إلى صداقة.

****

ذات يوم، أغلقت نادية الغرفة عليهما، وطلبت من أمل أن تقف حذو الباب لحراستها، وضعت نادية غطاء أبيض على رأسها ووقفت قرب النافذة، وجهها في اتّجاه الشمس التي ترسل أشعّتها إلى الداخل، رفعت سبّابتها إلى الأعلى وبدت منشغلة بتراتيل وأدعية بلغة غير مفهومة، كانت ترفع صوتها بهمهمات تشبه التراتيل والأدعية، سرت في جسم أمل قشعريرة جعلتها تنظر بوجل إلى ما تفعله نادية. عندما فرغت التفتت إلى أمل وكأنّها تفاجأت من وجودها، قفزت إليها، احتضنتها وانهمرت الدموع من عينيها وهي تقول:

- أرجوك يا أختي، عديني أن لا تحدّثي أيّ شخص بما رأيت، أنا أخافهم جميعا.

رفعت أمل رأس نادية المندسّ في صدرها وقالت:

- لا تخافي لن أخبر أحدا.
كانت نادية تبكي وتحاول أن تسيطر على نفسها حتّى لا يُسمع بكاؤها خارج الغرفة، ضمّتها أمل بلطف وهي تكرّر:
- لا تخافي يا عزيزتي، أنا مثلك خائفة منهم.
هدأت نادية قليلا وبدا الوقت مناسبا لتسألها أمل:
- هل هي صلاة؟
أومأت نادية برأسها "نعم" وهي لاتزال ترتجف من الخوف.
- بأيّة لغة؟
أجابت نادية بصوت مرتجف:
- قلت لك أنّي كرديّة من اليزيديّن، لنا ديانة خاصّة بنا ونصلّي باللّغة الكرمانجيّة.
ردّت أمل بصوت مفعم بالثقة والإيمان:
- لا أجد مشكلة في اختلاف الأديان يقول تعالى "لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِينِ".
تحسّست نادية صدرها ومدّت أصابعها المرتجفة داخل حمّالة الصدر لتخرج قطعة نحاسيّة صغيرة، بَسَطَتْ كفّها إلى أمل وقالت وهي تشير إلى رسم نُقش على القطعة النحاسيّة:
- هل ترين هذا الرسم؟ إنّه طاووس رمز دينيّ عندنا، يشير إلى القوّة والحكمة ويمدّنا بالأمان - أضافت بثقة كبيرة وهي تشير إلى الطاووس - سيساعدنا هذا على الخروج من هذا المنفى.
هتفت أمل:
- اللّهم يا رجائي.
ولم تسأل إحداهما من سيخلّصهما من قبضة الغبار، هل هو طاووس الملك الذي تشير إليه نادية في القطعة النحاسيّة أم الله الذي يسكن قلب أمل؟

41

في جهة من المدينة، يقع بيت الكاتبة فاطمة بن محمود التي تركت مكتبها وقد تكدّست عليه أوراق كثيرة وجذاذات مختلفة عليها ملاحظات تخصّ كلّ شخصيّة في الرواية، جَلسَتْ إلى طاولة المطبخ لتكتب، شعرت ذلك المساء أنّها على غير عادتها محظوظة فاللغة طيّعة والسرد ينساب يسيرا، لذلك كانت تريد أن تستغل هذه اللّحظة الملهمة فلا تنشغل بغير هذه الرواية التي أرهقتها، لا تريد أن تعترف أنّها أحيانا كان يغلبها الشجن وهي تقتفي أثر الذاكرة لدى الشخصيات تمشي مرة إلى الأمام مع ثريا وتتراجع إلى الخلف مرة أخرى مع ربيع. لا تنكر أن زمن الذاكرة أرهقها وهو يختزل الأحداث في يوم ونصف يوم ثم يتفتت إلى ساعات ودقائق. كعادتها كانت تكتب كأنها تنزف وسرعان ما تتماسك ولا تريد أن تعترف بأنها تتألم لأجل الشخصيات التي يحركها الإحباط ولا تعرف مآلها وترغب أن تتخلص من الرواية حتى تستريح من هذه الشخصيات التي تحل محلها في كل مرة فتشعر بوهنها واحباطها وعنادها ويمتلكها الرعب عندما تشعر إنّها مكان ثريّا.

مرّات عديدة كانت تتوقف عن الكتابة بهدوء شديد تضع يدها على مقبض الباب وتفتح غرفة ابنها لتطمئنّ أنّ صورة ميسيّ تحتلّ جزءا كبيرا من الجدار وقيتارته معلقة في مكانها، صحيح أنّه لم يلمسها منذ أن اقتربت امتحانات الباكالوريا ولكن لا بأس، لا شيء تغيّر في غرفته، لم يبدل أصدقاءه، لازال يتلذذ ما تطبخه ويصدح صوته بالغناء وهو تحت الدشّ، يتابع مباريات البرصا في البيت فيصرخ كلما سجل أحد لاعبيه هدفا أو كاد. ويضحك كلما مرّ بأصص تَرَبَي فيها نعمان وحورية النباتات التي تحبها. تطمئن فتغلق باب الغرفة وتعود إلى أوراقها لتكتب.

يصيبها أحيانا الجفاف مثل أرض لا يطلّ عليها الربيع، يحدث ألا تخضع اللّغة لها وتظلّ عنيدة وجامحة لا تدرّ حليب السرد فكانت تبتعد عن الرواية، تتلهّى بأيّ شيء، تجرّب وصفات جديدة في الأكل، تغيّر ديكور الصالون، تبدّل تسريحة شعرها وأحيانا يروقها أن تكدّس كلّ الملابس في خزانتها على أريكة لها وتعيد طيّها وترتيبها، لا تريد أن تفكّر في مأزق أمل ولا تحبّ أن تتذكّر معاناة ثريّا وتهمل ربيعا تماما ولا

تنشـغل بأمر البلاد الفوضـويّ. لاحظت الكاتبة ان الذاكرة عند ربيع كانت تسير الى الخلف دائما وعند امه كانت تسير الى الامام دوما هل يعني ان هناك علاقة بين طريقة تفكيرنا وعمل الذاكرة؟ بدت الأســـئلة مرهقة لها فتركت القلم جانبا وفتحت النافذة تشـعر بالاختناق وكأن هذه الشـخصـيات تلبسها فعلا ولا تحبّ أن تتسرّب إليها كل هذه الأجواء الخانقة التي تعيشها تلك الشـخصـيات فيستفيق الكلب الأسود النائم في أعماقها وتسيطر عليها حالة الاكتئاب.

لا تدري لماذا اختار تشرشل أن يسمّي الاكتئاب بالكلب الأسود فهي منذ أن عظّها كلب الجيران وهي بعد طفلة صـــغيرة تنفر من الكلاب، كانت أمام البيت بوجه مدوّر وشـــعر منفوش وفي يدها دمية صـــنعتها لها أمها بعيدان في شكل صليب ألبستها قطعة قماش ملونة، وفجأة لا تدري من أي جهة طلع كلب الجيران وانقض عليها، كان صـــراخها شـــديدا عندما هبّت إليها عائلتها وفرّ الكلب بعد أن ترك أثرا غائرا لأنيابه في عضـــلة ســـاقها والدم يتفجّر غزيرا ويدها لا تزال تمسك بالدمية في شكل صليب وترتدي قطعة قماش ملوّنة.

عندما تفكّر في الاكتئاب تحبّ أن يكون له اسم آخر حتى لا تتذكر كلب الجيران الشرس لكنّها رغما عنها تجد أنّ الاكتئاب فعلا مثل كلب الجيران يربض على مقربة منها ولا تراه، قد تكون منشغلة عنه بشيء مّا بدروس تلامذتها أو بشـــؤون البيت أو بمتابعة فيلم أو بالنوم وفجأة دون ســـبب واضـــح ينقضّ عليها الاكتئاب ويغرس أنيابه في روحها ويســـحبها إلى منطقته فتشـــعر بالفراغ يبتلعها، يســـتل منها حياتها فلا تعد تعنيها كل التفاصـيل التي تصـنع سـعادتها وتشـعر أنّها عبء على الحياة وبلا معنى، يســـحب منها الاكتئاب مدرســـتها وأصـــدقاءها وعائلتها وبيتها وأقلامها وروحها فيسـكنها الشـعور بالغربة ويتكثّف لديها الحزن فتتحوّل إلى جثّة تتنفّس.

حتّى تواجه شراسة الكلب الأسود الذي يسكنها كانت فاطمة بن محمود تحاول أن تبتكر حيلا تجعل حياتها متجدّدة ومشرقة، لذلك غادرت المطبخ وقادت ســيّارتها إلى مقهى "مارينا" الصـــغير على شـــاطئ حلق الوادي تتلهّى بالصيّادين ينتشرون على صخور الشاطئ بقبضة حازمة يمسكون صنارات الصيد في أياديهم ويحدث أن تنحصر قمصانهم على سواعدهم

فتبدو أوشـــام لثعابين تتلوى أو أزهار يانعة أو قلوب تنزف دما، ينفثون دخان ســـجائرهم ويتحدثون بصـــوت مرتفع عن الدربي بين الترجي والإفريقي وتفكر أي رعب ينتاب ســـمكة صـــغيرة ســـيئة الحظ أغراها الشاطئ الهادئ فتعلق بصنارة أحدهم، يحدث أن ترى نفسها أحيانا سمكة محبوسة في زجاجة وشعرت بشيء يخزها لذلك حولت بصرها إلى فتاة تجلس وحدها على طاولة قريبة بدت واثقة من نفســـها وهي تتحدث عبر الهاتف وتضحك فترسل قهقة تتركها تندفع من فمها دون أن تتدخل لتكبح جماحها فتبدو مثل قطعة موسيقية تخترق هدوء المقهى، تبتسم الكاتبة في سرها ولا تدري لماذا اعتقدت أن تلك الفتاة هي نفسها أمل وتساءلت ماذا لو كانت فعلا هي أمل؟

تتلهّى بعاشـــقين على الطاولة المجاورة وتفترض ســـيناريو لهما، هذا العاشق الصـغير كان يمكن أن يكون هو نفســه ربيعا وتتخيل ماذا لو أنه عندما مر أمام المعهد الثانويّ أين يدرس لم يكن يومها شـــبّان بلباســـهم الطائفي الأبيض وبلحيّ صـــغيرة يشـــرفون على خيمة دعوية تصـــدح بالأناشـــيد الدينية؟ ماذا كان يحدث لو أنه تأخر دقيقة واحدة عن فضـــول أرعن ولم يمد له أحد الشـــبان مطوية بها مقولات لابن تيمية فقلب حياته رأســا على عقب؟ ماذا لو أن ذلك الشــاب صــاحب اللحية الصــغيرة مدّ المطوية لابنها هي، عندها قفز قلبها من مكانه كأنما أصـــابته لســـعة من النار.

تعود الكاتبة إلى بيتها وتتفقد دائما كل تفاصـــيل ولدها هل أن ضـــحكته نفســـها هل تغيرت مواضـــيع حديثه هل شـــغفه بالكرة لم يفتر؟ هل ولعه بالسـينما لم يتضـاءل؟ هل أحلامه في الدراسـة تنمو؟ هل أنه يمشـي فلا يطأطئ رأسه ولا يبدو متجهما وهو يسرع الخطى نحو وجهة لا تعلمها؟

تترك ولدها وتذهب إلى ربيع لماذا كانت الذاكرة تشـــدّه للحياة ؟ هل تصـــبح الذاكرة حلا عندما نعيش أزمة هل يعني انها تؤدي الى الخلاص فـــعـــلا أم تـــوهـــمـــنـــا بـــذلـــك؟ سجلت أسئلتها ولا تحب ان تفكر في الأجوبة، ليست مسؤوليتها ان تجيب بدل القارئ.

ينقبض صدرها ويسكنها الرعب كلّما تخيّلت أنها يمكن أن تعيش تجربة ثريا.

لم يطل مقامها بطاولة الأكل في المطبخ لذلك انتقلت إلى الصـــالون تبحث عن حلّ يجعل اللّغة طيّعة والسرد مسترسلا عندما وصلها صوت قويّ لمنبّه سيّارة إسعاف، ألقت القلم بسرعة وأطلّت من الشرفة، كانت السيّارة قد غادرت الشارع وتركته لضجيجه المعتاد ألقت الكاتبة نظرة عامة من شرفتها ولاحظت هذا التغير الذي بدأ يسري في البلاد، انتشار المحجبات في الشوارع وأيضا في الأسواق والمعاهد والإدارات، ودخل رجال بلباسهم الأفغانيّ كادر الحياة اليوميّة في تونس، شعرت أنّ شيئا خفيّا يسري في البلاد ويتسرّب إلى الجميع فيتنازلون تدريجيّا عن النكهة التونسيّة للحياة حتّى اللّهجة بدأ ينخرها هذا الشيء الغريب، بإشارة مجهولة وقع التخلي عن "ألو" التي تطلق برنّة تونسيّة لافتة لتحلّ محلّها "السلام عليكم" جافّة كأنّها تقول لمن كان على الطرف الآخر من سمّاعة الهاتف "ماذا تريد"، تمّ التنازل عن تحايا الصباح من "صبحلخير" ينطقها التونسي مدغمة وكأنه يسرع من أجل أن يلحق بشيء يحبه وتحولت إلى "السلام عليكم" ترافقها نظرة حادة لشيء مريب، تمّ التخلي عن تهاني الأعياد فقد غابت "عيدك مبروك" وحل محلها "مبارك عيدك" وانتشرت على الفايسبوك سلسلة من الدعوات "أنشرها في صفحتها وارسلها إلى غيرك وإن لم تفعل تلتهمك نار جهنم" تغص بها علبة المسنجر وعادة لا ترد عليها..

كانت التغيرات في الشارع وفي الحي وفي المجتمع تسري بهدوء مريب قد لا ينتبه إليه الناس لكنه هي تلتقطه وتدسه في أوراقها. تنتبه إلى الحديث اليومي الذي انتشرت فيه كلمات لم تكن شائعة بمثل ما عليه الآن وتتعثر بها في أحاديث الناس بموجب أو بدونه مثل "سبحان الله" و"ما شاء الله" و"ما قدر الله فعل" ولا "حول ولا قوة إلاّ بالله" وكأنّ القيامة ستقوم غدا. تلفت انتباهها جيّدا أنّ صفحات الفايسبوك تحتفي بيوم الجمعة الذي كان يوما عاديّا فأصبح يستحقّ التهاني الخاصة به يتبادلها الكثير من التونسيين بورع لافت "جمعة مباركة". تنتبه إلى غياب القهقهات في ركن من الشارع أو في محل للتسوق أو في حديقة عمومية أو في طاولة بمقهى وارتسمت غمامة من الحزن الخفيف على ملامح الناس وخضوع بيّن لا تفهم لماذا أو لمن.

ما الذي يحدث في البلاد؟ من الذي يملك إشـــارة خفية جعلتها تتخلى بدون مقاومة تذكر عن ملامحها الخاصـــة وتســـتبدل وجهها المبتســـم والمشرق بوجه عابس ومتجهم؟

هل هو فيروس خفي يدخل العقول ويغيّر التفكير ويجعل الناس يتخلون عن حياتهم والشباب يستبدلون أحلامهم بأوهام؟

مازالت الكاتبة في الصـــالون تســتدر خيالها وتتســاءل لماذا كان ربيع يســتعين بالذاكرة لينســى آلامه؟ أخذت القلم وكتبت هل تتحول الذاكرة إلى منقذ عندما نفقد كل شيء؟

قاطعها رنين الهاتف، اللعنة لقد نسيت أن تضعه في حالة صمت، على الطرف الآخر من الخط كان ولدها الوحيد يخبرها أنه ســيتأخر قليلا في العودة إلى البيت، لديه حصــة دعم في مادة الرياضـيات ستكون في بيت صديقه أحمد.

وضعت القلم، لم تستطع العودة إلى الكتابة، يكفي أن يعاودها القلق حتّى تيبس اللّغة ويجف حليب الســرد، هل حقا ســيكون في بيت أحمد يدرس الرياضـــيات؟ هل فعلا لا يخفي شـــيئا آخر قد يجعله يتخلى عن أحلامه وتتحول الموسيقى إلى شيء محرم وتفقد الدراسة قيمتها ويرى أمه مرتدة فلا يأبه لها؟

أشدّ ما يؤلمها ما عاشته ثريّا من إحباط مدمّر وتشفق عليها من حياتها التي تداعت مثل قطع الديمينو، تشــعر فعلا بالحزن الشــديد لأجلها كأنها هي، آخر مرة زارتها همّت أن تعانقها وتبكي، وتســـاءلت الكاتبة لماذا كانت الذاكرة تجلد ثريا وتعذبها؟ وعادت تكتب على ورق أمامها أســئلتها هل يعني ان الذاكرة لديها تحولت الى هراوة تجلدها لأنها فقدت الحاضــر واكتشفت ان حياتها وهما؟

جالت الكاتبة ببصـــرها في غرفة ولدها ثانية وعادت بقلب واجف تعيد النظر في تخطيط الرواية وتنظم الأسئلة التي سترافقها في كتابتها.

42

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري

الساعة السادسة و5 دق بعد الظهر (بتوقيت تونس)
في مصحة الهناء، غرفة رقم 216

أغمضـــت ثريّا عينيها تتمنّى أن يكون كلّ هذا كابوســـا، أمّها العجوز تحوم حولها بقلب واجف وحزين. جثم الصـــمت ثقيلا في الغرفة عندما اخترقه صوت الأمّ خافتا ومرتبكا:

- اتّصل بي هذا الصباح، سيصل في طائرة الغد.

ظلّت ثريّا صامتة.

- لا أدري لماذا لا تتفاعلين مع خبر قدومه سيسعى ليجد ولدكما.

لم ترد.

كَرهتْ ثريا حقائب الســـفر وهي لم تغادر المدينة، كل الذين أحبّتهم أخذوا حقائب الســـفر، رحلوا بعيدا وتركوها فريســـة للإحباط، دون ربيع تشـــعر أنّها بلا أهل، أقســـى ما يمكن أن يعيشـــه المرء في هذا العمر أن يكون بلا أهل أن يكون غريبا في الحياة وبلا معنى. تتحسّـس رأســها تود لو أمكنها أن تطل من خلال الجرح الذي سببه لها رجال أمن الرئيس على أحلامها التي ذبلت، على عمرها الذي ضـــاع، تمنت لو أمكن لها فعلا الســـفر عبر الزمن فتعود بها الذاكرة إلى تلك اللحظة القاتلة التي كان فيها ربيع يحزم حقيبته ليرحل رفقة إخوان الشؤم ولا يعود، فتراه يعيد أشـياءه إلى مكانها ويجلس إلى مكتبه ينكبّ على دروســـه ويســـتعدّ مثل زملائه لامتحانات الباكالوريا.

دخل الطبيب غرفتها في المصـــحة للمرّة الثانية في هذا اليوم، ســـجّل بعض الملاحظات في دفتره الطبيّ وهو يقول:

- أصبحتِ بأفضل حال، يمكنك أن تغادري المصحّة الآن، الحمد لله أنّ الجرح في رأســـك بســـبب عصـــا البوليس ليس عميقا وتأكّدنا من خلوّ الجمجمة من الكســـور ســـتجدي كل ذلك في التقرير الطبي، يجب عليك

تغيير الضمائد باستمرار واستعمال الأدوية التي كتبتها لك، ستفسّر لك الممرّضة بدقّة ما يجب عليك فعله.

الجرح الذي في رأسها لم يؤثّر على ذكرياتها، كانت متفاجئة فعلا وهي في المصحّة من ذاكرتها التي كانت تجلدها وتعدو بها إلى الأمام انطلقت بها منذ أن ربيع طفلا تأخذ بيده الى الحياة إلى ان نبض قلبه بحب أمل حتى بدأ يصلي وهي تبارك اختياره وتعتقد انه قد يبتعد عن أصحاب السوء ولم تدر انها تلك اللحظة الفارقة التي غيرت مساره وقد ادركت ذلك من خلال مواجهات عديدة لها علاقة بسلوكيات يومية مثل السجائر ومفاهيم حياتية مثل الصداقة والثورة ثم اختفائه المريب الذي دفعها للبحث عنه في المقهى والجامع وغيرها وما تلى ذلك من وقفات احتجاجية عندما قررت ان تلقي بنفسها الى رئيس الدولة لتخبره عما يحدث لشباب البلاد ويرد لها ولدها، كانت ذاكرتها تركض بها الى الامام مثل فرس جريحة وتأخذها نحو مصير غامض.

تذكرت قولة لنيتشة "نحن لا نتحرر إلاّ عندما نحكي ونتذكّر"، بدا لها ذلك بلا معنى. تمتمت:

"تبّا لنيتشة، لم يكن له ولد وفقده في لحظة منفلتة وفي زمن أغبر. لا يعلم نيتشة أنّ الذاكرة قد تقتلنا أيضا. علت تنهيدة حادّة كأنّها صرير باب قديم وقالت تحدّث نفسها "لو أفقد ذاكرتي سأكون بأفضل حال، قد أحسب من المجانين ولكن سأكون بلا قلب يسكنه ربيع حياتي و بلا عقل يؤمن بربيع لبلادي.- تنهدت وعادت تحدث نفسها - ذاكرتي تحتفظ بكلّ تفاصيل ولدي، بأحلامه الطريّة بشغفه بالحياة التي لم يعشها بعد، ذاكرتي تحتفظ بطرائفه، بقهقاته، برائحته، ذاكرتي تحتفظ بربيع أمامي وأنا أراه وألمسه وأحضنه ولن أتخلّى عنه، ذاكرتي هي الهراوة الغليظة التي يحملها البوليس وجشّوا بها رأسي ذاكرتي هي التي تقتلني" كان الدموع تنساب من مقلتيها في صمت موجع. كان يجب أن تلتجئ إلى رئيس الدولة لتخبره بما يحدث لشباب تونس وتطلب منه أن يتحرك بنفسه لينقذ الوضع ويضع حدا لهذه المهزلة ثم يحاسب كل من ثبت تورطه في تجنيد الشباب وتسفيرهم للقتال في حرب لا تعنيهم غير ان للبوليس رأي اخر ولذلك هي ملقاة الان بلا قوة في الغرفة رقم 216 في مصحة الهناء.

ازداد الوضع سوءا في المدرسة التي تدرّس بها سئم المدير من التستّر على غيابها بعد أن استوفت كل الرخص المَرَضية التي من حقها وأمام تذمر عائلات التلاميذ من غيابها المتواصل أخبر الإدارة الجهوية للتعليم بوضعها وطالب رسميا تعويضها بمعلمة أخرى كما حذّر ثريا من انتهاء آجال تسوية وضعها الإداري وإلا سيقع فصلها نهائيا عن العمل. إضافة إلى كثرة تغيّبها عن العمل انقطعت عن الصلاة واضطربت صحتها وأصبحت على نحول بيّن، تشعر أنها تغرق كل يوم ولا تأتي ذاكرتها الا لتنهشها، اختفى ولدها وهي تلهث وراءه.

تشعرها ذاكرتها بصمتها وغبائها وتفضح عجزها وفشلها ويعشش فيها الندم، كيف فاتها كل الماضي كيف ضيّعت ولدها كيف تحولت حياتها الى حطام.

تشعر ثريّا أنّها فعلا محطمة ولم تعد تعنيها الحياة أصلا لم يعد يهمّها شيء في البلاد لا الفوضى العارمة التي تطال كل شيء ولا الفساد الذي عشّش في مفاصلها، ولا تصريحات السياسيين ولا أكاذيبهم ولا غلاء الأسعار ولا ارتفاع نسبة البطالة ولا تدحرج الطبقة الوسطى ولا ازدياد نسبة الفقر ولا غياب الأمن ولا ارتفاع نسبة اليائسين والمنتحرين والحارقين، لا يعنيها تعدّد الاحتجاجات الليليّة وانتشارها في البلاد بعد كل إفطار.

لا يعنيها تشفّي الميليشيات الإلكترونيّة على الفايسبوك من اغتيال شكري بلعيد ومحمد البراهمي وتشويه الخصوم ونشرهم الأكاذيب حول الجميع، لن يهمّها بعد اليوم مساندة حقوق المرأة ولا الاحتجاج ضدّ العنف المسلّط على النساء، لا يعنيها اطلاقا هذا الربيع العربيّ القاحل ولا ثورته المغشوشة.

افتقدت رشاد الذي انشغل بدروسه وامتحاناته يستعد لمناظرة الباكالوريا، تشعر بانقباض في صدرها وألم في بطنها، كانت تقاتل من أجله لتكون حياته جميلة في تونس، الآن هو يقاتل في سوريا ليكون العالم

في أسوأ حال، هذه المرّة تشعر أنّ السكين المنغرسة في كبدها هي نفسها السكين المنغرسة في قلب العالم.

انهمكت أمّها ترتّب أغراض ثريّا للعودة إلى البيت وفي تلك اللّحظة سمعتا طرقات خفيفة وأطلّ وجه أصبح مألوفا.

قالت أمّها:

- ثريّا، انظري من أتى إلى زيارتك؟

رفعت ثريّا بصـــرها إلى الباب لتجد الكاتبة فاطمة بن محمود تدخل الغرفة، وفي يدها باقة ورد صغيرة، ندّت عن ثريّا ابتسامة حزينة.

قالت لها الكاتبة:

- مساء الخير، حمدا لله على سلامتك عزيزتي.

وضعت باقة الورد على الطاولة وهي تقول:

- أحضـــرت لك اليوم الرواية التي كتبتُها وأحبّ أن تكوني أوّل من يقرؤها، عنوانها "زمن الغبار". على يقين بأنّنا نعيش زمن الغبار فعلا لذلك هي مرحلة عابرة وأصـحابها عابرون – أضـافت وهي تبتسـم - لا يمكن للغبار مهما كانت كثافته أن يجتثّ الشجرة من عروقها سيحطّ على أوراقها فقط مثلما يحطّ على العشـــب وعلى الأطفال وعلى الأحلام ولكن ستنفض الشجرة أغصانها يوما مّا وتستعيد البلاد خضرتها.

شعرت ثريّا كأنّ صوت فاطمة يطلع من أعماقها فردّت بهدوء:

- كنت أحلم وأنا صغيرة أن أكون يوما كاتبة

أضافت بصوت حاولت أن تجعله مرتفعا:

- غير أن الكتابة لا تكفي، يجب أن يتحمّل السـياسـيّ مسـؤوليّاته وأن يعاقب كلّ من ساهم في مثل هذه الجرائم.

ندّت عنها تنهيدة عميقة وخيّم صـــمت ثقيل قطعته فاطمة وهي تقول مبتسمة:

- طبعا الرواية كانت ستكون مختلفة لو أنّ أمّ أمل مثلا هي التي تفاعلت معي يوم الاحتجاج.

فكّرت ثريّا لا فرق بينها وبين أمّ أمل، الحريق نفسه الذي شبّ هنا اندلع هناك أيضـــا وتمنّت لو تعود أمل على الأقلّ سـيمنحها ذلك أملا في عودة ربيع. رفعت أم ثريا صوتها وهي تقول:

- يجب أن يعود ربيع وأمل للبلاد لا يمكن للحياة أن تستمرّ بدونهما.

قالت ثريا بإصرار:

- يجب أن يحاكم من كان وراء تجنيد وتسفير شبابنا، يجب أن يسجن كل من كان خلف هذه الظاهرة المدمرة التي نكلت بالبلاد وحرقت أكبادنا.

ردّت الكاتبة بصوت حزين:

- يبدو أنّك في غمرة انشـغالاتك لم تعلمي أنّ تجنيد وتسـفير الشـباب للقتال لا يعدّ جريمة ولا يعاقب عليها أحد. رئيس الوزراء التونسـيّ في تصـريح له لقناة فرانس 24 قال "إنّ السـلطات التونسـيّة لا يمكنها قانونيّا منع مواطنيها من السفر للقتال في سوريا أو في غيرها[20]".

وقع تصريح رئيس الوزراء على رأسها كالصاعقة فشعرت أنّها ترتطم بشدّة على الأرض، يبدو هذا التصريح أشد من هراوة البوليس التي هوت على رأسها.

سـاد الغرفة صـمت ثقيل، تحسّـست ثريّا غلاف الرواية، تأمّلت العنوان الغليظ على الغلاف وهمست لنفسها "نعم، إنّه زمن الغبار" وشعرت كأنها تغوص في الرمل، رفعت بصـرها إلى الكاتبة كأنّها تسـتغيث بها، كانت نظراتها زائغة تشعر أنّ رأسها انفصل عنها وتوشك أن تأخذها غيبوبة.

كأنّ الغبار الذي زحف على البلاد وأخذ ربيع يسحبها إلى هوّة سحيقة.

نظرت إليها الكاتبة بشـفقة وتسـاءلت في سـرها "هل مازالت لدى ثريا قدرة على تحمل الضربات القادمة؟"

[20] رئيس الحكومة علي لعريض في حوار حصري لقناة فرانس 24 نشر بالموقع الالكتروني للقناة بتاريخ 24 مارس 2013

43

- بعد أن ينام الجميع تعالي إلى غرفتي.
نظرت أمل إلى نادية متسائلة:
- ما الأمر؟
أجابت نادية بصوت حازم:
- لا أستطيع أن أخبرك الآن.
ظلّت أمل مشـوّشـة الذهن، تفكّر في دعوة نادية وتذهب بها التأويلات مذاهب شتّى لا تستطيع أن تفهم ما الذي يجعل نادية بمثل هذا الحزم وبكلّ هذا الحذر حتى أنّها لم تسـتطع أن تركّز جيدا في الدرس الدينيّ لذلك المسـاء ورغم ذلك لم يخطر ببالها إلى أين يمكن أن تصـل الجرأة بالفتاة الكردية.
كانت الأخت المحاضِـرة تتوسّـط الجميع وتتحدّث عن دور المرأة في بناء الدولة في الإسـلام، كانت منغمسـة كليا في الشـرح وكل الأخوات يتابعنها باهتمام وتركيز إلا أمل ترفع بصـرها في كل مرة إلى المطبخ حيث تقبع نادية وتشـعر برغبة في النفاذ إلى عقلها لتعرف فيم تفكر، خمنت أن الأمر خطير لكن لم تكن تعتقد أنه بتلك الخطورة، نادية نفسـها في ذلك الوقت كانت شاردة فيما خططت له وستنفذه قريبا.
عندما التحقت أمل بنادية في غرفتها وباحت لها بسـرها اندهشـت لجرأتها وكادت تصـرخ في وجهها غير أنّه لا يوجد متّسـع من الوقت، يجب على أمل أن تقرّر بسـرعة إن كانت ترغب أن تكون معها أم لا. شعور بالخوف الشديد اجتاحها ويجب أن تقرر فورا، بسرعة ذهبت كلّ واحدة إلى فراشها وهي تفكر في الأخرى وفي الخطوة الموالية.

ما إن سـاد الصـمت البيت ونشـر الليل ظلامه حتّى نهضـت أمل من فراشـها بهدوء شـديد ووجدت نادية في انتظارها، بخطى حَذِرَة جدا كانتا تقطعان الصـالون في اتّجاه الشـرفة الكبيرة التي تطلّ على الحديقة تحمل كلّ واحدة لحافها، بيدين مرتعشـتين ربطت نادية اللّحافين ببعضـهما بعُقدة بدت محكمة فأصبح رباطا طويلا شدّ طرفه بعُقدة أخرى إلى سور الشرفة وأنزلت طرفه الآخر إلى الأسفل ثمّ أسدلت كلّ واحدة النقاب عن وجهها.

هتفت نادية: هل تنزلين أنتِ أولا؟
ارتعشت أمل وهي تقول:
- أنا في حالة رعب.
- لا بأس، أنا سأنزل وأنتظركِ في الأسفل.
برشـــاقة قطّة كانت نادية تنزل تدرجيّا تمســـك بيدين قويّتين اللّحاف وتســـتعين برجليها فتســـندهما إلى الجدار وتنزلق ببطء، قبل أن تصـــل الأرض بقليل حدث ارتطام شـديد وسـاد الصـمت. تجمّدت أمل في مكانها وبقيت تنتظر من يطلّ من ســكان البيت، نادية في الأســفل تكوّرت على الأرض تنتظر أن تتّجه خُطى الحارس نحوها لكن لم يحدث ذلك ومرت برهة من الزمن بدت طويلة ثمّ أومأت نادية من الأســفل إلى أمل أن انزلي، لم يكن يوجد خيار آخر، إنّها فرصــتها للتخلّص من عشّ الدبابير، في حياتها هذه هي ميّتة لا محالة ولا بأس بشـرف المحاولة لإنقاذ حياتها، لا أحد يدري ما سيحدث بعد ذلك.
نادية في الأســـفل تحثّها بإيماءات يديها وعقلها يحثها على ذلك حينا ويثبطها حينا آخر في اللحظة التي كان عقلها يومئ لها بنعم كانت أمل تمســـك برباط اللحاف بيدين قويتين وتســـند رجليها إلى الحائط وتنزلق بهدوء تماما مثلما فعلت نادية وقبل أن تصـــل الأرض كانت يديّ نادية تتلقفها فكان ارتطامها بالأرض أخفّ وتذكرت ربيعا عندما كان يتلقفها ويضمها في حضنه، في تلك اللحظة صرخ قلبها في غضب شديد:
- تباّ لك يا ربيع، لتذهب إلى الجحيم أيها الغبي.
ردّ عقلها بسخرية:
- الآن؟
"ليس الوقت مناسـبا للمحاسـبة" همسـت أمل بينها وبين نفسـها وتقدمت نادية في اتجاه ســـور الحديقة ولحســـن الحظ لم يكن مرتفعا كثيرا عن الأرض، قفزت نادية إلى الشـــارع وخلفها أمل تفعل ما تفعله نادية وقلبها يكاد يخرج من مكانه وصوت يردد في داخله:
- أي شـــجاعة تملكها الكرديات؟ هل هي طبيعة الشـــعوب التي يملؤها القهر فتُشحن بكل هذه القوة؟
الآن، هما كتلتان من السـواد تمشـيان بخطى سـريعة ومتعثّرة جنبا إلى جنب.

يبدو أنّ الحراس في نوم ثقيل، يا إلهي كم يبدو هذا سهلا إلى درجة لا تتوقّع.

قطعتا شارعين قبل أن تستدرك نادية قائلة:

- دقيقة أتذكر، يبدو أنّي تُهت، قال لي تقطعين شارعين في اتّجاه اليسار ونحن ذهبنا ناحية اليمين، يبدو أنّي مرتبكة أكثر ممّا يجب، تعالي من هنا..

الليل عميق والصمت يخيّم على المكان والبرد يَسْري في العظام، تعود الفتاتان على أعقابهما، اقتربتا من البيت الكبير الذي كان منذ لحظات سجنهما وأمام بابه تعثّرت أمل في جلبابها وكادت تسقط، نادية التي كانت تمشي أمامها على بعد خطوة منها تقودها الآن من يدها وارتعشت الفتاتان حتى أن أرجلهما بدت متصلبة من شدة الرعب، في نفس اللحظة ندت عنهما صرخة مكبوتة ماذا لو يُفتح الباب الآن وتمتد يد الحارس إليهما. كل الفرضيات القاتلة خطرت ببال الفتاتين، أن تغرس الأخت الكبرى أنيابها فيهما مثل كلب متوحش، أن تُعَلقا من رجليهما ويتدلى رأسيهما إلى الأسفل وتجلدان أمام الجميع والمؤكد أن تطرحا في الساحة العامة ويقطع عنقيهما فيتدحرج رأس كلّ واحدة في اتّجاه...

كلّ واحدة تمشي على الجمر وقلبها يكاد يقفز من مكانه وأسرعتا ناحية اليسار...

قالت نادية من خلال أنفاس متقطّعة وهي مازالت تمسك بيد أمل:

- كنتُ أعلم أنّ أهلي الكرد لن يتركوني في قبضة الجرذان، سأحدثك لاحقا عن التفاصيل وكيف نسقت معهم كل هذا.

شعرت نادية وأمل أنهما ستلتقيان بالحياة من جديد، قطعت الفتاتان الشارعين بحماس وكانت المفاجأة، لم تجدا سيارة في انتظارهما.

استبدّ بالفتاتين هلع شديد وشعرتا كأنّهما تسقطان في بئر بلا قاع، كان الشارع في تلك اللّحظة خاليا وموحشا.

فجأة، في السواد العميق لمع ضوء خاطف مرّتين لسيّارة بعيدة، شعرت الفتاتان أنّ الضوء تحوّل إلى حبل يسحبهما خارج البئر، تحرّرت أرجلهما من قيود غير مرئيّة، بدت خطواتهما واسعة وثابتة وهما في اتّجاه السيارة.

44

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري

الساعة الرابعة و30 دق بعد الظهر (بتوقيت سوريا)
في المستشفى الميداني لمعسكر الزرقاوي بمدينة الرقّة
قِسم الرجال

منذ أن استفاق من غيبوبته هذا الصباح لم يزره الطبيب، اشتدّت عليه الحمّى فعاد للهذيان يطلب من يسعفه بجرعة ماء ولا أحد يهتمّ به، اشتدّت عليه الأوجاع فتح عينيه، بصعوبة فتناهت إليه أصوات الأنين حوله وشعر بانقباض شديد في قلبه، يريد أن يصرخ فلا يستطيع.

لم يكن يدري أن تونس في ذلك الوقت تسودها فوضى مربكة، وأنّ إخوته من التيّار السلفيّ في تونس نجحوا في اغتيال محمّد البراهمي القياديّ السياسيّ لحزب التيّار الشعبيّ ومحمّد السبوعيّ المسؤول الأمنيّ وأنّهم استطاعوا الهجوم على منزل وزير الداخليّة نفسه وانتهت العملية بقتل أربعة من رجال الأمن الذين يسمّونهم الطواغيت، كان سيسعد بهذه الأخبار لو كان في ساحة القتال وكان سيصغي إلى رأي أبو شداد ليصوغ موقفه من الانتخابات التشريعيّة التي تستعدّ لها تونس في شهر أكتوبر.

تشتدّ عليه الحمّى الآن، يهذي كعادته ويوشك على الإغماء وذاكرته تقاوم بشراسة، هذه الذاكرة التي تبدو كأنها مصرة أن تعود به للحظات آمنة وحياة هادئة كان يعيشها. الآن تتحرّر ذاكرته من سطوته عليها وتتزاحم في ذهنه صور عديدة يرى نفسه في حضن أمّه تناغيه وتداعب خصلات شعره الذهبيّ وهو طفل، كان يتردّد على روضة الأطفال في حيّهم وقد عُرف فيها بكنية "المدلّل"، يذكر أنّه أحيانا يتمارض حتّى لا يذهب إلى المدرسة، تحبّ أمّه أن ترضي دلاله فتشتري له البسكويت والشوكولاطة وتبقيه في البيت يتابع أشرطة شارلي شابلن ومسلسل "شوفلي حل" وهو يطلق ضحكات عالية، يتذكّر أوّل يوم في الكولاج،

Commenté [fbm4]:

وأوّل شجار مع أترابه على المقعد المجاور لبلقيس وأوّل لمسة غير بريئة لكفّ زينب...

تشتدّ الحمى ويتذكّر سنوات اللّيسي وتبدو على ملامحه ابتسامة ذابلة. كان رشاد صديقه المفضّل، أدمن معه الألعاب الإلكترونيّة، جرّب معه أوّل سيجارة ولم يستسغها، لعب معه البيار، ذهبا معا مرّات عديدة إلى ملعب رادس، كان برفقته عندما جلس لأوّل مرّة في مقهى باريس...سنوات اللّيسي هي الأفضل خاصّة عندما أحبّته أمل وأخذته الذاكرة إلى كافيتيريا المعهد حيث يستمتع بالجلوس معها وحطت به الذاكرة في ميناء سيدي بوسعيد وأجمل عيد ميلاد لحبيبته.

ربيع يصارع الإغماء، ذاكرته التي كانت تلهيه عن آلام ذراعه وتنقذه مما هو فيه من هوان، ذاكرته التي كانت تشده للحياة ترتخي الآن تماما وتتعطل فيشعر ان الخيط الذي يشده للحياة ينقطع أو يكاد لذلك تصله دقات رتيبة لساعة حائطية معلقة في صدر الصالون لبيتهم ولم تكن معلقة على جدار هذا القبو الرطب الذي يسمونه المستشفى الميداني ولا يزوره الطبيب، تصله الدقات الرتيبة للساعة الحائطيّة وهو على يقين أنّه لا يهذي، تشتدّ عليه الحمّى ولا يستطيع رفع جفنيه ليحملق في السقف المنخفض للقبو الذي يبدو كأنّه يتمايل ويوشك أن يسقط عليه، يريد أن يرفع يديه ربّما يراه أحد ويسعفه بجرعة ماء وتصله رائحة لذيذة لكسكسي كانت جدّته أفضل من تعدّه، تشتدّ عليه الآلام وتعود الدقّات الرتيبة للساعة الحائطيّة تدق في صدره، يتناهى إليه صوت أمّه وهي تناديه "الربيع" وتقول أنّه أحلى فصول حياتها، تحاول ذاكرته الصمود يستعيد صورا ضبابيّة لغرفته وكم يشتهي الآن أن يعانق أمّه، يتذكر أباه بملامحه الهادئة وهو يبتسم له، تمرّ في ذهنه صورة إخوته في الله فيبتلع ريقه مُرّا، تعلم معهم تفكيك الكلاشينكوف وأصبحت مداعبة السلاح هوايته، كان أفضل من يسدّد بدقة نحو الهدف. يريد رفع يده ليتحسّس الضمادة التي تشدّ ذراعه فلا يستطيع ولسبب لا يفهمه شعر أنّه يريد أن يتحرّر من السرّ الذي ثقل عليه، أن يحدّث نفسه به مرّة على الأقلّ فقد يشعر حينها بأنّه خفّ وصار مثل الملائكة.

مرّت بذهنه تلك الليلة التي كان يحرس فيها المخيّم، كان السواد حالكا عندما اقترب منه أحدهم كان ضخم الجثة وأرفع منه رتبة، ليلتها بكى ربيع بشدّة وأخفى سرّه عن الجميع.

لا يفهم لماذا الآن تهيج ذاكرته فتعود به إلى طفولته الضاحكة وشبابه الجامح فينتابه شوق كبير لا يتحكّم به وحنين قاتل لا يفهمه لبلاده، لبيته، لأمّه، لجدته لقيتارته لكف أمل يقبض عليها كأنه يشد الحياة. وفي لحظة خاطفة فتح عينيه وشعر بنفسه يرتعش همس في سرّه "ربّي اغفر لي واجعلني من عبادك الصادقين واغفر لإخوتي إن كانوا غافلين" فكّر أن يستثني صاحب الجثّة الضخمة ولم يفعل وأغمض جفنيه.

كانت ذاكرته تعود به تدريجيّا إلى البداية ولم يكن يعلم هل أنّ كلّ ما حدث له منذ أن اقترب من الخيمة الدعوية في الشارع حقيقة أو وهم؟ هل يفتح عينيه ويجد نفسه في قبو رطب أو في غرفته؟

لم يستطع فعلا أن يفتح عينيه ليتأكّد، بدا له أنّ رفع جفنيه مهمّة صعبة جدّا.

مازالت تصله الدقات الرتيبة للساعة المعلّقة في صالون بيتهم يرتدّ صداها في صدره، ازدادت الحمّى فشعر بضيق شديد في صدره ولم يقدر على التنفّس، تتثاقل خطاه وهو يلهث في صحراء قاحلة والقروش نبتت لها لحي شعثاء تبدو عليها أثر حناء على طريقة السلف الصالح وهي تسبح في الفضاء وتلاحقه، وفي كلّ خطوة يخطوها يشعر أنّها ستفتح فمها وتبتلعه.

الذاكرة التي كانت تعدو به وتشدّه إلى الحياة تتوقّف به فجأة في الطريق عندما رأى لأوّل مرّة خيمة دعويّة، لفت انتباهه شبّان بلحيّ صغيرة يوزّعون مطويّات غير أنّه هذه المرّة ابتسم وأعرض عنهم، تركهم خلفه ومشي في اتّجاه المعهد ليلتحق بدروسه.

في اللحظة التي توقفت ذاكرته تماما شعر انه فقد القدرة كليا على المقاومة وفقد الخيط الذي يشده للحياة، ارتخى جسمه تماما وشعر أنه استُلّ من مكانه وقُذف به بعيدا وهو الآن يهوي في بئر بلا قاع لذلك استسلم لغيبوبة عميقة جدا لا يدري هل سيستفيق بعدها أم سيُلقى به في قبر جماعي دون كفن.

45

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري

الساعة السادسة مساء و25 دقيقة (بتوقيت تونس)
في مصحة الهناء، غرفة رقم 216

كان يوما عصيبا...
تطلّب الأمر وقتا من الأمّ العجوز لتنهي إجراءات الخروج، استكملت الملفّ الطبّي ودفعت مصاريف العلاج والإقامة وغادرت رفقة ابنتها المصحة. يبدو أنّ الغول الأسود قد جثم على صدر ثريا واليأس يشدّها إلى القاع ولم تعد لها علاقة بأيّ شيء غير أنّ هناك دبيبا تشعر به في أعماقها، شيء يشدّها لولدها ربيع، لعل غريزة الأمومة تجعلها لا تستسلم. كلّ ما فيها يدعوها ألاّ تترك ابنها للغبار يأخذه، لا تدري ما ستفعل، ليست لديها أي خطة لكنها على يقين انها لن تترك ربيع حياتها يسرق منها ولن تترك ربيع البلاد مسموما بتجار الدين.

غادرت ثريّا وأمّها المصحّة وكانت فعلا معجزة أن تظفر بتاكسي قبل ساعة من الإفطار، السائق ولد الحلال استجاب لتوسّل الأمّ العجوز أمام المصحّة وهي تنثر في وجهه الأدعية ولا تعلم أنّه لم يكن ليقبل رجاءها لو لم تكن الطريق إلى بيتها بالصدفة طريقه إلى بيته أيضا. كانت ثريّا في سيّارة التاكسي تعبر بها طرقا ألفتها وعقلها يجوب طرقا لم تألفها. السائق منشغل بحركة المرور والراديو معدّل على إحدى المحطّات الإذاعيّة التونسيّة في أحد برامجها الدينيّة. عندما حانت نشرة أخبار السادسة والنصف مساء، كان أوّل نبأ هو متابعة لوقفة احتجاجيّة ثالثة كانت ذلك الصباح أمام المجلس التأسيسيّ ولم تحضرها ثريا لأنها كانت بفضل هراوة البوليس في المصحة، انتبهت ثريّا أن صوت المذيع حازما وهو يقول:

"إنّ الوقفة السلميّة للتنديد بجنيد وتسفير الآلاف من الشباب التونسي إلى بؤر التوتّر كانت وقفة احتجاجيّة حاشـــدة وهو ما يثير قلق الرأي العام إضافة إلى اللّغط المشتدّ حول ما يسمّى بجهاد النكاح".

تيقّظت كلّ حواسّ ثريا وهي تتابع الصـحفي يقدم تصـريحا رسـميا من الحكومة ردا على هذه الوقفة الاحتجاجية:

"إن تسفير الشباب التونسي للقتال في سوريا محض إشاعة لا أساس لها من الصحة، وهي من تدبير المعارضة وإنّ جهاد النكاح أكذوبة من صنع المخابرات الأجنبيّة"

انتفضت ثريّا كأنّ أفعى لسعتها:

- هل كل ما حصل مجرد إشاعة وأكاذيب؟

فجأة فقد عقلها الخيط الأخير الذي يشده إلى الحياة.

ولدها وقد أخذه الغبار والحكومة تتملص من مسؤوليتها، من سيرد إليها ربيعا؟

الســلفيون أنكروا، الشــرطة عجزت، الســفارات صــمتت، المجلس التأسيسي تجاهل، وأخيرا الحكومة تعتبره مجرد إشاعة.

صرخت:

- ما معنى أن يكون تسفير الشباب إشاعة؟ هل يعني أن ابني لم يذهب؟

شعرت أن صعقة كهربائية هزتها وطار عقلها وبسرعة خاطفة تحولت إلى كتلة هائجة تلطم رأسها بيديها وتصرخ بكل ما أوتي لها من قوة حتى أن سائق التاكسي انتفض فشد مكابح سيارته وهو يقول لها:

- ما الذي أصابكِ يا سيدتي، هل جننتِ ماذا حدث لك؟

لم تكن ثريا تســتطيع أن تجيبه، كانت في حالة هســتيرية تلطم وجهها وأمها العجوز تحاول أن تمسـك بيديها ولا تقدر على التحكم بها. شـعرت ثريا أن قلبها ينتفض يريد أن يطير، يشتد اختناقها ويصعب تنفسها فزادت من اللطم وارتفع صراخها.

- يا إلهي ما الذي يحدث لي؟ هذه السـيّارة ضـيّقة لا تسـعني، أريد أن أخرج، أريد أن أتنفس، أريد أن أطير، أريد أن أتلاشـى وأتحوّل إلى قشـة أو ذرة في الهواء، أن أتحول إلى نبتة أو حشرة أو حصى. أريد أن أتحول إلى أي شـيء حتّى أتخلّص من هذا الضـيق، ما هذه النار التي تأكلني، ما هذه الغصّة التي تبتلعني؟

تصـــرخ وتخرج الكلمات متقطّعة ولا يســـمعها غيرها، تلطم وجهها وتضـرب ظهر كرسـيّ التاكسـي. اضـطرّ السـائق إلى التوقّف وحاول مع أمّهـا شـــدّهـا عن اللّطم ممـا جعل بعض المـارّة ينتبهون إلى امرأة في التاكســي تلطم وجهها وتصــرخ وأمها العجوز وســائق الســيارة يحاولان السيطرة عليها...

بســرعة ازداد عدد المتجمّعين حول التاكســي بين فضــوليّ ومشــفق ومتعجّب وساخر...

لا يدري السـائق ماذا يفعل ليوقف المرأة عن لطم وجهها وعجزت أمّها عن التحكّم بها وما إن فتح السائق باب التاكسي حتّى غادرته ثريّا وهي لا تعرف مـاذا تفعل ولا أين تـذهب فقط تريـد أن تتخلّص من أشـــياء في صـدرها وفي عقلها لا تفهمها لايزال شـعور الاختناق شـديدا ولا يتردّد في ذهنها سـوى أنّ تسـفير الشـباب أكذوبة وأغلب الظنّ أنها إشـاعة يراد بها التشويش على عمل الحكومة.

هذا الخبر بالنسبة إليها لا يصـدّقه قلبها ولا يتقبّله عقلها بل لم تعد تشـعر أنّ لها عقلا أصلا.

هل يعني أنّ كلّ ما عاشته أوهام؟

خروجها من التاكسـي لم يخفّف من شـعورها بالاختناق، ضـاق تنفسـها ولم تعرف كيف تســترد أنفاســها. رأت الوجوه من حولها تدور، رفعت رأســـها فرأت الســـماء فوقها تدور، نظرت الى الأرض فرأتها تحتها تدور...

زاغ بصرها ووصلها صوت أمّها ضعيفا:

- يا ناري على بنتي...يا ناري على بنتي...

حاولت الوقوف فلم تقو قدماها على حملها وشـــعرت بالوهن الشـــديد، بحثت عن صـوتها فلم تجده، لم تعد قادرة على التحكمّ بنفسـها، أحسّـت أنّ الأرض تميد بها وفجأة سقطت.

لم تفقد وعيها، وصـلها لغط الناس من حولها، شـعرت أنّها فعلا تحوّلت إلى لا شـيء فقط قلبها لا يزال ينبض، لم تعد لها ذاكرة تنقذها ولا تشـعر أنّ لها الآن عقلا يفكّر..

هتف رجل من المتحلقين حول التاكســي وهو يمدّ إلى الســائق قارورة ماء:

- رُشّ وجهها بالماء وستعود إلى وعيها.
نبّه آخر:
- احذر أن تجعلها تبتلع الماء، فيفسد صيامها.
صرخت أمّها:
- إنّها مريضة، لقد خَرجتُ بها للتو من المصحّة.
ارتفع صوت صاحب التاكسي:
- ما على المريض حرج.
ردّ آخر:
- لا يهمّ مرضها، لا يجب أن تشرب الماء في الشارع.
لحق به صوت غاضب:
- إن عصيتم فاستتروا.
قطعت أمّها العجوز الجدل بصرخة:
- ابنتي ستموت.
كانت ثريّا كتلة من الحزن جاثمة على حافّة الرصيف والسائق يرشّ الماء على وجهها وهو يقول:
- صلّي على النبيّ يا بنتي، ما الذي حدث لك؟
صرخت به أمّها راجية:
- يعيّش ولدي بسرعة إلى الدّار..
تعاون بعض الناس لإدخالها إلى التاكسي مرّة أخرى وهي تشعر أنها لم تمت بعد وتتمنى لو أنها ماتت فعلا لكن لا تشعر أنّها حيّة أيضا...
برفق اخترقت التاكسي الحشد من الناس وانطلقت في الطريق ثانية وضغط السائق بقوّة على مكبح السرعة وثريّا ملقاة على الكرسيّ كأنّها جثّة هامدة فتحت عينيها بصعوبة فلمحت من نافذة السيّارة بيوتا تتسارع، أشجار وشوارع وسيّارات تعدو متلاحقة زاد دوار الأشياء من حولها، كلّ ذلك عمّق إحساسها بالضعف وجعلها تشعر وكأنّها بين النوم واليقظة، ابتلعت ريقها فشعرت بالمرارة تسري في حلقها.
كانت ذاكرتها تلهث بها في خطى متسارعة كأنّها تسرع بها إلى حتفها، تذكر جيّدا طفلها، تقهقه لابتساماته الأولى التقطت له عشرات الصور، تذكر خطواته الأولى المتعثّرة وتذكر يومه الأوّل في المدرسة ومحفظته المدرسيّة الزرقاء، ودروس الإملاء والحساب، تذكر مبرّرات زوجها

وهو يقعنها بهجرته إلى الخليج من أجل حياة أفضل وهي تعلم أنّها طريقته المثلى للهروب، كان ربيع يحب الألعاب الإلكترونية وقيتارته الجميلة وكانت تحبّ أن تستعيد أحلامها وشبابها وكلّ حياتها في ولدها الوحيد، ذاكرتها تعود هذه المرّة لتقتلها، تتوالى الصور وتقودها بهدوء مريب إلى ممرّات مظلمة فرأت ولدها يرتدي اللّباس الطائفيّ أو القميص الافغاني الأبيض ويسميّه الزيّ الإسلامي وتناهت إليها "أنشودة عويل الدواعش" تنبعث من هاتفه الجوّال...فشعرت أنّ قلبها نُزع من أحشائها.

ذاكرتها تتلاشى وهي مكلومة مثل وطن أنهكته ثورة مغشوشة، أرادت أن تصرخ فلم تتمكن، همّت برفع رأسها قليلا فلم تقدر، غمرها إحساس بالعجز الشديد، أرادت أن تفكّر في أيّ شيء لتتأكّد أنّ عقلها على الأقلّ لم يصبه بعد تلف نهائيّ فلم تستطع. كانت تحتاج بشدّة إلى التأكّد بأنّ حياتها ليست مجرّد وهما وأن اِبنها الحبيب ليس محض إشاعة؟

مدّت كفّا مرتعشة ومسحت على جبينها وهي تسائل نفسها:

- هل أنّ كلّ ما حدث لها مجرّد هذيان؟

تريد أنّ تتأكّد بسرعة قبل أن يفوت الأوان، هل أنّ ما يحدث لها الآن يعود إلى مرارة التجربة التي عاشتها أو إلى سِعة الخيال التي تملكها الروائيّة؟

شدّتها أمّها بقوّة من يديها ففتحت عينيها بصعوبة وانشغلت العجوز بدلك كفيّها حتّى تشعر بحرارتهما وهي تناديها بلهفة:

- يا بنيّتي كلّميني، يا بنيّتي أنظري لي..

سأل السائق أكثر من مرّة:

- ما الذي حدث لها؟

لم تهتم أمّها بتساؤلات السائق، فهي منشغلة بابنتها تبكي وتستجيديها الردّ عليها.

وقفت سيّارة التاكسي أمام البيت، فنزلت أمّها بسرعة ونادت على عمّ يوسف الخيّاط الذي كان بصدد غلق دكانه، ما إن رأى ثريّا على تلك الحال حتّى أسرع نحوها يساعدها على الوقوف وهو يردد:

- لا حول ولا قوّة إلاّ بالله...

قالت أمّها في لوعة:

- مسكينة، ما إن سمعت في نشرة الأخبار أن تسفير الشباب إلى القتال في سوريا إشاعة حتّى أصابتها حالة هستيريّة.

عم يوسف الخياط بلحيته القصيرة التي أطلقها بعد أن فاز حزب حركة النهضة الإسلاميّ في الانتخابات وأصبحت له علامة سجود لا يدري أحد ماذا فعل حتّى ارتسمت بسرعة على جبينه أكّد قائلا:

- نعم، حزب حركة النهضة الحاكم لا يكذب، تسفير الشباب التونسيّ مجرّد إشاعة.

بدأ الجيران يتوافدون على بيتها مواسين بكلمات قليلة بين الفضول والشفقة ولأول مرة خرج صوتها حادا:

- ما الذي فعلته بأمك يا ربيع؟

غير أن سؤالها لم يغادر حلقها، شعرت أن الاحباط الشديد يشلّ كل قواها.

دخلت إلى البيت مستندة على أمها وعم يوسف الخياط والتحق بهم بعض الفضوليين من الجيران، تملّصت من الذراعين اللذين يسندانها واتجهت بخطاها المرتبكة إلى غرفة ولدها ربيع فتحت الباب وأطلت برأسها، جالت ببصرها داخل الغرفة، ثم أغلقت الباب والتفتت نحو المتجمعين حولها ولأول مرة خرج صوتها فقالت مبتسمة:

- رجاء غادروا بهدوء، لا أريد هذه الفوضى في بيتي.

أضافت بثقة

- أنتم تزعجون ولدي، إنه نائم.

تفاجأ الجميع من ردها وانسلوا مغادرين، ظلت أمها تنظر إليها وهي في حالة ذهول متسائلة بينها وبين لنفسها:

- هل جُنّت ابنتي؟

اتجهت ثريا بخطى حاولت أن تجعلها تبدو متماسكة إلى أريكتها المفضلة في الصالون، جلست ومدّت يدها إلى حقيبتها، أخرجت مخطوط رواية " زمن الغبار" للكاتبة فاطمة بن محمود وبدأت تقرأ...

الفصل الثالث

1

يوم الإثنين 29 جويلية 2013
الموافق ليوم 20 من شهر رمضان 1434 هجري.

الساعة السابعة و30 دق بتوقيت تونس
قبل الإفطار بدقيقتين

قُبيل الإفطار بقليل، كان الشيخ المقرئ على شاشة التلفزيون يرتّل آيات من القرآن الكريم عندما ورد خبر عاجل كُتب أسفل الشاشة فبدا منقوشا على جلباب الشيخ المقرئ:

خبر عاجل:
مجموعة إرهابيّة متطرّفة استهدفت فرقة الكومندوس الوطنيّ بجبل الشعانبيّ في كمين إرهابيّ مباغت عند الإفطار أسفر عن مقتل ثمانية عسكريين.

كان الخبر صادما، ومرّت ليلة حزينة جدّا على الشعب التونسي.

في مكان ما كانت خليّة إرهابيّة تتابع الخبر باهتمام شديد قال أميرهم:
- لقد نجحنا، (أضاف مبتسما) نحن نعرف متى نوجّه ضربة قاصمة للطواغيت، هل رأيتم عندما انشغل بعضهم بالصلاة وانشغل آخرون بالإفطار؟ لم يكن من بينهم من يحرسهم فينتبه لخطانا لذلك كانت هجمتنا مُحكمة وقتلنا ثمانية منهم (اتّسعت ابتسامته) ذبحنا منهم اثنين ومثّلنا بجثث العديد منهم وتلك طريقة لبثّ الرعب في قلوب بقيّة الطواغيت ونوجّه رسالة للجميع أنّنا الأقوى، يقول تعالى "فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنْ اللهَ قَتَلَهُمْ، وَمَا رَمِيتُ إِذْ رَمِيتُ وَلَكِنْ اللَّهَ رَمَى، وَلِيُبْلِيَ المُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ". (أضاف بصوت فيه الكثير من الزهو) بعد اليوم، لن نحتاج إلى تسفير شبابنا للجهاد خارج تونس، ينتظرنا عمل كبير هنا، ليحسبه الله في ميزان حسناتنا".

ما زالت ثريّا في الصالون تتابع بوجوم تفاصيل العمليّة الإرهابيّة التي نالت غدرا من مجموعة من الجنود يحرسون الوطن. هذه الكارثة لم تخفّف من حماس ثريا تجاه مخطوط رواية "زمن الغبار" للكاتبة فاطمة بن محمود، فتحت الرواية لتقرأها. لفت انتباهها الفصل الأوّل الذي يتحدّث عن أمّ في لحظة إحباط شديد تقرّر الاتّصال برئيس الجمهوريّة أثناء مراسم غرس شجرة في حديقة عموميّة ليعيد لها ولدها الوحيد وصديقته أخذتهما مجموعة دينيّة متطرفّة ضمن موجة تجنيد وتسفير استهدفت الآلاف من الشباب التونسيّ للقتال في سوريا وفي الحاجز الأمنيّ الأوّل تلقّفتها أيادي حرّاس الرئيس فمنعتها.

في تلك اللحظة رفعت ثريّا بصرها عن الرواية وقالت:

- ربيع تعال يا ولدي، أسرع...لا أحبّ أن يفوتك الإفطار.

انتهت

فـاطـمة بن مـحـمـود

تونس

- أستاذة فلسفة

- لها 15 كتابا في أنماط أدبية مختلفة شـــعرية وســـردية ونقدية، من بينها "رغبة أخرى لا تعنيني" و"ما لم يقله القصـيد" و"الوردة التي لا أسـميها" و"الغـابــة في البيــت" و"امرأة في زمن الثورة" و"في حـدائق القص المغربي" و"ليلى العثمان والكتابة من الداخل" و"صديقتي قاتلة".

- وصلت روايتها "الملائكة لا تطير" إلى القائمة القصيرة في جائزة راشد الشرقي للإبداع بالإمارات سنة 2019.

- لها اهتمام بالفنون وتابعت في الغرض تكوينا في ورشات متخصصة في السينما والتصوير الفوتوغرافي والفنون التشكيلية.

- أسست سنة 2017 "جمعية الكاتبات المغاربيات بتونس" وترأستها إلى حد 2021.

- لها تجربة في الاعلام التونسي وأيضا في الاعلام الدولي: مراسلة مجلة "الامارات الثقافية" منذ تأسيسها سنة 2013 إلى حين غلقها، إلى جانب نشرها للعديد من المقالات في مجلة نزوى وغيرها..

-عضوا في منظمات أدبية عربية مختلفة تعنى بالكتابة.

- اختارها المجمع التونسي للآداب والعلوم والفنون (بيت الحكمة) من أبرز الشخصيات التونسية والأدبية في النصف الثاني من القرن العشرين.

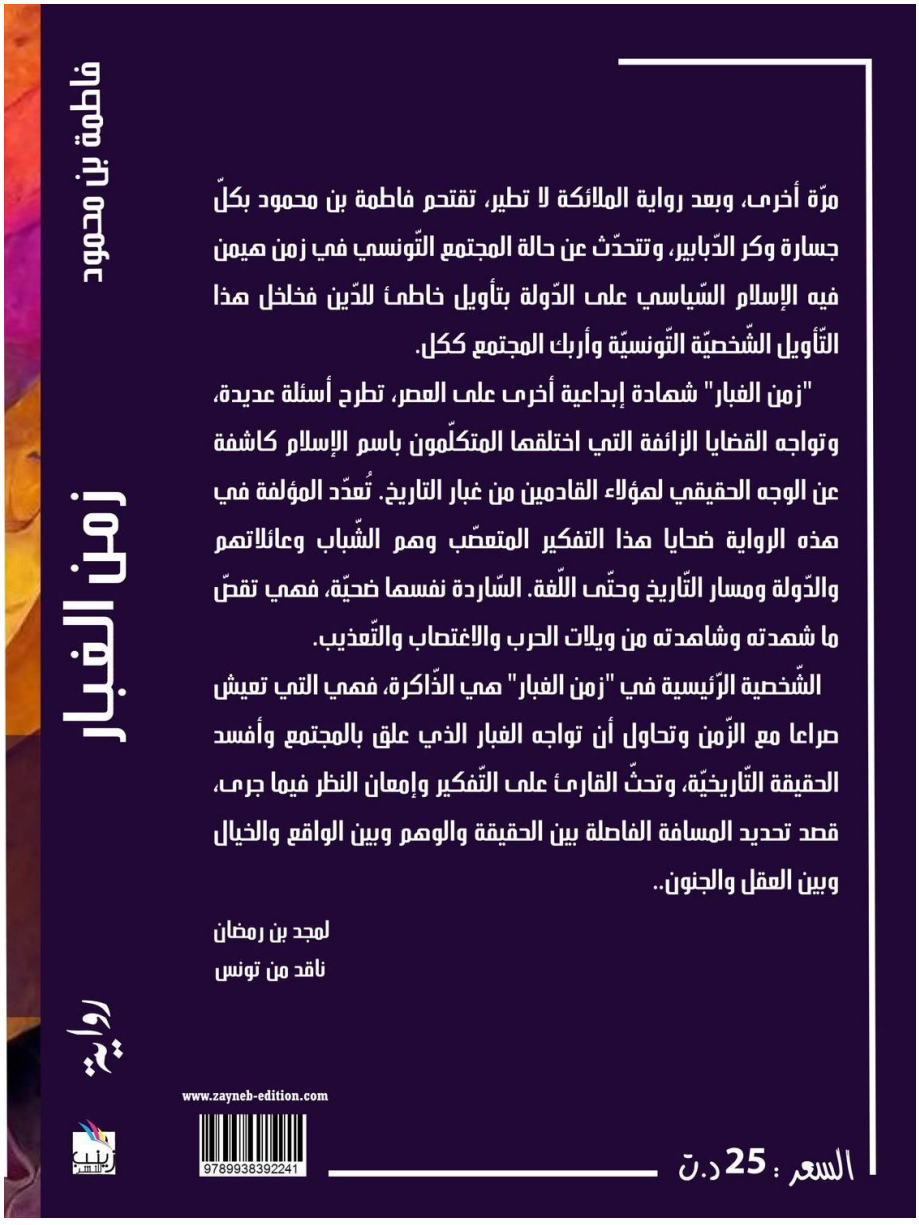
فاطمة بن محمود
زمن الغبار
مرّة أخرى، وبعد رواية الملائكة لا تطير، تقتحم فاطمة بن محمود بكلّ جسارة وكر الدّبابير، وتتحدّث عن حالة المجتمع التّونسي في زمن هيمن فيه الإسلام السّياسي على الدّولة بتأويل خاطئ للدّين فخلخل هذا التّأويل الشّخصيّة التّونسيّة وأربك المجتمع ككل.
"زمن الغبار" شهادة إبداعية أخرى على العصر، تطرح أسئلة عديدة، وتواجه القضايا الزائفة التي اختلقها المتكلّمون باسم الإسلام كاشفة عن الوجه الحقيقي لهؤلاء القادمين من غبار التاريخ. تُعدّد المؤلفة في هذه الرواية ضحايا هذا التفكير المتعصّب وهم الشّباب وعائلاتهم والدّولة ومسار التّاريخ وحتّى اللّغة. السّاردة نفسها ضحيّة، فهي تقصّ ما شهدته وشاهدته من ويلات الحرب والاغتصاب والتّعذيب.
الشّخصية الرّئيسية في "زمن الغبار" هي الذّاكرة، فهي التي تعيش صراعا مع الزّمن وتحاول أن تواجه الغبار الذي علق بالمجتمع وأفسد الحقيقة التّاريخيّة، وتحثّ القارئ على التّفكير وإمعان النظر فيما جرى، قصد تحديد المسافة الفاصلة بين الحقيقة والوهم وبين الواقع والخيال وبين العقل والجنون..
لمجد بن رمضان
ناقد من تونس
رواية
www.zayneb-edition.com
9789938392241
السعر : 25 د.ت